AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
2 2 JUL 1972
Tel. 260458

غانية أطلنطا

843
B47aA
C.1

پيير بنوا
عضو المجمع اللغوى الفرنسى

غانية أطلنطا

« يجدر بى أولا أن أنبئك قبل الدخول فى الموضوع بألا يأخذك الدهش إذا سمعتنى أسمى بعض البرابرة بأسماء يونانية . »

أفلاطون : « كريسياس » .

ترجمة رشدى كامل

68836

دار الكاتب المصرى

الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

العنوان الأصلى للكتاب

بالفرنسية

PIERRE BENOÎT

L'ATLANTIDE

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصرى ١٩٤٧

إلى أندريه سوارس

فهـــــرس

صفحة

خطاب تمهيدى ١١
الفصل الأول : مركز فى الجنوب ١٧
الفصل الثانى : الكابتن دى سانت أفيت ٣٢
الفصل الثالث : بعثة مورانج وسانت أفيت ٤٧
الفصل الرابع : نحو خط ٢٥° ٥٧
الفصل الخامس : النقش.................................. ٧١
الفصل السادس : من مساوىء الخس ٨٥
الفصل السابع : فى بلاد الخوف ٩٨
الفصل الثامن : اليقظة فى الحجار ١١٢
الفصل التاسع : الأطلنطيد ١٢٨
الفصل العاشر : قاعة المرمر الأحمر ١٤٣
الفصل الحادى عشر : أنتينيا ١٥٧
الفصل الثانى عشر : مورانج يستيقظ ويختفى................ ١٧٢
الفصل الثالث عشر : قصة قائد جيتومير ١٨٨
الفصل الرابع عشر : ساعات الانتظار..................... ٢٠٧

صفحة

الفصل الخامس عشر : شكاية تانيت زرجا ٢١٨
الفصل السادس عشر : المطرقة الفضية ٢٣٠
الفصل السابع عشر : عذارى الصخور ٢٤٤
الفصل الثامن عشر : الجعلان ٢٥٨
الفصل التاسع عشر : التاتنزرفت ٢٧٤
الفصل العشرون : الدائرة تتصل ٢٨٨

خطاب تمهيدى[1]

حسى اينيفيل فى ٨ نوفمبر ١٩٠٣

لو قدر للصفحات التالية أن ترى ذات يوم ضوء الشمس فسأكون يومئذ قد حرمته . فما أحدد من أجل لنشرها هو الضمان الأكيد الذى يكفل لى ذلك .

أرجو ألا يحمل قصدى على غير مرماه حينما أتهيأ لهذا النشر أو أطالب به . ولعل هناك من يصدقنى حينما أؤكد أنى لا أربط بين هذه الكراسة المحمومة وبين كرامتى مؤلفاً بأية وشيجة . وأنا منذ الآن بعيد كل البعد عن هذه الأشياء جميعاً . والحق أنه ليس ثمة غناء فى أن يخاطر آخرون بالسير فى طريق لن تكون لى منها رجعة .

الساعة الرابعة صباحاً . لا يلبث الفجر أن ينشر أضواءه الوردية

---

(١) سلم الملازم فريير هذه الرسالة والمخطوط الذى يرافقها — وكان هذا المخطوط فى غلاف خاص مقفل — إلى الجاويش شاتلان فى الفرقة الثالثة من سلاح الفرسان فى ١٠ نوفمبر ١٩٠٣ ، يوم رحل هذا الضابط إلى تاسيلى الطوارق الأزجر (بالصحراء الوسطى) . وكان الجاويش قد أمر بتسليمها فى أول إجازة له إلى مسيو لورو مستشار الشرف بمحكمة استئناف ريوم ، وهو أقرب شخص إلى الملازم فريير . وتوفى فجأة رجل القانون هذا قبل انتهاء مدة عشر السنوات المحددة لنشر هذا المخطوط . فنتج عن ذلك صعوبات أرجأت إلى اليوم نشر هذا المخطوط .

على الحمادة . وها هو ذا البرج يغفو من حولى ، و إنى لأسمع من خلال باب حجرة أندريه دى سانت أفيت الموارب تنفساته الهادئة ، بل الهادئة جدا .

سأرحل أنا وأندريه بعد يومين . وسنترك البرج لنتوغل بعيداً نحو الجنوب . لقد وصل القرار الوزارى أمس صباحاً .

والآن قد مضى وقت التراجع مهما يكن من اشتداد رغبتى فيه . لقد طالبت أنا وأندريه بهذه المهمة . ما كنت أطالب به من تصريح بالاتفاق مع أندريه ، غدا أمراً واقعاً فى هذه الساعة . أترى كنا نطرق أبواب الرؤساء ونبعث بالشفعاء إلى الوزارة ، أكنا نفعل هذا كله لنخاف ونجفل أمام المغامرة ! . . .

ذكرت الخوف . أنا أعرف أنى لا أستشعر خوفاً . ولكنى شعرت بالخوف ذات ليلة فى الجرارة ؛ إذ وجدت اثنين من الحراس ممثلا بهما وعلى بطنيهما تشريط البرابرة الصليبى البغيض . و إنى أعرف ما هو الخوف . و إنى لأعلم الآن أن ما أستشعره — حينما أحدق بنظرى فى هذا الفضاء المظلم الذى لا يلبث أن تبزغ منه فجأة الشمس الهائلة المحمرة — ليس خوفاً ، وأحس فى نفسى صراعاً بين رعب مقدس من المجهول وبين ما يجذبنى نحوه .

ربما كان هذا دخانا أو تخيلات عقل مجهود وعين خدعها السراب . وسيأتى من غير شك ذلك اليوم الذى سأعاود فيه قراءة هذه الصفحات وعلى شفتى ابتسامة هى مزاج من الشفقة والضيق — ابتسامة رجل ناهز الخمسين يعاود قراءة رسائل قديمة .

دخان وتخيلات ! ولكن هذا الدخان وهذه التخيلات عزيزة على نفسى . جاء فى البرقية : « على الكابتن دى سانت أفيت والملازم

فريير أن يعملا لكشف الروابط الطبيعية بين الحجر الأبيض والجير الكاربونى . وعليهما أن ينتهزا هذه الفرصة ويستعلما عرضاً عما طرأ فى موقف الأزجر من تغير نحو حكمنا . . . » ولو لم يكن للرحلة فى النهاية إلا مثل هذه الأغراض التافهة لشعرت بأنى ما كنت لأسافر .

وإنى إذن لأتمنى ما أخشى . وسيخيب رجائى إذا لم أواجه ما يسبب لى هذه الرعدة الغريبة .

وفى أعماق وادى المياه ينبح ابن آوى . ومن حين إلى حين يشق شعاع القمر السحب المحملة بالحرارة شقا مفضضاً ، فتترنم يمامة على النخيل متخيلة أن الشمس الفتية قد بادرت بالظهور .

صوت أقدام فى الخارج . أنحنى على النافذة . خيال ملتف فى ثياب سود لامعة ينساب على حافة سطح البرج . برق فى الليل المكهرب . لقد أشعل الرجل لفافة وجثا نحو الجنوب يدخن .

إنه صغير بن شيخ رائدنا الطارقى الذى سيقودنا بعد ثلاثة أيام إلى هضاب مجهولة فى مقاطعة إيموسكاوك الغامضة بين جبال الحجر الأسود والأودية المتسعة الجافة والملاحات الفضية والأغوار وكثبان الذهب غير البراق يعتليها حينما تهب الريح تاج خفاق من الرمل الشاحب .

صغير بن شيخ ! هو هذا الرجل . لقد خطرت ببالى جملة ديفيرييه المؤثرة : « فى اللحظة التى وضع فيها الكولونيل قدمه فى الركاب تلقى ضربة سيف[1] . . . » صغير بن شيخ ! . . . إنه هناك . ها هو ذا يدخن فى هدوء لفافة من اللفافات التى أعطيته إياها . رب اغفر لى هذه الخيانة .

---

(١) ا . ديفرييه : « محنة بعثة فلاترز » عن « مجلة الجمعية الجغرافية » عام ١٨٨١ .

ينشر المصباح ضوءه الأصفر على الورق . قدر غريبٌ ذلك الذى حتم على — دون أن أعرف لذلك سبباً بالضبط — أن أتهيأ لدخول سان سير ، وجعل منى زميلا لأندريه دى سانت أفيت . كان فى إمكانى أن أدرس القانون أو الطب . ولو فعلت ذلك لطاب لى العيش فى بلدة ذات كنيسة ومياه جارية ، ولما صرت هذا الشبح الذى يرتدى القطن وهو ينظر فى قلق لا يمكن التعبير عنه إلى الصحراء التى ستبتلعه بعد قليل .

ودخلت حشرة كبيرة من النافذة وأخذت تطن وتتخبط بين الحائط الملون وزجاج المصباح . وأخيراً سقطت مهزومة على الورقة البيضاء وقد احترق جناحاها بنار الشمعة التى ما زالت عالية .

إنه جُعَل[^] إفريقى ضخم أسود تتخلله بقع رمادية باهتة .

إننى أفكر فى الآخرين ، فى إخوته بفرنسا ، فى الجعلان الحمر التى كنت أراها فى أمسيات الصيف العاصفة تندفع من الأرض فى بلدتى كأنها كرات صغيرة . كنت أقضى عطلتى هناك طفلا ، وبعد ذلك إجازاتى ضابطاً . وفى أثناء إجازتى الأخيرة وفى المرعى نفسه كان يماشينى شخص نحيف أبيض يرتدى وشاحاً حريريا يقيه نسيم الليل وهو جد بارد هناك . والآن حينما تعاودنى هذه الذكرى لا أملك أن أدع بصرى يشخص لحظة نحو ركن مظلم من حجرتى حيث يلمع على الحائط العارى زجاج صورة غير واضحة . وإنى لأدرك جيداً ما قد فقد من منزلته هذا الشخص الذى كان يلوح لى كأنه كل شئ فى هذه الحياة . والآن لم تبق ثمة أهمية عندى لهذا السر المؤلم . وأنا أعرف أنه لو أخذ سرتلو رولا المتجولون يرددون أغانيهم الشائعة المليئة بالذكريات لما استمعت إليهم قط ، بل لطردتهم بعيداً إذا ما أثقلوا فى الغناء .

ما الذى أحدث هذا التغيير؟ أقصة أو لعلها أقصوصة سردها على كل حال شخص مثقل بأفظع الشبهات؟

لقد انتهى صغير بن شيخ من تدخين لفافته . و إنى لأسمعه يعود فى خطوات بطيئة إلى حصره فى البناء (ب) على مقربة من مكان الحراس إلى اليسار .

و بما أننا سنرحل فى يوم ١٠ نوفمبر فقد ابتدأت تحرير هذا المخطوط الملحق بهذه الرسالة فى يوم الأحد أول نوفمبر ؛ وانتهيت منه يوم الخميس ٥ نوفمبر ١٩٠٣ .

أوليفيه فرير

ملازم فى الفرقة الثالثة من سلاح الفرسان

الح
خط
« ا
جر
مد
إلى
من
فرا
فى
اليا
بكت
دى

الفصل الأول

مركز فى الجنوب

فى يوم السبت ٦ يونيه ١٩٠٣ قطع حادثان — يختلفان أهمية — الحياة المملة التى كنا نحياها فى مركز حسى إينيفل : ذلك هو وصول خطاب من مدموازيل سيسيل دى س*** ، وورود أحدث أعداد « الجريدة الرسمية » للجمهورية الفرنسية .

وقال الجاويش شاتلان وهو يتصفح أعداد الجريدة بعد أن جردها من أربطتها :

— لو تكرم سيدى الملازم !

فأومأت إليه مجيباً بحركة من رأسى وأنا غارق فى قراءة خطاب مدموازيل دى س*** . هذا ما كتبته حرفيا هذه الفتاة المحبوبة :

« عند ما يصلك هذا سأكون أنا وأمى قد هجرنا بلا شك باريس إلى الريف. فلو أنك تجد عزاء فى أن يكون ضيقى بالحياة بقدر ماتجد أنت من الضيق فى بلدتك ، فليهنئك ذلك ! لقد أقيم سباق الجائزة الكبرى ، فراهنت على الحصان الذى عينته لى وقد خسرت بالطبع . تناولنا فى الليلة السابقة العشاء عند آل مارسيال دى لاتوش ، وكان هناك الياس شاتريان وهو لا يزال يثير الاعجاب بشبابه . أبعث إليك بكتابه الأخير الذى أثار بعض الضجة . ويبدو أن آل مارسيال دى لاتوش قد صوروا فيه على طبيعتهم . وأرفق مع هذا آخر مؤلفات

بورجيه ولوتى وفرانس وبعض الأغانى الشائعة فى المراقص . أما فى السياسة فيقال إن تطبيق القانون على الهيئات الدينية سيقابل صعوبات حقة . لا جديد فى المسارح . لقد اشتركت لمدة الصيف فى مجلة « الالستراسيون » فلو راقك ذلك . . . فى الريف لست أدرى ماذا أفعل . لا أرى أمامى إلا جماعة التنيس الحمقى أنفسهم . فلن يكون لى أى فضل فى الكتابة دائماً إليك . أرجو أن تعفينى من تعليقات على كومبال الصغير . لست موالية للحركة النسوية لأننى أثق بمن يدعوننى جميلة و بخاصة بك . وأخيراً لا أطيق التفكير فيما لو أبحت لنفسى أن أخلع العذار مع أحد خدم العزبة بربع ما تفعل أنت من غير شك مع أولاد نايل . . . لندع ذلك ؛ فثمة تخيلات جارحة . »

كنت قد وصلت إلى هذا القدر من كلام تلك الفتاة الطائشة عند ما رفعت رأسى لشهقة دهش من الجاويش .

— سيدى الملازم !

— ماذا ؟

— يا لسخافاتهم فى الوزارة ! يحسن أن تقرأ .

وناولنى « الجريدة الرسمية » ، فقرأت ما يلى :

« بقرار فى تاريخ أول مايو ١٩٠٣ ألحق الكابتن دى سانت أفيت ، خارج الهيئة بسلاح الفرسان الثالث وعين قائداً لمركز حسى اينيفل . »

وأخذ سخط شاتلان يزداد عنفاً .

— الكابتن دى سانت أفيت قائداً لهذا المركز ! مركز لم يؤخذ عليه شئ قط ! إنهم يعتبروننا مستودعاً للقمامة !

كانت دهشتى تضاهى دهشة صف الضابط ، ولكن فى اللحظة

نفسها رأيت وجهاً كريهاً هو وجه الخبيث جورو ، الجندى الذى كنا نستخدمه فى الأعمال الكتابية . لقد توقف عن الكتابة وأخذ يستمع فى اهتمام وخبث .

فقلت بلهجة جافية :

— أيها الجاويش ، إن الكابتن دى سانت أفيت زميل من دفعتى .

فانحنى شاتلان وخرج . ولحقت به ، وقلت له وأنا أربت على كتفه :

— يا صديقى لا تغضب . تذكر أننا راحلان بعد ساعة إلى الواحة . فلتعدّ الرصاص . يجب أن نصلح من طعامنا المعتاد .

وما عدت إلى مكتبى حتى أشرت إلى جورو بالانصراف ، ولما صرت وحيداً أتممت سريعاً رسالة الآنسة دى س*** ثم أخذت « الجريدة الرسمية » وأعدت قراءة القرار الوزارى الذى عين لمركزنا رئيساً جديداً .

لقد مرت أشهر خمسة وأنا أقوم بهذه المهمة . والحق أنى تحملت تماماً هذه التبعة وتذوقت الاستقلال كثيراً . ويمكننى أن أؤكد دون فخر أن العمل تحت إدارتى كان يختلف عما كان فى أيام الكابتن ديوليفول الرئيس الأسبق لسانت أفيت . كان الكابتن ديوليفول طيب القلب من المستعمرين القدماء خدم صف ضابط مع دودز ودوشين . ولكنه كان شديد الميل إلى تعاطى الكحول . وكان إذا شرب يخلط بين اللهجات ، حتى لقد كان يستجوب هوسه بلهجة الساكالاف . وليس من أحد أكثر منه تقتيراً فى استنفاد المياه فى المركز . وبينما كان ذات صباح يعد شراب الابسنت بصحبة الجاويش شاتلان ، كان هذا الأخير ينعم النظر فى كأس الكابتن ، فرأى — وهو فى غاية من الدهش — السائل الأخضر يستحيل أبيض نتيجة لقدر من الماء زائد عن المعتاد . فرفع رأسه وقد شعر بأن شيئاً

خارقاً قد حدث ، كان الكابتن متخشباً يحدق فى الماء والدورق مائل فى يده تسقط منه القطرات على السكر . لقد مات .

ومرت خمسة أشهر بعد وفاة هذا السكير الظريف دون أن تهتم الجهات العليا على ما يظهر بتعيين من يخلفه . وكنت آمل فى اللحظة نفسها أن يتخذ قرار ما يخول لى من السلطة ما كنت أقوم به فعلا ... واليوم يأتى هذا التعيين المفاجئ ...

الكابتن دى سانت أفيت ... كان ممن اخترتهم من مجندى سان سير ، ولم أره بعد ذلك قط . وأخيراً استرعى انتباهى بتقدمه السريع والانعام عليه بأوسمة الشرف جزاء استحقه بعد ثلاث رحلات استكشافية خطيرة للغاية فى تبستة والحير . وفجأة حدثت المأساة الغامضة فى رحلته الرابعة ، فى البعثة المعروفة مع الكابتن مورانج والتى لم يعد منها غير مستكشف واحد . وما أسرع ما تنسى الأشياء فى فرنسا ! وانقضت على ذلك ست سنوات لم أسمع خلالها عن دى سانت أفيت شيئاً حتى اعتقدت أنه قد ترك الجيش . وهأنذا أجده الآن رئيساً لى .

وقلت لنفسى : « إنه سواء عندى أن يكون ذلك الرجل أو غيره رئيساً لى ، كان فى المدرسة ظريفاً ، وكانت الصلات بيننا على أحسن ما يرام . على أنه لم تكن أقدميتى كافية لتسمح لى بأن أرقى كابتن . »

وخرجت من مكتبى وأنا أصفر .

كنت أنا وشاتلان ساعتئذ بالقرب من البركة فى منتصف الواحة الفقيرة مختبئين وراء الأعشاب المتشابكة . وقد وضعنا بندقيتينا على الأرض التى هبطت حرارتها . وأخذت الشمس تنحدر إلى المغيب

وهى تصبغ بلونها الأحمر القنوات الصغيرة الراكدة حيث تجرى مياه الرى للمزروعات الخاصة بالمقيمين السود .

لم ننبس ببنت شفة أثناء رحلتنا ولا أثناء تربصنا . كان شاتلان ظاهر الغضب .

وأسقطنا فى صمت عدة قمريات بائسة الواحدة تلو الأخرى ، كانت تقبل تجر أجنحتها — وقد أثقلتها حرارة النهار — لتطفىء ظمأها من هذا الماء الأخضر الثقيل . ولما اصطف تحت أقدامنا ستة من تلك الأجسام النحيفة الدامية مددت يدى إلى كتف صف الضابط :

— شاتلان !

فارتعد فرقاً .

— شاتلان ! لقد نهرتك منذ حين . يجب ألا تحقد علىّ . إنها الساعة الفظيعة التى تسبق وقت الراحة ، ساعة القيظ اللعينة .

أجاب فى لهجة كان يريد أن تكون مشعرة بالغضب ولكنها لم تبن إلا عن التأثر :

— إن سيدى الملازم هو الآمر الناهى .

— شاتلان ، يجب ألا تحقد علىّ إنك تريد أن تنهى إلىّ شيئاً . وأنت تدرك ماذا أعنى .

— لست أدرى . لست أدرى حقا .

— شاتلان ، شاتلان كن جاداً . حدثنى قليلا عن الكابتن دى سانت أفيت .

فرد علىّ فى جفاء :

— أنا لا أعرف شيئاً .

— لا شىء . إذن ما هذه الكلمات التى تفوهتَ بها منذ حين ؟ ...

فتمتم مجيباً وقد خفض جبهته فى عناد :

— إن الكابتن دى سانت أفيت رجل شجاع . لقد رحل وحده إلى بلما و إلى الحير ، فى مناطق لم يذهب إليها أحد قط . إنه لرجل شجاع .

فقلت له فى عذوبة متناهية :

— إنه شجاع من غير شك ، غير أنه قتل رفيقه الكابتن مورانج . أليس كذلك ؟

فارتعد الجاويش الشيخ وأصر فى عناده :

— إنه شجاع .

— إنك لطفل يا شاتلان . أتخشى أن أنقل حديثك إلى قائدك الجديد ؟

كنت قد أصبت المرمى ، فانتفض .

— الجاويش شاتلان لا يهاب أحداً يا سيدى الملازم . لقد حارب فى أبوماى ضد الأمازون ، فى بلاد تخرج إليك من وراء كل شجيرة ذراع سوداء تقبض على ساقك على حين تجد أخرى تبترها بضربة قاضية من سكين .

— فما يقوله الناس وما تقوله أنت نفسك . . .

— كل هذا لغو باطل .

— ألغو ما يتناقلونه يا شاتلان فى كل مكان بفرنسا ؟

فنكس رأسه ولم يجب . فصحت به :

— أيها العنيد ، ألا تتكلم ؟

فقال متوسلا :

— سيدى الملازم ، سيدى الملازم ، أقسم أن ما أعرف . . .

— ما تعرفه ستخبرنى به فى الحال ، وإلا فأقسم بشرفى ألا أوجه إليك كلمة مدة شهر إلا فيما يخص العمل وحده .

حسى إينيفل — ثلاثون فارساً من الوطنيين ، أربعة أوربيون أنا والجاويش وأونباشى وجورو . كان التهديد فظيعاً فسرعان ما أثمر . فقال وهو يتنهد من أعماق نفسه :

— حسن يا سيدى الملازم ، هاك القصة . على أنى أرجو على الأقل ألا تأخذنى بأنى نقلت إليك تهماً ما كان يجدر بى أن أنقلها عن رئيس ، خاصة أنها لا تستند إلا على ما يدور فى المقصف من أحاديث .

— تكلم .

— كان ذلك عام ١٨٩٩ . وكنتُ فى صفاقس فى اللواء الرابع من سلاح الفرسان . كنت حسن السمعة ، ولا أتعاطى الشراب . فاختارنى الكابتن للاشراف على مطبخ الضباط ، وكانت وظيفة طيبة حقاً ، وكلفت بالمشتريات والحسابات ورصد الكتب المستعارة من المكتبة (وكانت قليلة جداً) ومفتاح خزانة الشراب ؛ لأن مثل هذه الأمور لا يمكن ائتمان « المراسلة » عليها ، وكان الكولونيل أعزب فهو يتناول الطعام فى النادى . ووصل ذات ليلة متأخراً وعلى محيّاه علامات القلق . وما إن جلس حتى أمر بالتزام الصمت فقال :

— أيها السادة أريد أن أبلغكم خبراً وأن أعرف رأيكم فيه . والمسألة هى أنه فى الصباح الباكر ستصل الباخرة «مدينة نابولى» إلى صفاقس وعلى ظهرها الكابتن دى سانت أفيت الذى عين فى فريانا وهو فى طريقه ليتسلم مهام منصبه .

وصمت الكولونيل وقلت فى نفسى : « حسن ! علينا أن نعنى

بطعام الغد ؛ لأنك تعرف يا سيدى الملازم العادة المتبعة منذ قامت أندية الضباط بأفريقيا . فحينما يمر ضابط يذهب زملاؤه إلى الباخرة ويدعونه ليقضى مدة انتظار قيام الباخرة فى النادى ، ويدفع ثمن ذلك بقص أخبار الوطن . وفى هذا اليوم يحتفى بالزائر ولو كان ملازماً صغيراً . وعندما يمر ضابط بصفاقس فذلك يعنى شيئاً كثيراً : لون جديد من الطعام ، وزجاجة من النبيذ المعتق ، وشمبانيا من أجود الأصناف .

ولكنى فهمت فى هذه المرة من النظرات المتبادلة بين الضباط أن الشمبانيا العتيقة ستظل فى خزانتها .

— لقد سمعتم جميعاً على ما أظن أيها السادة عن الكابتن دى سانت أفيت وما يحوم حوله من الشائعات . ليس علينا أن نقيم وزناً لهذه الشائعات . فلعل فيما ظفر به من ترقية و إنعام ما يسمح لنا أن نرجو أن تكون هذه الشائعات لا تستند إلى أية حقيقة . ولكن هناك مرحلة لسنا ملزمين أن نقطعها بين تبرئة ضابط واستقبال زميل على مائدتنا . و إنى لأكون سعيداً لو استطلعت آراءكم فى هذا الموضوع .

وأطبق السكون . وتبادل الضباط النظرات وتجهموا جميعاً فجأة حتى كثيرو الهذر من صغار ضباط الصف . كنت أدرك وأنا فى ركنى أنهم قد غفلوا عنى . فحاولت كل ما يمكن حتى لا تبدر منى بادرة تنبئ بوجودى . وأخيراً انبرى أحد القواد قائلا :

— إننا نشكرك يا سيدى الكولونيل لتفضلك باستشارتنا ؛ فجميع زملائى على ما أعتقد يعرفون إلى أية شائعات أليمة كنت ترمى بحديثك . فاذا سمحت لنفسى أن أتكلم ، فما ذلك إلا لأنى كنت أعمل بالادارة الجغرافية للجيش فى باريس قبل أن أجئ إلى هنا ، وهناك عرفت أن

لكثير من الضباط ، وحتى الثقات منهم ، رأى يتجنبون إبداءه فى هذه القصة البائسة و إن كان مفهوماً أنه ضد مصلحة دى سانت أفيت .

وقال كابتن آخر :

— كنت فى بماكو أيام بعثة مورانج وسانت أفيت . إن رأى الضباط هناك يختلف — مع الأسف — قليلا عما عبر عنه القائد . ولكنى أريد أن أضيف أنهم جميعاً يعترفون بأن ما لديهم ليس إلا شكوك وظن . والظن لا يغنى عن الحق شيئاً إذا ما فكر المرء فى شناعة الأمر .

فقال الكولونيل :

— لكنها على كل حال أيها السادة جد كافية لتسوّغ امتناعنا من استقباله . ليس لنا أن نصدر حكماً ، غير أن مشاركتنا له فى الطعام ليست واجبة علينا . إنها دليل على تقدير أخوى . والمسألة هى أن نعرف أتوافقون على منح دى سانت أفيت هذا الشرف أم لا .

قال ذلك وهو ينظر إلى الضباط واحداً بعد آخر ، فكانوا يجيبون على التعاقب بالسلب بتحريك رءوسهم .

— أرى أننا متفقون . ولكن — مع الأسف — لم تنته مهمتنا بعد . ستصل الباخرة « مدينة نابولى » إلى الميناء صباح الغد ، وسيغادر القارب الذى يقل المسافرين الميناء فى الساعة الثامنة . يجب أيها السادة أن يتطوع أحدكم ويذهب إلى الباخرة . لربما خطر للكابتن دى سانت أفيت أن يحضر إلى النادى . وليس فى نيتنا أن نحمله إهانة عدم استقباله إذا حلّ علينا معتمداً على العادة المتبعة فى استقبال أمثاله . يجب أن نمنع حضوره . يجب إفهامه أنه يحسن به ألا يغادر الباخرة .

وعاد الكولونيل ينظر إلى ضباطه ، فما كانوا يستطيعون إلا

الموافقة . ولما كان يبدو على وجوههم أنهم غير مرتاحين ، قال :

— لا آمل أن أعثر فيكم على من يتطوع لمثل هذه المهمة ؛ فأجدنى مضطراً إلى أن أعين أحدكم بالأمر . كابتن جراندجان ، إن مسيو دى سانت أفيت فى رتبة كابتن . فمن الأصلح أن يقوم ضابط من رتبته بابلاغه قرارنا . وأنت أيضاً أحدثنا عهداً هنا . ولذا أرانى مضطراً أن أعهد إليك بهذه المهمة الشاقة . ولست فى حاجة إلى أن أطلب إليك إنجازها بكل ما يمكن من لباقة .

فانحنى الكابتن جراندجان فى حين تنفس الآخرون الصعداء . وانزوى الكابتن جانباً ما بقى الكولونيل . وما إن خرج الرئيس حتى أفلتت منه هذه العبارة :

— ثمة أشياء يجب أن يحسب حسابها عند الترقية .

وكان الجميع فى اليوم التالى وقت الغداء ينتظرون عودته بفارغ الصبر . فسأل الكولونيل باختصار :

— ما الخبر ؟

لم يجب الكابتن فى الحال . وجلس إلى المائدة حيث كان زملاؤه يعدون شرابهم . أما هو ، وكان رفاقه يسخرون منه لقلة تعاطيه الشراب ، فقد عب كوباً كبيراً دفعة واحدة دون أن ينتظر ذوبان السكر .

فعاد الكولونيل يقول :

— ما الخبر يا كابتن ؟

— يا سيدى الكولونيل لقد تم كل شئ . تستطيع أن تطمئن . لن ينزل إلى البر . يا إلهى يا لها من مهمة ثقيلة :

لم يجرؤ الضباط على أن ينبسوا بكلمة ؛ غير أن نظراتهم وحدها كانت تفصح عن فضول قلق .

وتناول الكابتن جرعة ماء .

— هاكم القصة : لقد أعددت حديثى وأنا فى طريقى إليه فى القارب. وحينما ارتقيت الدرج شعرت أن كل ما أعددت تبخر . كان سانت أفيت فى حجرة التدخين صحبة قومندان الباخرة . وخيل لى أننى لن أجد فى نفسى القوة على أن أبلغه جلية الأمر وقد رأيته متهيئاً للنزول. كان يرتدى ثوب النهار وسيفه على المقعد . وكان يلبس مهمازه . ولا يلبس المهماز على الباخرة . وقدمت نفسى وتبادلنا بعض الحديث. ولعله كان يبدو على سيمائى التكلف ؛ إذ أدركت منذ أول لحظة أنه قد حدس الأمر . وتذرع بعذر ما تاركا القومندان، وقادنى إلى مؤخر السفينة على مقربة من عجلة القيادة الضخمة . وهناك تجاسرت على الكلام . ماذا قلت يا سيدى الكولونيل ؟ لا بد أنى أكون قد تعثرت فى الحديث . لم يكن ينظر إلىّ. وسرح ببصره بعيداً وقد اتكأ على حاجز السفينة وعلى ثغره ظل ابتسامة . ولما أرتج علىّ نظر إلىّ فى برود وقال :

— إنى أشكر لك أيها الزميل العزيز ما تحملت من مشاق. على أنه لم يكن ما يدعو إلى ذلك ؛ فانى متعب ، وما كنت أنوى النزول من الباخرة . ولكن لقد أسعدنى الحظ أن أتعرف بك . وبما أنى لا أستطيع الاستمتاع بضيافتك أرجو أن تتفضل بقبول ضيافتى ما بقى القارب بجانب الباخرة .

وعدنا إلى قاعة التدخين . وأعد بنفسه الكوكتيل وأخذ يحدثنى ، فألفينا لنا أصدقاء مشتركين . لن أنسى أبداً هذا الوجه وهذه النظرة الساخرة التائهة ، وهذا الصوت الحزين الرقيق . ياسيدى الكولونيل ويا سادتى إنى أجهل ما يحكى فى الادارة الجغرافية أو فى مراكز

السودان ، ولكن لن يكون هناك إلا لبس فظيع . رجل مثل هذا يقدم على اقتراف مثل هذا الجرم ! صدقونى ليس هذا ممكناً .

وختم شاتلان حديثه بعد فترة صمت بقوله :

— هذه هى القصة يا سيدى الملازم . لم أر قط فى حياتى غداء كئيباً كهذا . وأسرع الضباط فى تناوله دون أن يعربوا عما كانوا يشعرون به من ضيق لم يحاول أحد أن يقاومه . وكنا نلاحظ خلال هذا الصمت المطبق النظرات تتجه خفية فى غير ما انقطاع نحو « مدينة نابولى » التى كانت تتراقص هناك بفعل النسيم على فرسخ من الشاطئ .

وفى المساء عندما تقابل الضباط على مائدة العشاء كانت الباخرة ما زالت هناك . وحينما أنبأ الصفير والدخان المتصاعد من المدخنة ذات اللونين الأحمر والأسود برحيل الباخرة إلى قابس ، حينئذ فقط عادوا إلى أحاديثهم وإن لم تكن مرحة كالعادة .

ومنذ ذلك الوقت يا سيدى الملازم تجنب القوم فى نادى صفاقس كل موضوع يؤدى إلى التحدث عن الكابتن دى سانت أفيت كما يتجنبون الطاعون .

كان شاتلان يتكلم فى صوت خفيض تقريباً ولم يستمع سكان الواحة القليلون إلى قصته الفريدة . وانقضت ساعة على آخر طلقة من بنادقنا . وكانت طيور القمرى وقد عاودها اطمئنانها تستحم حول البركة . وحلقت طيور كبيرة تحت النخيل المظلم . وجعلت ريح قليلة الحرارة ترجح فى رعدة سعفها الكئيب ، كنا قد وضعنا خوذتينا بجانبنا لنعرّض وجوهنا لخطرات هذه النسمة الخفيفة . فقلت :

— شاتلان حان وقت العودة إلى البرج .

وجمعنا فى بطء ما تساقط من طيور القمرى ، وأحسست بنظرة صف الضابط تنصب على . كانت نظرة يشوبها التأنيب والأسف على اعترافه . ولكنى لم أجد القوة خلال المدة التى استغرقناها فى عودتنا على أن أقطع هذا السكون البغيض بكلمة واحدة .

وحينما وصلنا كان الليل قد شملنا تقريباً . كنا لا نزال نرى العلم فى أعلى المركز وهو يتساقط على الصارى ، بيد أننا لم نكن نميز ألوانه وقد غابت الشمس فى الغرب وراء الكثبان المتعرجة على سواد السماء البنفسجى .

ولما دخلنا من باب الحصن تركنى شاتلان وهو يقول :

— إنى ذاهب إلى الإسطبل .

ولما صرت وحيداً توجهت إلى ناحية من البرج حيث مسكن الأوربيين ومخزن الذخيرة . وثمة كآبة لا توصف قد نكست رأسى .

وفكرت فى زملائى فى الحاميات الفرنسية : فى مثل هذه الساعة كانوا دون ريب فى طريقهم إلى منازلهم حيث تنتظرهم على فراشهم ملابس السهرة : الحلة المزركشة ذات الأكتاف البراقة .

فقلت فى نفسى : غداً سأبعث بالتماس لنقلى .

كان الدرج المصنوع من اللبن مظلماً ، وكانت أضواء باهتة تتحرك فى حجرة المكتب حين دخولى .

وقد جلس إلى مكتبى رجل منكب على السجلات وقد أولانى ظهره فلم يفطن لحضورى .

— حسن ! جورو أرجو يا بنى ألا تشعر بمضايقة . فأنت فى بيتك .

فنهض الرجل فرأيته طويل القامة نحيفها شاحب اللون .

— الملازم فريير ، أليس كذلك ؟

فتقدم ومد إلىّ يده :

— كابتن دى سانت أفيت . أنا مسرور يا زميلى العزيز .

وفى هذه اللحظة ظهر شاتلان عند باب المكتب فقال له القادم الجديد :

— أيها الجاويش ليس لى أن أهنئك على القليل الذى اطلعت عليه . لم أجد رحلا واحداً لا يعوزه حزام . وكانت كعوب البنادق فى حالة تبعث على الاعتقاد بأن السماء تمطر فى حسى إينيفل ثلاث مائة يوم فى السنة . ثم أين كنت هذا المساء ؟ لم أجد من الفرنسيين الأربعة فى المركز حين وصولى غير كاتب واحد بين يديه كأس من الخمر . كل هذا سيتغير . أليس كذلك ؟ انصراف .

فقلت فى صوت خافت وقد وقف شاتلان جامداً فى حركة انتباه :

— أحب أن أخبرك أن الجاويش كان معى وأننى المسئول عن غيابه من المراكز ، وأنه صف ضابط لا غبار عليه ، وأننا لو كنا قد أنبئنا بقدومك . . .

فقال فى ابتسامة كلها سخرية باردة :

— بالتأكيد ! ولذا لا أنوى أيها الملازم أن أسأله عن إهمال تقع عليك تبعته . ليس له أن يعرف أن الضابط الذى يترك ولو ساعتين مركزاً مثل حسى إينيفل مهدد بألا يجد شيئاً عند عودته . إن نهابة قبيلة الكمبا يا زميلى العزيز مغرمون بالأسلحة النارية ؛ وأنا على يقين أنهم لن يترددوا لحظة، إذا انتهزوا فرصة غياب الضابط الذى أعرف أنه طيب السيرة ، فى الاستيلاء على الستين بندقية التى تملأ

المخزن معرّضين هذا الضابط للمثول أمام مجلس عسكرى . ولكن أرجو أن تتبعانى . سنتم التفتيش الصغير الذى قمت به فى عجلة منذ الساعة .

كان قد وصل إلى الدرج . واقتفيته فى صمت وقد تبعنا شاتلان . وسمعت هذا الأخير يتمتم فى ضجر أترك لكم أن تتخيلوه :

— حقا أن الحياة ستكون شاقة هنا .

الفصل الثانى

الكابتن دى سانت أفيت

ولم نحتج إلا إلى أيام قليلة ليتأيد لنا بطلان مخاوف شاتلان الخاصة بعلاقتنا الرسمية مع رئيسنا الجديد . وكثيراً ما ظننت أن سانت أفيت بما أظهر من خشونة لأول وهلة إنما أراد أن يظهر ما له من سلطان علينا مؤكداً لنا أنه يعرف كيف يشمخ بأنفه بالرغم من ماضيه المثقل . ومع ذلك فقد بدا فى اليوم التالى لوصوله فى مظهر مختلف كل الاختلاف عن مظهره الأول ، حتى لقد شكر للجاويش حسن حالة المركز وحسن تدريب الجنود . أما معى أنا ، فقد كان ظريفاً للغاية . وقال لى :

— نحن من دفعة واحدة . أليس كذلك ؟ إذاً فلن أصرح لك برفع الكلفة بيننا ؛ إذ من حقك أن ترفعها .

علائم ثقة باطلة وا أسفاه ! وظواهر كاذبة لحرية الفكر بينى وبينه. هل من شئ يمكن التوغل فيه بسهولة كالصحراء التى تفتح صدرها لكل من يريد أن يفنى فيها ؟ وهل ثمة من هو أكثر غموضاً منها ؟ بعد ستة أشهر قضيناها فى مسكن واحد وعشنا خلالها عيشة واحدة تتيحها دائماً مراكز الجنوب ، ساءلت نفسى : أليس من أغرب المخاطرات أن أرحل غداً مع رجل إلى تلك الجهات الموحشة المجهولة ، مع أنى لا أعرف من دخائل نفسه أكثر مما أعرف عن تلك الفيافى التى نجح فى تشويقى إليها ؟

وأول ما استثار دهشتى فى هذا الرفيق الغريب هو المتاع الذى أمر أن يلحق به .

لما قدم علينا فجأة من وارجلان كان قد عهد إلى الناقة الـكريمة التى امتطاها بحمل ما يمكن أن يحمله حيوان رقيق مثلها دون أن ينفق ، كأسلحته ، السيف والمسدس و بندقية قوية ، وبعض متاع قليل جدا . ولم يصل باقى المتاع إلا بعد خمسة عشر يوماً مع القافلة التى تقوم بتموين المركز .

وحُملت ثلاثة صناديق كبيرة الحجم على التعاقب إلى حجرة الـكابتن . وقد دل جليا على ثقلها ما كان يبدو على وجوه الحمالين من تقطيب .

وقد تركت سانت أفيت وحده يأخذ حريته وهو ينظم شؤونه ، وطفقت أقرأ الرسائل التى حملتها إلىّ القافلة .

ثم دخل بعد قليل المكتب وألقى نظرة على ما وصل إلىّ من مجلات قليلة وقال :

— عجباً ! أيصل إليك هذا ؟

وكان يتصفح فى الوقت نفسه العدد الأخير من مجلة « الجمعية الجغرافية فى برلين » . فأجبته :

— نعم ! إن هؤلاء السادة يهتمون ببحوثى الجيولوجية فى وادى المياه وأعالى غرغيرة .

فتمتم يقول وهو يتصفح المجلة :

— لعلى أستفيد من هذا .

— إنها رهن أمرك .

— أشكرك ، أخشى ألا يكون لدىّ ما أهبه لك فى مقابلها

ما عدا بلين على ما أذكر . على أنك . . . أنت تعلم يقيناً كما أعلم ما يقوله بلين عن غرغيرة نقلا عن الملك يوبا . وعلى أية حال فهلم لتساعدنى فى تنظيم شؤونى ، وسترى أهناك ما يلائمك .

فقبلت دون حاجة إلى مزيد من رجاء .

فابتدأنا باخراج بعض الآلات المتيورولوجية والفلكية من ترمومترات بودان وسالرون وفاستريه ومقيـاس ضغط فورتان ومقـاييس زمن ومقياس للزاوية ومنظار فلكى وبوصلة ذات منظار، وباختصار كل ما يسميه ديفرييه أبسط عدة وأخفها حملا على الجمال .

وكنت كلما ناولنى سانت أفيت آلة من هذه الآلات ، أضعها فى نظام على المائدة الوحيدة التى كانت فى الحجرة . ثم صاح بى :

— لم يبق الآن غير الكتب وسأناولها لك . فكوّمها فى أحد الأركان حتى تهيأ الرفوف .

لبثت معه ساعتين أساعده فى ترتيب مكتبة كاملة . وأية مكتبة ! لم ير مثلها مركز فى الجنوب .

اجتمعت بين جدران حجرة البرج الأربعة المطلية كل نصوص القدماء التى يمكن أن يكون فيها ما يمت للصحراء بصلة : هيرودوت وبلين بالطبع ، وسترابون ، وكذلك بطليموس بومبونيوس ميلا. واميان مرسلان . ولكنى لمحت إلى جانب هذه الأسماء التى خفضت قليلا من جهلى أسماء كوريبوس وبول أوروز وأراتوستين وفوثيوس وديودور الصقلى وسولان وديون كاسيوس وأيزيدور الأشبلى ومارتن الصورى وأيتيكوس وآتينيه . . . و « كتاب تاريخ أوغسطس » و « رحلة أنطونيوس أوغسطس » و « صغار الجغرافيين اللاتينيين » تأليف ريز و « صغار الجغرافيين الاغريق » تأليف كارل مولر . . . منذ

ذلك الحين سنحت لى فرصة للتعرف بأجارتشيد من كوس والأرتيميدور الأيفيزى . على أنى أعترف أن وجود هذه البحوث فى هذه اللحظة فى حجرة ضابط من ضباط السوارى قد أثار شعورى .

وأذكر أيضاً « وصف أفريقيا » لليون الأفريقى والتواريخ العربية لابن خلدون واليعقوبى والبكرى وابن بطوطة ومحمد التونسى . . . ولا أذكر من هذا الخليط إلا كتابين يحملان اسمى عالمين فرنسيين معاصرين . على أنهما هما رسالتان باللاتينية لبرليو[١] وشرمر[٢] .

وبينما أنا أكوم هذه الكتب المختلفة الأحجام بحيث تحتفظ بتوازنها قدر المستطاع كنت أحدث نفسى :

— لقد اعتقدت أن سانت أفيت مكلف بملاحظات علمية فى مهمته مع موراتج . فإما أن تكون ذاكرتى قد خانتنى تماماً ، وإما أن يكون قد غير منذ ذلك الوقت منهجه فى الحياة ؛ على أنه من المؤكد أننى لا يهمنى شئ من هذا الخليط من الكتب .

ولا بد أنه قد شاهد علامات الدهشة واضحة على وجهى كل الوضوح ؛ إذ قال لى بصوت لمست فيه شيئاً من التحدى :

— لعل اختيارى للكتب قد أدهشك .

فقلت :

— ليس من حقى أن أقول إنه أدهشنى ما دمت أجهل الغرض

---

(١) *Doctrina Ptolemaei ab injuria recentiorum vindicata, sive Nilus Superior et Niger verus, hodiernus Eghiren, ab antiquis explorati.* Paris, in-8°, 1874.
مع خريطتين . (تعليق مسيو لورو) .

(٢) *De nomine et genere populorum qui berberi vulgo dicuntur*, Paris, in-8°, 1892. (تعليق مسيو لورو)

الذى استصحبتها من أجله . وأعتقد أن فى مقدورى أن أقول مؤكداً إنه لم يحدث أن امتلك ضابط مكتبة مثلت فيها العلوم القديمة أصدق تمثيل مثل مكتبتك هذه . وأقول ذلك وأنا لا أخشى أن يكذبنى أحد .
ويدا على شفتيه ظل ابتسامة . ثم قطعنا الحديث فى ذلك اليوم .

وكان مما شاهدته بين كتب سانت أفيت كراسة ضخمة ذات قفل متين . وقد فاجأته مراراً وهو يدون فيها بعض المذكرات . وكان إذا دعاه سبب إلى مغادرة حجرته يضع الكراسة بعناية فى خزانة من الخشب الأبيض هيأتها له أريحية الادارة . وإذا لم يكن لديه عمل ما أمر بوضع الرحل على الجمل الذى جاءنا عليه . وبعد بضع دقائق كنت أستطيع أن أرى ، وأنا على سطح الحصن ، خيالا مزدوجاً يختفى بسرعة فى خطوات واسعة فى الأفق خلف ثنية من الأرض الحمراء.
وأخذت هذه الجولات تطول مرة بعد مرة . وكان يعود بعد كل جولة تسيطر عليه نشوة تحملنى على إدامة النظر إليه خلال تناول الطعام — وقد كان الوقت الوحيد الذى نقضيه فى الواقع معاً — ويخالجنى من ذلك قلق يزداد يوماً بعد يوم .
وفى ذات يوم وقد ظهر على حديثه التفكك أكثر من العادة قلت لنفسى :
— ليس من دواعى الارتياح أن يكون المرء فى غواصة يتعاطى ربانها الأفيون . فما عسى أن يكون المخدر الذى يتعاطاه ذلك الرجل ؟
وفى اليوم التالى ألقيت نظرة سريعة على أدراج زميلى . وقد طمأننى مؤقتاً هذا التفتيش الذى كنت أراه واجباً على ؛ ولكنى قلت لعله يحمل فى ردائه الأنابيب وحقنة برافاز .

كنت فى ذلك الوقت أتصور أن خيال أندريه فى حاجة إلى منبه صناعى .

على أن الملاحظة الدقيقة قد خيبت ظنى إذ لم أجد ثمة ما يريبنى . وعلى كل حال كان أندريه لا يتناول الخمر تقريباً ، وقد كان قليل التدخين .

بيد أنى لم أكن أستطيع أن أنكر ما كان يبدو عليه من حمى مقلقة متزايدة . كان يعود دائماً من جولاته شديد الشحوب ، واضح بريق العينين ، قوى الرغبة بالافضاء بما فى نفسه ، ضيق الصدر جدا .

وفى ذات مساء غادر المركز حوالى الساعة السادسة عندما هبطت الحرارة ، وأخذنا ننتظره طيلة الليل . وقد اشتد قلقى من وجود عصابات اللصوص ؛ إذ أكدت القوافل وجود هذه العصابات فى الأقاليم المجاورة للمركز .

وقد أسفر الفجر دون أن يعود . ولم يعد إلا الظهر . وقد سقط الجمل إعياء إذ لم يستطع البروك .

ووقع بصره أول ما وقع على الجماعة التى كنت أعددتها للبحث عنه وقد احتشد رجالها ودوابها فى الفناء بين الأبراج .

وأدرك أنه لا بد من أن يعتذر . ولكنه انتظر حتى ساعة الغداء وقال :

— آسف لما سببته لك من قلق ؛ غير أن الكثبان كانت رائعة فى ضوء القمر . لقد تركت نفسى فى انسياقها . . .

— ليس عندى يا عزيزى ما آخذه عليك . إنك مطلق التصرف وأنت هنا السيد . ولكن اسمح لى بأن أنبهك إلى عبارة عن لصوص الكمبا وعن الأذى الذى قد يلحق بقائد المركز إذا تغيب طويلا .

فابتسم وأجاب فى بساطة :

— أنا لا أكره أن يكون للمرء ذاكرة قوية .

كان معتدل المزاج للغاية .

— يجب ألا تحقد على . لقد خرجت فى جولة صغيرة كالعادة ، ثم بزغ القمر . وعندئذ عاودتنى ذكرى هـذا المكان : سيكون قد مضى فى نوفمبر القادم ثلاث وعشرون سنة عندما خرج فلاترز من هـذا المكان إلى حتفه فى نشوة عنيفة زاد فى عنفها يقينه أنه لن يعود .

فتمتمت :

— إنها لعقلية غريبة لرئيس بعثة .

— لا تسئ إلى فلاترز . فما من رجـل أحب الصحراء حتى الموت مثله .

فقلت :

— إن بالات ودولز وكثيرين غيرهما قد أحباها كذلك . ولكنهم لم يعرضوا للخطر إلا أنفسهم . فقد كانوا غير مسئولين إلا عن حياتهم وحدها . أما فلاترز فكان مسئولا عن حياة ستين رجلا معه . ولا تستطيع أنت أن تنكر أنه تسبب فى قتل أفراد بعثته جميعاً .

وما كدت أنطق بهذه الجملة حتى ندمت عليها . وأخذت أفكر فى حديث شاتلان فى نادى صفاقس حيث يتقون كما يتقى الطاعون أى حديث يمكن أن يوجه تفكيرهم نحو بعثة مورانج — سانت أفيت .

ولكن لحسن الحظ لم يسمع زميلى جملتى إذ كانت عيناه البراقتان شاردتين . ثم سألنى فجأة :

— بأى حامية كان أول التحاقك ؟

— بجامية أوكسون .

فضحك ضحكة متقطعة .

— أوكسون . الساحل الذهبى — فى دائرة ديجون : ستة آلاف ساكن . على سكة حديد باريس — ليون — مارسيليا . كان يوم الأحد يوم استقبال زوجة قائد السوارى كما كان السبت يوم استقبال زوجة القائمقام . الاجازات يوم الأحد : أول أحد فى الشهر فى باريس . والثلاثة الأخرى فى ديجون . هذا ما يفسر لى حكمك على فلاترز .

أما أنا يا عزيزى فقد كان أول حامياتى فى بوغار . نزلت هناك من الباخرة فى صباح يوم من أيام أكتوبر ، وكنت فى العشرين من عمرى ملازماً ثانياً فى الفيلق الأول الأفريقى وعلى كمى الأسود الشريط الأبيض . « أمعاء معرضة للشمس » كما يسمى نزلاء الليمان أشرطة حراسهم . . . بوغار ! بوغار !

كنت قد بدأت ألمح أرض أفريقيا قبل ذلك بيومين وأنا على ظهر الباخرة . و إنى لأرثى لهؤلاء الذين لا يشعرون بخفقة شديدة حينما يرون لأول مرة تلك الصخور الشاحبة ويفكرون فى أن هذه الأرض تمتد إلى آلاف الأميال . كنت ما زلت طفلا وكنت أملك نقوداً . كنت قد وصلت مبكراً . كان فى إمكانى أن أمكث ثلاثة أيام أو أربعة فى مدينة الجزائر لألهو . ولكن فى المساء نفسه أخذت القطار إلى برواغيه .

وهناك على بعد مائة كيلومتر من الجزائر لا توجد سكك حديدية ثم لا توجد بعد ذلك إلا فى مدينة الكاب . كانت المركبة لا تسير إلا ليلا لشدة الحرارة . وكنت أترك المركبة عند سفح الجبل لأسير بجانبها محاولا أن أتذوق فى هذا الجو أول قبلة من الصحراء .

وعند منتصف الليل استرحنا قليلا فى معسكر الزواف ، وهو مركز متضع على طريق دارس يسيطر على واد جاف انبعث منه نفح محموم من نوار الزقوم . كان هناك جماعة من الكتبة العسكريين والجنود النظاميين متجهين نحو المحاجر فى الجنوب تحت قيادة القناصة وحراس القطر . كان بعضهم وهم من نزلاء سجن الجزائر ودويرة يرتدون البذل العسكرية ولا يحملون سلاحاً بالطبع . أما الآخرون فكانوا من المدنيين . وأى مدنيين ! مجندو السنة وقوادو حى لاشابيل والجوت دور .

رحلوا قبلنا ، وما لبثت المركبة أن لحقت بهم . رأيت على بعد فى ضوء القمر على الطريق الصفراء ذلك الجمع الأسود المتراص الذى يكوّن القافلة . ثم سمعت أغنية خافتة . كان أولئك الأشقياء يغنون . وانبعث أحدهم يردد فى صوت حزين جهير هذا المقطع الذى كان يسرى كئيباً فى قيعان الأودية الزرقاء :

والآن ، وقد كبرت ،
ها هى ذى تذرع الرصيف
مع أفراد عصابة
ريشار لنوار .

وكان الآخرون يرددون فى صوت واحد هذا المقطع البغيض :

فى الباستيل ، فى الباستيل ،
ما أشد حبهم
لنينى بو دى شيان .
ما أجملها ، ما أظرفها ،
فى الباستيل ، فى الباستيل .

ورأيتهم حولى تماماً عند ما حاذتهم المركبة . وتحت القبعات البغيضة كانت العيون فى هذه الوجوه الشاحبة الحليقة تشع ناراً بشعة ، وكان التراب الساخن يقف الأصوات الجافة فى الحناجر . واعترتنى كآبة بغيضة حين خلفت المركبة وراءها ذلك الكابوس المزعج وصحت :

— بعيداً بعيداً إلى الجنوب فى تلك الأماكن التى لا تصل إليها قاذورات المدنية .

وكلما أجهدتنى الرحلة وانتابتنى لحظة غم وشوق إلى أن أقف فى الطريق التى اخترتها لنفسى أذكر كتبة برواغية فلا أفكر حينئذ إلا فى متابعة السير .

ولكن يا له من جزاء عند ما أجد نفسى فى أحد هذه الأماكن حيث لا تفكر الحيوانات التعسة فى الهروب لأنها لم تر إنساناً قط ، وحيث تمتد الصحراء متطاولة حتى لو انهار العالم القديم لا تجد ثنية على الكثبان أو سحابة فى السماء البيضاء تنبئك بذلك .

فتمتمت قائلا :

— هذا حق ! لقد أحسست هذا الاحساس نفسه ذات مرة فى أواسط الصحراء عند تيدى كلت .

كنت إلى تلك اللحظة قد تركته يسترسل فى حديثه دون مقاطعة . وأدركت بأخرة ما ارتكبت من خطأ حينما قاطعته بتلك العبارة المشئومة .

وعاودته ضحكته العصبية البغيضة :

— آه ! حقا فى تيدى كلت . إنى أنصح لك بما فيه مصلحتك ، إذا أردت ألا يسخر منك الناس فاجتنب هذا النوع من الذكريات . إنك تذكرنى بفرومنتان أو بموباسان المسكين الذى تكلم عن الصحراء لأنه وصل إلى جلفا على يومين من شارع باب أزون وميدان الحكومة

وعلى أربعة أيام من شارع الأوبرا ، والذى أعتقد أنه فى جوف الصحراء على طريق القوافل العتيقة إذ رأى بالقرب من أبى سعدة جملا تاعسا كان يحتضر . تيدى كلت ! الصحراء ؟

فقلت بشئ من الكدر :

— ولكن يخيل إلىّ أن عين صلاح . . .

— عين صلاح ! تيدى كلت . يا صديقى المسكين إن آخر مرة مررتها هناك وجدت جرائد قديمة وعلب سردين فارغة قدر ما يرى فى غابة فانسين يوم الأحد .

وأنسانى تحفظى هذا التحيز وهذه الرغبة الواضحة فى إثارتى ؛ فقلت فى مرارة :

— بالتأكيد إننى لم أذهب أنا إلى . . .

وأمسكت ولكن سبق السيف العذل .

وواجهنى بنظراته ، فقال فى هدوء :

— إلى أين ؟

فلم أجب . فردد سؤاله :

— إلى أين ؟

وإذ كنت لازمت الصمت قال لى :

— إلى وادى تارحيت . أليس كذلك ؟

كان البلاغ الرسمى يقول إن الكابتن مورانج دفن على حافة وادى تارحيت على مسافة مائة وعشرين كيلومتراً من تيماساو على خط عرض شمالى ٢٣,٥ . فصحت فى طيش :

— أندريه أقسم لك . . .

— بم تقسم لى ؟

— إنه لم يخطر لى قط . . .

— الكلام عن وادى تارحيت ؟ ولماذا ؟ ولأى سبب لا يتحدث إنسان أمامى عن وادى تارحيت ؟

وهز كتفيه أمام صمتى الملىء بالتوسلات . وقال فى بساطة :

— أبله !

وغادرنى دون أن أفكر فى الرد على كلمته هذه .

لم يكن كل هذا التواضع ليهدئ من روعه . وتأكدت ذلك فى اليوم التالى . لا يمكن أن يوصف الأسلوب التى أظهر به غضبه إلا بأنه بعيد عن اللياقة .

وما كدت أترك فراشى حتى دخل علىّ الحجرة وسألنى :

— أيمكنك أن تشرح لى معنى ذلك .

كان يحمل فى يده سجلا إداريا . وكان من عادته فى أزماته العصبية أن ينزع إلى فحصها آملا أن يعثر على قرينة تجعله رجلا عسكريا فذا . وقد أسعده الحظ بما أمل فى هذه المرة .

وفتح السجل وعلا وجهى احمرار شديد حينما لمحت فيه طبعة أولية باهتة لصورة كنت أعرفها حق المعرفة .

وسأل فى ازدراء :

— ما هذا ؟

كثيراً ما فاجأته وهو يدقق النظر فى صورة مدموازيل دى س . . . دون مراعاة لشعورى . فأدركت فى هذه اللحظة سوء نيته لإثارة الشجار بينى وبينه . وتماسكت وأقفلت الدرج على تلك الصورة البائسة .

غير أنه لم يكن ينتظر هذا الهدوء من جانبى . فقال :

— من الآن فصاعداً أرجو أن تلاحظ ألا تترك ذكرياتك الغرامية بين الأوراق الرسمية .

ثم أضاف بابتسامة كلها إهانة :

— يجب ألا تعطى فرصة لاثارة جورو .

فقلت وأنا شاحب الوجه :

— أندريه إنى آمرك . . .

فانتصب واقفاً وهو يقول :

— ماذا ؟ يا لها من مسألة سخيفة ! لقد صرحت لك بالتحدث عن وادى تارحيت أليس كذلك ؟ أظن أن لى كل الحق . . .

— أندريه !

وأخذ ينظر فى ازدراء إلى الصورة المعلقة على الحائط التى أشفقت على طبعتها من هذا المشهد العصيب .

— أرجو ألا تغضب . ولكن اعترف فيما بيننا أنها حقا على شئ من النحافة .

وقبل أن أجد الوقت الكافى لاجابته كان قد اختفى وهو يترنم بأغنية الأمس الشائنة :

فى الباستيل ، فى الباستيل
ما أشد حبهم
لنينى بو دى شيان

ولبثنا ثلاثة أيام لا نتجاذب فيها أطراف الحديث . وكان حنقى لا يوصف . هل كنت مسئولا عن مصائبه ؟ أم هل كنت مخطئاً إن كان فى أكثر ما أفوه به بعض التعريض ؟ . .

وقلت فى نفسى : إن هذا الموقف لا يحتمل . لا يمكن أن يستمر أكثر من هذا !

وكان فعلا قد أوشك على النهاية .

لم يمض أسبوع على واقعة الصورة الشمسية حتى وصل إلينا البريد . لم أكد ألقى نظرة على فهرس المجلة الألمانية التى تحدثت عنها حتى عرتنى الدهشة . كنت قد قرأت : « سفر واكتشاف اثنين من الضباط الفرنسيين ، الكابتن مورانج والملازم دى سانت أفيت ، فى الصحراء الغربية » .

وسمعت فى اللحظة نفسها صوت زميلى وهو يقول :

— أشئ مهم فى هذا العدد ؟

فقلت بلا اكتراث :

— لا !

فقال :

— أرنيه .

فامتثلت ، وما كنت أستطيع أن أفعل غير هذا .

وبدا لى أن لونه قد شحب وهو يطالع الفهرس . غير أنه قال لى بصوت طبيعى للغاية :

— ستعيرنى هذا . أليس كذلك ؟

ثم خرج وهو يلقى على نظرة متحدية .

وانقضى النهار متثاقلا ولم أره إلا فى المساء . كان يبدو شديد المرح حتى لقد آلمنى مرحه .

ولما انتهينا من العشاء ذهبنا إلى السطح واتكأنا على حاجزه .

ومن هناك أخذنا نلقى بنظرنا على الصحراء التى أخذ يغشاها الظلام من ناحية الشرق شيئاً فشيئاً . وقطع أندريه ذلك الصمت :

— آه ! بالمناسبة قد أعدت إليك المجلة . كنت على حق ؛ ليس فيها مايهم .

كان يبدو شديد السخر .

— ماذا؟ ماذا أصابك ؟

فأجبت وأنا أختنق :

— لا شئ .

— لا شئ ؟ أتريدنى أن أنبئك بما أصابك ؟

نظرت إليه فى استعطاف . فهز كتفيه . لابد أنه كان يصفنى بالحمق .

جن علينا الليل مسرعاً . وكانت لا تزال الحافة الجنوبية لوادى المياه مصفرة .

وفجأة انحدر ابن آوى فى منحدر الأحجار وهو يصيح متألماً .

فقال دى سانت أفيت :

— إن ابن آوى يبكى بلا سبب ، إن هذا لنذير شؤم .

ثم عاد يقول فى قسوة :

— أما تريد أن تتكلم ؟

وبذلت جهداً كبيراً لأنطق بهذه الجملة البائسة :

— يا له من نهار متعب ! ويا له من ليل ثقيل . . . ثقيل . إننا لا نشعر بأنفسنا . . . لا ندرى . . .

وردد صوت دى سانت أفيت المتباعد :

— نعم ! إنها ليلة ثقيلة ثقيلة ! ثقيلة مثل تلك الليلة التى قتلت فيها الكابتن سورانج .

الفصل الثالث

بعثة مورانج وسانت أفيت

— إذن فقد قتلت الكابتن مورانج .

هذا ما قاله لى أندريه دى سانت أفيت فى اليوم التالى وفى الساعة نفسها وفى المكان نفسه بهدوء غير مكترث بوطأة الليلة ، تلك الليلة المفزعة التى قضيتها .

— ولم قلت لك ذلك ؟ لست أدرى . لعل ذلك بسبب الصحراء . هل أنت الرجل الذى يتحمل ثقل هذا الاعتراف ، والذى يتحمل تبعاته عند الحاجة ؟ لست أدرى أيضاً عن هذا شيئاً . لسوف ينبئنا المستقبل . والآن أكرر أنه ليس ثمة حقيقة ثابتة غير أنى قد قتلت الكابتن مورانج .

لقد قتلته . ومادمت ترغب فى أن أبين لك الأحوال ، فلا تعتقد أننى سأجهد عقلى كى أبتدع لك قصة ، أو أنى أبدأ فأقص عليك كالطبيعيين ما كانت عليه سنين طفولتى ، أو كما يريد محدثو الكاثوليك أن أنبئك بأسرى : هل كنت أعترف كثيراً وأنا طفل ، وأية لذة كنت أجد. لا أميل إلى المظاهرات الباطلة. سيروقك إذن أن أبتدئ قصتى تماماً فى الوقت الذى عرفت فيه مورانج .

أقول لك أولا إنه مع ما كلفنى من مشاق وإهانات فلست بآسف على معرفته . وموجز القول مع غض النظر عن مسألة سوء الزمالة

أنى قد ارتكبت خيانة شنيعة بقتله . إنى أدين له ولعلمه بالنقوش الصخرية بالشئ الوحيد الذى جعل حياتى أكثر قيمة من حياة زملائى البائسة فى أوكسون وفى أى مكان آخر .

والآن هاك الوقائع : سمعت لأول مرة اسم مورانج فى المكتب العربى بوارجلان حيث كنت ملازماً . ولابد أن أضيف أن هذا الاسم أثار فىّ غضباً شديداً . كنا فى زمن جد مضطرب . وكانت عداوة سلطان مراكش كامنة فى الصدور . ففى التوات حيث دبر قتل فلاترز وفرسكالى ، كان عظمته يساعد أعداءنا فى مؤامراتهم . وكان هذا التوات المركز الأكبر للمؤامرات والغارات والخيانات ، كما كان أيضاً مركز تموين للبدو الفارين . وقد طلب حكام الجزائر وهم ترمان وكامبون ولافريير باحتلال المقاطعة . وكان وزراء الحربية يشاركونهم فى هذا الرأى سرا . ولكن كان هناك برلمان لم يوافق بسبب انجلترا وألمانيا وخاصة بسبب إعلان حقوق الانسان والمواطن التى تنص على أن الثورة من أقدس الواجبات حتى لو كان الثوار من المتوحشين الذين يقطعون الرأس بمهارة . ومجمل القول أن السلطات الحربية قد اضطرت إلى زيادة حاميات الجنوب سرا و إلى إنشاء مراكزجديدة : مثل هذا المركز ومركز بريسوف وحسى المياه وحصن ماك ماهون وحصن لالمان وحصن مريبل . ولكن ، كما يقول كاسترس ، لن نقهر البدو بالحصون بل ببطونهم . والبطون تغذيها واحات توات . كان علينا إقناع هؤلاء السادة محامى باريس بضرورة الاستيلاء على واحات توات . وكان الأفضل أن يقدم لهم صورة حقيقية عن الدسائس التى كانت تدبر علينا هناك .

وكان أهم مدبرى هذه الدسائس ومازالوا السنوسيين . وقد اضطرت

قواتنا رئيسهم الروحى إلى نقل مركز جمعيته على مسافة ألف فرسخ من هناك فى شيمدرو فى تبسة . وقد جاءتهم (أقول جاءتهم تواضعاً) فكرة تتبع آثار هؤلاء الثوار فى رحلاتهم المختارة : غاط تياسنين وسهل أجيمور وعين صلاح . وكانت هذه الطريق كما ترى ابتداء من تياسنين على الأقل الطريق نفسها التى سلكها جيرار رولفز فى ١٨٦٤ .

وكنت قد أصبت بعض الشهرة أثر رحلتين قمت باحداهما إلى أجادس وبالأخرى إلى بلما . وكنت معروفاً بين الضباط بأنى من الملمين بالمسألة السنوسية . فطلب إلىّ إذن أن أقوم بهذه المهمة الجديدة .

فلفتّ نظرهم إلى مايعود من فوائد من إصابة عصفورين بحجر واحد وإلقاء نظرة أثناء الطريق على الحجّار الشمالى لنتبين أمر الطوارق فى أهيتارهن أهم يحتفظون دائماً بعلاقات ودية مع السنوسيين ، كما كانت الحال وقت أن اتفقوا على ذبح بعثة فلاترز . فاعترفوا لى فى الحال بصواب رأيى . هذا هو التغير الذى طرأ على خط سيرى الأصلى : عند ما أصل إلى ايغلاشم على ستمائة كيلومتر جنوب تياسنين يكون علىّ أن أتجه إلى الجنوب الغربى حتى شيخ صلاح متوغلا بين جبال سويدر والحجار بدل أن أصل مباشرة إلى توات عن طريق غاط وعين صلاح . ومن هناك يكون علىّ أن أصعد شمالا حتى عين صلاح عن طريق السودان وأجادس . ثمانى مائة من الكيلومترات تقريباً علاوة على المسافة الأصلية التى تقدر بحوالى مائة وألفى ميل . ولكن مع ذلك كنت على يقين من أنى سأقوم بملاحظة دقيقة بقدر الامكان للطرق التى يسلكها أعداؤنا

سنوسيو تيبستى وطوارق الحجار . وفى الطريق — ولكل مستكشف هواية — سررت حينما فكرت أن فى مقدورى أن أفحص قليلا التكوين الجيولوجى لهضبة إجيريه التى تكلم عنها دوفرييه والآخرون فى اختصار موئس (١) .

وقد تهيأ كل شئ للرحيل من وارجالان . كل شئ أعنى شيئاً قليلا : ثلاثة جمال ، جمل لى وآخر لزميلى بوجمَّة — وهو من الكمبا المخلصين صحبنى فى رحلتى إلى العير ، وهو آلة لتركيب رحال الجمال ونزعها أكثر منه رائداً فى بلاد لا أجهلها — والثالث يحمل غذاءنا وقرب صغيرة لماء الشرب . فقد عنيت بأن أجعل استراحاتنا بقرب الآبار .

وقد كان جماعة قاموا بمثل هذه الرحلات مع كل واحد منهم مائة من النظاميين ومدفع أيضاً . أما أنا فاتبعت طريقة دولز ورينيه كييه : ذهبت منفرداً .

وكنت سعيداً بهذه اللحظة التى لا يربط الانسان فيها بالعالم المتمدن غير خيط دقيق عندما وصلت برقية وزارية إلى وارجالان تقول فى اختصار :

« أمر إلى الملازم دى سانت أفيت بتأجيل رحيله حتى وصول الكابتن مورانج الذى سيرافقه فى رحلته الاستكشافية . »

لقد ساورنى مايفوق خيبة الأمل . فأنا وحدى الذى فكر فى القيام بهذه الرحلة . وقد تجشمت كل المصاعب التى تعرفها لأحمل الجهات

---

(١) لا دراية عندى بنوع صخور أجيريه . ولكن كل شيء يحملنى على الاعتقاد بأنها جيرية . « طوارق الشمال » تأليف هـ . دوفيرييه . (تعليق مسيو لورو .)

العليا على الاقتناع بالفكرة . وفى اللحظة التى سعدت فيها بأنى سأقضى ساعات طويلة منفرداً فى جوف الصحراء ، إذا بهم يلحقون بى رجلا غريباً عنى ، بل — أكثر من هذا — رئيساً لى .

وزاد من سخطى ما أسرف فيه زملائى من تعزية .

وأمدهم الدليل الذى بحثوا فيه بالمعلومات الآتية :

« سورانج (جان مارى فرنسوا) دفعة ١٨٨١ . يحمل شهادة . كابتن خارج الهيئة . (الادارة الجغرافية للجيش) . »

وقال أحدهم :

— هاك الايضاح : إنه شخص ذو سند قوى ، يبعثونه إليك ليحرز ثمرة انتصارك فى أمر تحملت كل أعبائه . شهادة ! يا للسخافة . نظريات أردان دى بيك أو لا شئ سواء عندهم .

فقال قائدنا :

— لست أشاركك فى الرأى تماماً . لقد عرفوا فى البرلمان — والأسرار مع الأسف دائماً تفشى — أن الهدف الحقيقى لبعثة دى سانت أفيت إنما هو حملهم على احتلال التوات . ولابد أن يكون سورانج هذا من المخلصين للجنة الجيش . وهؤلاء الناس جميعاً كما ترى — وزراء ونواب وحكام — يراقب بعضهم بعضاً . وسيحل يوم تدون فيه قصة متناقضة عن توسع الاستعمار الفرنسى الذى تم دائماً دون علم السلطات إن لم يكن بالرغم منها .

فأجبت فى مرارة :

— مهما يكن من شئ فالنتيجة واحدة . سنكون فرنسيين

يتجسس كلانا على الآخر ليل نهار فى طرق الجنوب . ياله من حلم بديع فى وقت لا يكفى فيه كل انتباهنا للتهرب من دعابات الوطنيين . متى يصل إلى هنا هذا السيد ؟

— بعد غد من غير شك . لقد أنبئت بقافلة قادمة من غارداٌيا . فمن المحتمل أن يلحق بها . وكل شئ يحملنا على الاعتقاد بأنه لا يستطيع الرحيل منفرداً .

ووصل فعلا الكابتن سورانج بعد يومين بفضل قافلة غارداٌيا . وكنت أول شخص طلب الكابتن رؤيته .

وحينما دخل حجرتى حيث كنت قد انسجمت فى وقار عندماأصبحت القافلة على مرأى منا ، تملكتنى دهشة بغيضة ؛ إذ لاحظت أنه سيصعب علىّ أن أظل حاقداً عليه طويلا .

كان ضخم الجثة مكتنز الوجه محتقنه أزرق العينين ضاحكهما ، صغير الشارب أسوده ، أشيب الشعر أو يكاد .

وقال فى الحال فى صراحة لم أعهدها فى أحد غيره :

— أقدم لك عظيم اعتذارى يا زميلى العزيز . لابد أن تكون حاقداً على هذا الشخص الثقيل الذى أحبط كل مشروعاتك وأخر رحيلك .

فأجبته فى برود :

— البتة يا سيدى الكابتن .

— يجب أن تحقد على نفسك قليلا . إن معرفتك بطرق الجنوب المشهورة فى باريس هى التى رغبتنى فى اختيارك رائداً حينما تشاورت وزارة المعارف ووزارة التجارة مع الجمعية الجغرافية لتكليفى بالمهمة

التى جاءت بى إلى هنا . لقد عهدت إلىّ تلك الهيئات الثلاث المحترمة بمهمة استكشاف طريق القوافل القديمة التى كانت تنقل عليها التجارة منذ القرن التاسع بين تونس والسودان عن توزر وورجالان والسوق وكوع بوروم ، على أن أدرس هذه الطريق لأعرف هل من الممكن أن تعاد إليها روعتها القديمة . ولكنى علمت فى الوقت نفسه من الادارة الجغرافية بالرحلة التى اعتزمت أنت القيام بها . فطريقنا مشترك من وارجالان إلى شيخ صلاح . ولابد أن أعترف لك فضلا عن ذلك بأن هذه هى أول رحلة أقوم بها من نوعها . إنى لن أخشى أن أحاضر ساعة كاملة عن الأدب العربى فى مدرج مدرسة اللغات الشرقية . ولكنى ألاحظ أننى سأشعر بضيق حين أسأل فى الصحراء أأتجه يميناً أم يساراً . وسنحت لى فرصة فريدة لأحيط بذلك علما . وسأكون مديناً بكل هذا لرفيق ظريف . فلا تحقد علىّ إذا كنت قد انتهزت هذه الفرصة واستخدمت نفوذى لتأخير رحيلك من وارجلان إلى اللحظة التى أستطيع فيها أن ألحق بك . وليس لى أن أضيف إلى هذا غير كلمة واحدة : فأنا مكلف بمهمة هى فى أصلها مدنية محضة . أما أنت فمعين من قبل وزارة الحربية . وحتى اللحظة التى نصل فيها إلى شيخ صلاح ونولى ظهورنا لنتجه : أنت إلى التوات وأنا إلى النيجر ، سأتبع نصائحك وأوامرك كلها حرفيا كمرءوس لك وآمل أيضاً أن أقول كصديق .

وكلما تقدم به الحديث فى هذه الصراحة ، كان يخالجنى فرح عظيم ؛ إذ أرى أن ما استشعرت من مخاوف منذ لحظة قد أخذ يتلاشى . ولكنى أحسست برغبة شريرة فى أن أقابله ببعض التحفظ ؛ لأنه تحكم فى مرافقتى وهو بعيد عنى ، دون أن يرجع فى ذلك إلىّ .

— إنى شاكر لك هذا الكلام المعسول يا سيدى الكابتن . متى تريد أن نغادر وارجالان ؟

وأبدى حركة قلة اكتراث وقال :

— متى شئت أنت ، غداً أو هذا المساء . لقد أخرت رحيلك . ولابد أن تكون قد انتهيت من استعدادك للسفر منذ زمن بعيد .

لقد رد سهمى فى نحرى إذ لم أكن قد فكرت فى الرحيل قبل الأسبوع التالى .

— غداً ، سيدى الكابتن ؟ ولكن . . . أمتعتك ؟

فعلت وجهه ابتسامة حلوة وقال :

— رأيت ألا آخذ معى من الأمتعة إلا القليل : بعض الملابس والأوراق التى لا يتعب جملى من حملها . أما الباقى ، فأنا فى انتظار نصائحك ورهن سوارد وارجالان .

لقد خذلت . لم يكن ثمة ما أعترض عليه . ولكن سرعان ما أسرنى بما أبداه من حرية الفكر وحسن المعاملة .

وقال زملائى حين جمعنا الشراب :

— إن الكابتن يبدو عظيماً للغاية .

— للغاية !

— فهو بالتأكيد لن يسبب لك مضايقات . وعليك فقط أن تحترس من أن يجنى هو الثمرة كلها بعد ذلك.

فأجبت متهرباً :

— نحن لا نعمل معاً .

كنت شارد الفكر ، شارد الفكر فقط أقسم على ذلك . منذ هذه اللحظة صرت لا أحقد على سورانج . ولكن صمتى أكد لهم أنى أضمر

له حقداً دفيناً . وبعدما أخذت الشكوك تحوم حول الحادث حدّث الجميع أنفسهم قائلين :

« إنه آثم بلا شك . نحن من رأيناهما يرحلان معاً نستطيع أن نؤكد ذلك . »

نعم إننى آثم . . . ولكن لا من أجل دوافع الغيرة الوضيعة... يا للسماجة !

ولم يبق بعد ذلك غير الهرب ، الهرب إلى أماكن لا يلقى المرء فيها أناساً يفكرون ويعقلون .

وأقبل سورانج متأبطاً ذراع القائد الذى بدا سعيداً لهذا التعارف الجديد .

وقدمه القائد فى ضجة :

— أيها السادة ، أقدم لكم الكابتن سورانج ضابط من أنصار المدرسة القديمة فيما يتصل بالمرح ، أقسم لكم . إنه يريد أن يرحل غداً . ولكن علينا أن نقيم له احتفالا يبعد هذه الفكرة عنه بعد ساعتين . يمكنك يا سيدى الكابتن أن تقضى بيننا ثمانية أيام .

فأجاب سورانج وهو يبتسم فى عذوبة :

— أنا رهن إشارة الملازم دى سانت أفيت .

وأصبح الحديث عاما وتلاقت الأكواب والضحكات . ورأيت زملائى يكادون يغشى عليهم من الضحك أثناء الأحاديث التى لم يكف عن الافاضة فيها القادم الجديد فى مرح متصل . أما أنا فلم أشعر قط بالحزن مثلما شعرت به وقتئذ .

وحان وقت الذهاب إلى حجرة الطعام .

وصاح القائد فى سرور متزايد :

— إلى يمينى ، يا كابتن . آمل أن تستمر فى أحاديثك الظريفة عن باريس ، ونحن هنا نجهل كل شئ كما تعرف .

— إنى رهن أمرك يا سيدى القائد .

— اجلسوا أيها السادة .

فامتثل الضباط محدثين ضجة مرحة وهم يحركون مقاعدهم .

ولم أكف عن النظر إلى مورانج وهو لا يزال واقفاً . وقال :

— سيدى القائد ، سادتى أتسمحون ؟

وقبل أن يجلس على هذه المائدة حيث لم يكف لحظة واحدة عن الظهور مظهر أشد المدعوين مرحاً ، تمتم الكابتن مورانج فى صوت خفيض وهو مغمض العينين بصلاة الشكر .

الفصل الرابع

نحو خط عرض ٢٥°

قال لى الكابتن مورانج بعد مضى خمسة عشر يوماً :

— أنت على خبرة بطرق الصحراء القديمة أكثر مما جعلتنى أتصور مادمت تعرف بلدتى التادكة . ولكن البلدة التى حدثتنى عنها هى تادكة ابن بطوطة والتى حدد موقعها هذا المؤرخ على سبعين يوماً من التوات والتى وضعها شيرمر بحق فى بلاد أولياء مدين المجهولة . وعن طريقها كانت تمر القوافل السنراى فى القرن التاسع عشر فى رحلاتها السنوية إلى مصر .

أما التادكة التى أعنيها فهى الثانية ، عاصمة الملثمين التى وضعها ابن خلدون على سير عشرين يوماً جنوب وارجلان أو ثلاثين يوماً حسب رواية البكرى الذى يسميها تادمكة . إننى أتجه نحو تادمكة هذه . ولابد من التعرف على تادمكة هذه بين أطلال السوق . فعن طريق السوق كانت تمر الطريق التجارية التى كانت فى القرن التاسع تربط الجريد التونسى بالكوع الذى يحدثه النيجر عند بوروم . ومن أجل أن أدرس هذا الطريق لأعرف هل من الممكن أن يرجع إليها ما كان لها من شأن ، عهدت إلىّ الوزارات بهذه المهمة التى كسبتنى سرور مرافقتك .

وتمتمت قائلا :

— ستلاقى خيبة أمل من غير شك . وكل شىء ينبئنى أن التجارة التى تسلك هذه الطريق ضئيلة .

فأجاب فى برود :

— سوف نرى .

حدث هذا ونحن نسير على حافة ملاَّحة ذات لون واحد . كانت تلك البقعة العريضة الملحية المتسعة تلمع فى زرقة شاحبة تحت أشعة الشمس المشرقة . وكانت جمالنا الخمسة تلقى بظلال خطواتها المتحركة فى زرقة أشد سواداً . وكان الساكن الوحيد لهذه القفار ، وهو طير من فصيلة مالك الحزين ، يرتفع ويحلق من حين إلى حين فى الفضاء ، ثم يهبط الأرض بعد ما نسير ، كأنما هو مربوط بخيط .

كنت أتقدم القافلة فى انتباه للطريق . وكان مورانج يتبعنى وهو مشتمل فى برنس أبيض كبير وعلى رأسه شاشية الفرسان المستقيمة وحول عنقه سبحة ضخمة ، حباتها بيضاء وسوداء تنتهى بصليب مثلها . كان يمثل بذلك تمام التمثيل الآباء البيض أتباع الكاردينال لافيجيرى .

كنا قد تركنا الطريق التى اتبعها فلاترز لننحدر نحو الجنوب الغربى بعد استراحة يومين فى تماسنين . ولى شرف الاشارة إلى أهمية تماسنين قبل فورو ، وهى نقطة ارتكاز فى خطوط القوافل ، وفى تعيين المكان الذى بنى فيه الكابتن « بين » حصنه . وبفضل وقوعها على تقاطع الطرق المؤدية إلى التوات من فزان وتبسة ستصبح تماسنين مكتباً مهما للاستعلامات . أما المعلومات التى حصلت عليها من هناك

أثناء هذه الأيام عن حركات أعدائنا السنوسيين ، فكانت ذات شأن خطير . وقد لاحظت أيضاً عدم اهتمام سورانج المطلق بالتحقيق الذى قمت به .

وقد قضى هذين اليومين فى حديث مع الحارس الشيخ الأسود لمقبرة تطوى تحت قبتها الجيرية جثمان الولى سيدى موسى . وإنى آسف أن نسيت الأحاديث التى جرت بينه وبين هذا الموظف . ولكنى أدركت من دهشة الزنجى المشوبة بالاعجاب مدى جهلى بأسرار هذه الصحراء الشاسعة وقد كانت تلك الأسرار عادية لزميلى .

وإذا أردت أن تعلم شيئاً مما أبداه سورانج من الخوارق فى هذه الرحلة ، فاصغ إلىّ ، أنت الذى عنده علم ببعض عادات أهل الجنوب. حدث ذلك بالضبط على مسافة مئتى كيلومتر من هنا فى منطقة الكثبان الكبيرة ، فى الجزء البغيض الذى يظل فيه المرء بلا ماء لمدة ستة أيام . ولم يبق معنا من الماء إلا مايكفى ليومين حتى نصل إلى أول بئر . وأنت تعلم أن هذه الآبار ، كما كتب فلاترز لزوجه ، « لابد أن نعالجها ساعات لكى ننظف فوهتها حتى نحصل على ما يروى الناس والحيوانات » . ولقينا هناك قافلة كانت متجهة نحو الشرق إلى غدامس وكانت قد جنحت إلى الشمال كثيراً . وكانت أسنمة الجمال التى كادت تفنى تدل على ما كابدته تلك الجماعة من عناء ومشقة . وكان يتبع القافلة جحش صغير رمادى اللون يثير الشفقة وهو يتعثر فى خطاه ، وقد تركه التجار لأنهم على يقين بموته المحتوم . وكان يتبعهم بالغريزة ، باذلا كل مايملك من الجهد ، شاعراً بأنه إذا ماخارت قواه كان فى ذلك نهايته فتحلق عليه الصقور الصلع . إننى أحب الحيوانات ؛ فانى أوثرها على الانسان لأسباب قوية . على أنه لم يكن ليدور

بخلدى أن أفعل مافعل سورانج . يجب أن أنبئك بأن قِرَبنا كانت جافة تقريباً ، وأن جمالنا التى لولاها لأصبحنا لا شئ فى الصحراء الخالية لم تكن قد شربت منذ ساعات طوال . أناخ سورانج جمله وفك قربة وسقى الجحش . نعم لقد أحسست بسرور حينما رأيت جنبى الحيوان البائس الناحلين يهتزان من الارتياح ، غير أن التبعة كانت تقع على عاتقى . وكنت أرى أيضاً علامات الدهشة على بوجِمّة وعلامات الاستنكار على وجوه أفراد القافلة الظماء ، فنبهته فلم يكترث ، وقال: « لقد منحته نصيبى . سنصل إلى بئر البيوذ حوالى الساعة السادسة من مساء الغد . وأنا على علم بأنى لن أحس بالظمأ حتى نصل إلى هناك » . قال ذلك بلهجة لمست فيها لأول مرة لهجة الكابتن الرئيس . فقلت فى نفسى : « هذا سهل قوله . فهو يعلم تماماً أن قربتى وقربة بوجمة تحت أمره متى شاء » . ولكنى لم أكن أعرف سورانج حق المعرفة ، فانه لم يشرب فعلا حتى مساء اليوم التالى حين وصلنا إلى البيوذ ، رافضاً كل عروضنا بابتسامة عناد .

أى طيف القديس فرنسوا داسيز ! أى تلال أومبرى النقية تحت ضوء الشمس المشرقة ! توقف سورانج عند طلوع شمس مشرقة على حافة مجرى شاحب يسيل فى هدير من عين فى صخور إجيريه الرمادية. كانت المياه غير المنتظرة تجرى على الرمل وكنا نرى أسماكاً صغيرة سوداء يضاعف من حجمها ضوء الشمس . أسماك فى قلب الصحراء! وظللنا نحن الثلاثة بكماً أمام تناقض الطبيعة . وضلت سمكة فى خليج صغير من الرمل ولبثت تتخبط فى غير جدوى وبطنها الأبيض نحو السماء . وأمسك بها سورانج وتأملها قليلا ثم أعادها إلى جدول الماء الجارى . أى طيف القديس فرنسوا داسيز ! وأى تلال أومبرى !

على أنى قد أقسمت على ألا أقطع وحدة السياق بما يعرض من تفصيلات بعيدة عن الموضوع .

وقال لى الكابتن مورانج بعد أسبوع :

— أنت ترى أنى كنت على حق حينما نصحت لك بالاتجاه قليلا إلى الجنوب قبل الوصول إلى شيخ صلاح . وكان ثمة هاتف يهتف بى أن هضبة إجيريه ليست بذات جدوى فيما يعنيك . أما هنا فما عليك إلا أن تنحنى لتجمع من الحصى ما يسمح لك أن تعين الأصل البركانى لهذه المنطقة سالكاً فى ذلك طريقة أكثر إقناعاً من طريقة بودربة ودى كلوازو والدكتور ماريس .

قال ذلك ونحن نسير على الجانب الغربى من جبال تيفيدست بالقرب من خط عرض ٢٥° شمالا . فقلت له :

— إنه لا يسعنى إلا أن أقدم شكرى .

سأظل دائماً أذكر هذه اللحظة . كنا قد تركنا جمالنا وأخذنا نجمع فتات الصخور التى هى أدل على هذا المكان . وكان مورانج يميز بينها تمييزاً يدل على واسع درايته بعلم الجيولوجيا ، وقد أنكر فى إباء أن له دراية ولو صغيرة بهذا العلم .

وحينئذ وجهت إليه السؤال التالى :

— هل أستطيع أن أعبر عن عرفانى بالجميل ؟

فرفع رأسه ونظر إلى :

— أرجوك !

— إنى لا أدرك حق الادراك الفائدة العملية للرحلة التى تقوم بها .

فابتسم وقال :

— وكيف ذلك ؟ أليس ثمة قيمة فى نظرك لكشف طريق القوافل القديمة ، ولإثبات وجود صلة من غابر الأزمان بين بلاد البحر المتوسط وبلاد السودان ؟ أليس ثمة أهمية للأمل فى تصفية المجادلة التاريخية التى قامت بين علماء مثل أنفيل وهيرين و برليو و كاترمير من جانب وجوسلان وولكنز وتيسو وفيفيان دى سانت مارتان من جانب آخر ؟ إنك لصعب يا عزيزى .

فقلت :

— لقد تكلمت عن فائدة عملية . إنك لا تنكر أن هذه المجادلة لا تعدو بعض علماء الجغرافيا وبعض مستكشفين لم يبرحوا مكاتبهم .

وكان مورانج يداوم الابتسام وقال :

— يا صديقى لا تؤنبنى . هلا ذكرت أنك مكلف بهذه المهمة من قبل وزارة الحربية ، وأنى أنا كلفت بمهمتى من قبل وزارة المعارف ؟ وهذا الدافع المختلف يسوغ أغراضنا المتباعدة . وهو يفسر على كل حال ، وأنا أعترف لك بذلك ، أن ليس للهدف الذى أرمى إليه أية صفة عملية .

فأجبته منساقاً معه :

— إنك أيضاً مبعوث وزارة التجارة ، ومن ثمة فأنت مكلف أن تدرس هل من الممكن أن تعاد الطريق التجارية القديمة فى القرن التاسع ، فلا تحاول أن تخدعنى ؛ إذ أنك مع علمك بالتاريخ وجغرافية الصحراء كنت تعرف مهمتك قبل أن تبرح باريس . فالطريق من الجريد إلى النيجر قد اندثرت ، اندثرت تماماً . فقد كنت تعرف بأن ليس ثمة تجارة ذات شأن تمر بهذه الطريق .

وسع ذلك قد قبلت أن تدرس هذه الطريق وهل يمكن أن تعاد .

وواجهني مورانج بنظراته وقال في اجتراء محبب :

— ولو كان هذا صحيحاً ولو كنت على يقين قبل سفرى كما تدعى أنت ، أتعرف ماذا يجب أن نستخلص من ذلك ؟

— أكون سعيداً لو سمعتك تفضى إلى به .

— يا صديقى العزيز أستطيع أن أستخلص ببساطة أننى كنت أقل منك فى اختلاق ذريعة لسفرى ، وأننى أخفيت الدوافع الحقيقية التى أتت بى إلى هنا بوسائل أقل شأناً من وسائلك .

— ذريعة ! أنا لا أرى . . .

— أرجو الآن أن تكون صريحاً بدورك . أنا مقتنع بأنه كانت تخالجك رغبة شديدة باطلاع المكاتب العربية على حركات السنوسيين . ولكن أعترف أن هذه المعلومات التى ستمدهم بها لم تكن الغرض الوحيد المباشر لرحلتك . إنك عالم جيولوجى يا عزيزى . ووجدت فى هذه المهمة فرصة لإشباع ميولك . وما من أحد سيفكر فى تأنيبك على ذلك مادمت قد عرفت أن توفق بين ماهو نافع لوطنك وما هو حبيب إلى نفسك . ولكن بالله عليك لا تحاول أن تنكر . لا أطلب دليلا آخر غير وجودك هنا عند سفح التيفدست ، هذا الجبل الفريد بغير شك من الناحية المعدنية . ولكن استكناهه قد طوّح بك نحو مائة وخمسين كيلومتراً إلى الجنوب عن طريقك المرسوم .

كان من المستحيل أن يكشف أحد سرى بلباقة كما كشفه هو . فدافعت عن نفسى مهاجما :

— هل لى أن أستخلص من كل هذا أنى أجهل الدوافع الحقيقية لرحلتك وأنه لا صلة لها بالدوافع الرسمية ؟

كنت قـد شططت بعض الشئ . أحسست ذلك لمـا اصطبغ به رد سورانج من جد هذه المرة .

— لا يا صديقى العزيز . ليس لك أن تستخلص هذا . فانى ما كنت لأشعر بأى ميل للكذب واحتيال على الهيئات المحترمة التى جعلتنى أهلا لثقتها ومعونتها . وسأبذل قصارى جهدى لأحقق الأهداف التى حددت لى . غير أنى لا أشعر بما يجعلنى أخفى عليك وجود غرض آخر ، غرض شخصى ، أعيره كثيراً من الاهتمام . ولنقل ، إذا أردت وهنا نستعمل تعبيراً يؤسف له ، أن هذا الهدف هو الغاية فى حين أن الأهداف الأخرى ليست إلا وسائل لتحقيقه .

— أيعتبر فضولا منى . . . ؟

فأجاب زميلى :

— مطلقاً . لم يبق على شيخ صلاح إلا مسيرة أيام قلائل وسنفترق عما قليل ؛ فالشخص الذى هديتَ أولى خطواته فى الصحراء بـكل هذه العناية ملزم بألا يخفى عليك شيئاً .

كنا قد توقفنا عن المسير فى واد صغير جاف تنبت فيه بعض النباتات الضعيفة ، وكانت على مقربة من هذا المكان عين ماء تـكتنفهـا دائرة من الأعشاب الرمادية . وكانت الجمال — وقـد حطت عنها رحالها أثناء الليل — تبذل جهدها فى خطوات كبيرة لترعى بعض أعشاب شوكية من نبات الحد . وكانت سفوح جبال التيفدست سوداء ملساء تعلو رءوسنا فى خط أفقى تقريباً . وأخذ يتصاعد فى الجو الراكد دخان أزرق من نار أشعلها بو جمة لطهى عشائنا . لا من حس أو هبوب ريح . كان الدخان يصعد مستقيما بطيئاً على طبقات الجو الشاحبة .

فسألني مورانج :

— أسمعت عن « أطلس المسيحية » ؟

— أعتقد أن نعم . أليس هو مصنفاً جغرافيا نشره القسس البندكتان باشراف رجل يدعى دوم جرانجر ؟

فقال مورانج :

— إن ذاكرتك أمينة . ولكن اسمح لى أن أذكر أشياء لم يتوافر لك من الأسباب ما يثير اهتمامك بها مثلى . كان الغرض من « أطلس المسيحية » أن يعين حدود التوسع المسيحى العظيم على مر العصور ، وذلك فى كل أقطار المعمورة . وهذا عمل خليق بعلم هؤلاء القسس ، وجدير بدوم جرانجر هذا العالم العظيم .

فتمتمت قائلا :

— وهذه الحدود أهى التى جئت بلا شك تتبينها هنا ؟

فأجاب زميلى :

— لهذه الحدود جئت فعلا .

وسَكَتَ . واحترمت أنا صمته مصمما على كل حال ألا أدهش لشئ . وبعد لحظات من التفكير عاود الحديث بلهجة قد استعادت فجأة وقارها واختفى منها كل شئ حتى المرح الذى كان منذ شهر مضى يسبب الفرح لضباط وارجلان الشبان :

— لا يستطيع المرء أن يقف فى منتصف طريق التسار دون أن يتعرض للسخرية .

— لقد بدأت أفضى إليك بأسرارى . سأنبئك بكل شئ ، فلا تشك فى أنى سأتحفظ ، ولا تدقق فى تفاصيل بعض الحوادث من حياتى الخاصة . ولئن كنت قد قررت أن أدخل الدير منذ أربع سنوات إن ذلك كان

نتيجة لهذه الحوادث . فلا يهمك أن تعرف دواعي اعتزامى هذا . وإنى لأعجب من أن يكون اتصالى بشخص قليل الشأن كافياً لتغيير مجرى حياتى . وإنى لأعجب أيضاً أن مخلوقة لا مزية لها إلا أنها جميلة قد جعلها الخالق تؤثر فى حياتى بطريقة غير متوقعة . كان لدى الدير الذى طرقت بابه أقوى الدوافع إلى الشك فى عقيدتى . فما يفقده الجيل بهذه الطريقة فكثيراً ما يستعيده بهذه الطريقة نفسها . وموجز القول أنه لا يسعنى إلا أن أوافق الأب الرئيس الذى منعنى من تقديم استقالتى. كنت أحمل براءة كابتن من السنة السابقة . وبناء على أمر رئيس الدير التمست أن أحال إلى الاستيداع لمدة ثلاث سنوات . وفى نهاية سنوات التصوف الثلاث ، كان عليه أن يقرر هل فى العالم فى نظرى .

« وفى أول يوم دخلت الدير ألحقت بادارة الدوم جرانجر الذى عينى بلجنة « أطلس المسيحية » المشهور . وبعد امتحان قصير عرف ما أستطيع أن أؤديه له من خدمات . وهكذا ألحقت بمصنع خرائط أفريقيا الشمالية . كنت لا أعرف كلمة عربية واحدة . ولكن حدث أثناء وجودى فى حامية ليون أن واظبت فى كلية الآداب على محاضرات برليو ، وهو جغرافى مطلع بلا شك تسيطر عليه فكرة كبيرة وهى تأثير المدنيات اليونانية والرومانية فى أفريقيا. وقد اكتفى دوم جرانجر بهذه الناحية من حياتى . وفى الحال زودت بوساطته بمعاجم بربرية لفنتور ودلابورت و بروسلار و« كتاب قواعد التيمهاك » لستنهوب فليمان ، وكتاب «قواعد اللغة التماشيكية » للقائد هانوتو . وبعد ثلاثة أشهر أصبح فى مقدورى أن أفك رموز أى نقش تيفينارى . ولعلك تعلم أن التيفينار هى كتابة الطوارق الوطنية .

وهى تعبر عن اللغة التماشيكية التى تبدو لنا كأنها احتجاج غريب من العنصر الطارقى على أعدائهم المسلمين .

«وكان دوم جرانجر يعتقد بالفعل أن الطوارق كانوا مسيحيين منذ عصر بعيد كان يجب أن يحدده ، قد يوافق عصر ازدهار الكنيسة المسيحية فى إيبون . ولعلك تعلم أكثر مما أعلم أنهم اتخذوا من الصليب وحدة سخيفة من الزخرفة. ويلاحظ ديفرييه وجوده فى أبجديتهم وعلى أسلحتهم وبين رسوم ملابسهم . والوشم الوحيد الذى يضعونه على الجبهة وظهر اليد هو صليب ذو أربعة فروع متساوية . إن قرابيس سروجهم ومقابض سيوفهم وخناجرهم صليبية الشكل . وليس مما يدعو إلى تذكيرك أن الطوارق كانوا يتخذون لرحال جمالهم من الأجراس الصغيرة زينة مع أن الاسلام ينهى عن الأجراس إذ يعدها من الرموز المسيحية .

«على أننا ، أنا ودوم جرانجر ، لم نعر التفاتاً عظيما لهذه الدلائل التى تشبه كثيراً الدلائل التى امتلأ بها كتاب « عبقرية المسيحية » . ولكن من المستحيل أن ترفض كل قيمة لبعض البراهين اللاهوتية . وإله الطوارق أمناى — وهو بلا شك أدوناى العهد القديم — هو إله واحد . وهم يعتقدون أن ثمة فى الآخرة جحيما يدعونه « النار الأخيرة » حيث يحكم إبليس الذى نسميه لوسيفير . وجنتهم حيث يلقون جزاء ما قدموا من حسنات يسكنها الانجيلوزن وهم الملائكة عندنا . ولا تعترض بأن هذه العقائد تشبه عقائد القرآن ؛ لأنى سأواجهك بالبراهين التاريخية ، وأذكرك أن الطوارق حاربوا على مر القرون حتى كادوا يفنون ليدفعوا عن عقائدهم تعسفات التعصب الاسلامى .

«وكثيراً ما درست على دوم جرانجر هذه الملحمة العظيمة إذ نرى

الوطنيين يثبتون للغزاة العرب . وقد رأيت معه جيش سيدى عقبة أحد أصحاب النبي يتوغل فى الصحراء للتغلب على قبائل الطوارق الكبرى وتعرض عليهم التعاليم الاسلامية . وكانت هذه القبائل يومئذ موسرة رغدة العيش ، وهى اليوهاجرين والايمددرين والوادلين قل جريس وقل الخير . ولكن خلافاتهم الداخلية أضعفت من مقاومتهم . غير أن هذه المقاومة كانت شديدة . ولم ينجح العرب فى الاستيلاء على عاصمة البربر إلا بعد حروب طويلة قاسية ، فهدموها بعد أن قتلوا سكانها . وبنى عقبة على أنقاضها مدينة جديدة ، هذه المدينة هى السوق. أما المدينة التى هدمها سيدى عقبة فهى تادمكة البربرية . وما طلبه منى دوم جرانجر هو بالتحقيق أن أحاول الكشف عن آثار أنقاض مدينة السوق الاسلامية تادمكة البر برية ، ولعلها تادمكة المسيحية .

فتمتمت قائلا :

— لقد فهمت .

فقال مورانج :

— حسن جدا . ولكن يجب عليك أن تعرف الآن أن لهؤلاء الرهبان أساتذتى اتجاهاً عمليا ، تذكر أنهم ظلوا ، بعد أن قضيت ثلاث سنوات فى الدير ، على شكهم فى عقيدتى . وأخيراً وجدوا الوسيلة إلى اختبار عقيدتى نهائيا ، كما وجدوا الطريقة للملاءمة بين التسهيلات الرسمية وأغراضهم الشخصية . ودعيت ذات صباح إلى الأب الرئيس . وهاك ما حدثنى به فى حضرة دوم جرانجر الذى كان يؤمن على كلامه فى صمت :

— ستنتهى مدة الاستيداع بعد خمسة عشر يوماً ، وستعود إلى باريس

تلتمس من الوزارة أن تعيدك إلى الخدمة. ولن تصادف أية عقبة فى التحاقك بالادارة الجغرافية للجيش بفضل ما تعلمته هنا وللصلات التى استطعنا أن نحتفظ بها مع هيئة القيادة العليا . وحينما تكون فى شارع جرينيل ستصلك تعليماتنا .

كنت دهشاً من ثقتهم بمعلوماتى . ولما أصبحت كابتن فى الادارة الجغرافية فهمت الحقيقة . إن مرافقتى اليومية فى الدير لدوم جرانجر وتلاميذه جعلتنى أحس إحساساً قويا بضآلة معلوماتى . ولكن اتصالى بزملائى جلعنى أشعر بعظيم ما حصلت عليه من العلم ، حتى إننى لم أهتم بتفاصيل مهمتى . فكانت الوزارات هى التى لجأت إلىّ تلتمس موافقتى . ولم أتدخل فى شئ ما إلا مرة واحدة ، عندما علمت أنك ستغادر وارجلان فى هذه الرحلة التى نحن بسبيلها ، أبديت عدة أسباب لقلة قيمتى العملية مستكشفا ، وبذلت جهدى لتأخير رحيلك لكى ألحق بك . وآمل أن تكون قد كففت عن الحقد على .

كان الضوء يلوذ بالغرب حيث اختفت الشمس وراء ستائر بنفسجية فاخرة ، وكنا منفردين فى هذا الفضاء المتسع فى سفح الصخور السوداء القائمة . لا شئ غيرنا ، لا شئ . . . لا شئ غيرنا .

ومددت إلى مورانج يدى ، فشد عليها ثم قال :

— وإذا كانت تظهر لى طويلة تلك الآلاف من الكيلومترات التى تفصل بينى وبين اللحظة التى أتم فيها مهمتى ، فسأستطيع آخر الأمر أن أجد فى الدير ما لست بمستعد له من الأمور . فاسمح لى أن أنبئك أن هذه بضع المئات من الكيلومترات الباقية حتى أصل إلى شيخ صلاح تلوح لى فى هذه الساعة قصيرة للغاية وأنا أقطعها فى صحبتك .

وعلى صفحة الماء الشاحب فى الينبوع الصغير بدت نجمة ثابتة جامدة كأنها مسمار من الفضة .

فتمتمت وقلبي مفعم بحزن لا أدرى سببه :

— الشيخ صلاح ! صبراً إننا لما نصل إليها .

والحق أننا ما كنا لنصل إليها أبداً .

الفصل الخامس

النقش

أطار سورانج قطعة من الصخر من الجانب الأسود للجبل بضربة من عصاه الحديدية ، وسألنى وهو يناولنى إياها :

— ما هذا ؟

فقلت :

— بازلت .

— لاخطر لهذه القطعة ! إنك لم تلق عليها إلا نظرة واحدة .

— بل هى بالعكس ذات قيمة كبيرة جدا . ولكن أعترف بأن ثمة أشياء غيرها فى هذه اللحظة تشغلنى عنها .

— ماذا ؟

فقلت له وأنا أشير إلى ناحية الغرب عند الأفق إلى نقطة قاتمة فى الجانب الآخر من السهل الأبيض :

— أنظر قليلا فى هذا الاتجاه .

كانت الساعة السادسة صباحاً والشمس قد أشرقت . ولكن كنا نبحث عنها بغير جدوى فى السماء التى كانت تدهش بملاستها واستوائها . ما من نسمة . ما من نسمة .

وفجأة برك أحد جمالنا . وظهر فجأة ظبى كبير وارتمى برأسه

فى ذعر على الجدار الصخرى . وظل هناك فى ذهول على بضع خطوات منا وهو يرتعد على سيقانه النحيلة .

ولحق بنا بوجمة وغمغم :

— إذا ارتجفت سيقان الظبى دل ذلك على أن السماء توشك أن تنهمر بماء غزير .

وصوّب إلى مورانج نظراته ثم اتجه بها إلى الأفق حيث كانت النقطة السوداء قد تضاعفت .

— عاصفة . . . أليس كذلك ؟

— بلى ! عاصفة .

— وهل ترى فى ذلك سبباً لما يخالجك من قلق ؟

— لم أجبه فى الحال . كنت أحادثه حديثاً قصيراً وهو منهمك فى تهدئة الجمال التى أخذت تثور .

وأعاد مورانج علىّ سؤاله ، فهززت كتفى .

— قلق ؟ . . . لست أدرى . لم أر عاصفة فى الحجّار على الاطلاق غير أنى لست مرتاح البال . وكل العوامل تحملنى على الاعتقاد أن هذه العاصفة ستكون شديدة جدا . ومهما يكن من شئ فانظر الآن .

وارتفع على الصّخرة المسطحة غبار خفيف . وفى هذا الجو الراكد، أخذت بعض ذرات من الرمل تدور بسرعة ازدادت حتى أصبحت مدهشة . وكانت تقدم لنا منظراً مصغراً لما سينقض علينا بعد قليل . ومر بنا سرب من الإوز الوحشى وهو يصيح صياحاً حادا . كان يطير على ارتفاع بسيط وهو مقبل من الغرب .

فقال بوجمة :

— إنه يهرب نحو سبخة أماندغور .

وقلت فى نفسى : ليس للخطأ من سبيل إلى حدسى . ونظر إلىّ مورانج فى فضول وسألنى :

— ماذا يجب أن نفعل ؟

— نمتطى جمالنا فى الحال قبل أن يذهب الذعر بوعيها تماماً ، ونسرع فى البحث عن ملجأ مرتفع من الأرض . أنت تدرك موقفنا تماما . . . إنه من السهل أن نتبع مجرى واد جاف. غير أنه ربما هبت العاصفة قبل مضى ربع ساعة . وسيتدفق من هنا سيل عظيم قبل نصف ساعة وستمر الأمطار على هذه التربة الصلبة تقريباً كما يمر الماء يلقى به فى أرض مرصوفة . لا شئ من الماء يتسرب إلى الأرض ولكن سيعلو منسوبه . ومع ذلك يحسن أن تنظر . . .

وأشرت على ارتفاع عشرة أمتار فى سفح الممر الصخرى إلى خطوط طويلة جوفاء متوازية لعوامل تحاتّ قديمة .

— بعد ساعة ستسيل المياه على هذا الارتفاع . وها هى ذى آثار السيل . هلم بنا إلى الأمام . فليس لنا من الوقت ما نضيع منه لحظة .

وقال مورانج فى جمود :

— إلى الأمام .

وتحملنا مشاق جسيمة فى إناخة الجمال . ما إن امتطى كل منا جمله حتى اندفعت المطايا فى سرعة جعلها الذعر تضطرب شيئاً فشيئاً .

وفجأة هبت الريح ، ريح عاصف . وفى اللحظة نفسها تقريباً ولى النهار من الوادى وأصبحت السماء فوق رءوسنا فى لمحة عين أشد حلكة من جدران الممر السوداء حيث كنا نسير بسرعة تبهر .

وصحت بزملائى فى الريح :

— درج . . . درج فى الصخر . إن لم نصل إلى أحدها بعد دقيقة واحدة فسيقضى علينا .

لم يسمعانى . ولكن عندما التفت ورائى ألفيتهما يحافظان على ما بيننا من مسافة .

كان موران ج يسير ورائى مباشرة وبوجمة فى المؤخرة يسوق أمامه بمهارة مدهشة الجملين اللذين كانا يحملان أمتعتنا .

ومزق الظلمة برق يخطف الأبصار . وقصف الرعد ورددت أصداءه الصخور . وسرعان ما تساقطت قطرات ضخمة دافئة . وفى لحظة التصقت بأجسامنا المبللة البرانس التى كانت تمتد وراءنا أفقيا من شدة السرعة .

وصحت فجأة :

— نجونا !

وانفتحت بغتة ثغرة على يميننا فى منتصف الجدار . كانت هذه الثغرة مجرى واد يتفرع من الوادى الذى توغلنا فيه بسوء تفكيرنا فى ذلك الصباح . كان سيل يندفع فيه فى هدير .

ولم أكن أقدر قبل ذلك ما للجمال من ثبات لا يقارن فى تسلق الجوانب القائمة من المرتفعات . وأخذت جمالنا تتصلب تارة وتمد سيقانها الطويلة تارة أخرى وتنحنى بين الصخور التى بدأت تتفتت ثالثة وهكذا . وقامت فى هذه اللحظة بما لا تستطيع أن تقوم به البغال فى جبال البرانس .

وما انقضت بضع لحظات من المجهود الخارق حتى ألفينا أنفسنا آخر الأمر بمنأى من الخطر على ما يشبه سطح من البازلت يشرف من خمسين متراً على مجرى الوادى حيث كنا على وشك الهلاك .

والمصادفة المواتية هى التى هيأت لنا الأمور ؛ إذ رأينا من ورائنا كهفاً فى وسط الصخور، وقد نجح بوجمة فى إيواء الجمال به . وعلى عتبة الكهف استطعنا أن نتأمل فى صمت المنظر الخلاب الذى بدا لأنظارنا .

إنك رأيت بلا شك مناورات المدفعية فى معسكر شالون ، ورأيت أرض المارن الجيرية تتفاعل تحت تأثير المفرقعات كالمحابر التى كنا نضع فيها ونحن فى الليسيه بعض قطع الطباشير . إن التربة تنتفخ وترتفع وتفور بين ضوضاء المقذوفات المتفجرة . لقد حدث مثل هذا تقريباً ولكن فى وسط الصحراء وفى خلال الظلام . كانت المياه تتدفق ناصعة فى هذه الثغرة السوداء ، ثم أخذت ترتفع شيئاً فشيئاً نحو ملجئنا ، وكان ذلك يحدث باطراد . اختلط قصف الرعود بصوت أشد منه قوة هو صوت الجدار الصخرى تحتَّ أسفله السيول فينهار دفعة واحدة ويذوب فى لحظات فى المياه المتدفقة .

وقد مكثنا أنا وموراني مدة انهمار الماء (وقد كان ذلك ساعة وربما كان ساعتين) فى صمت مكبين على هذا الاناء الغريب ، متلهفين إلى أن نشهد دائماً . كان يخالجنا سرور ممزوج برعب لا يوصف ، ونحن نشعر بمسطح البازلت الذى لجأنا إليه يتمايل تحت ضربات السيل العنيفة . وأعتقد أننا ما فكرنا لحظة واحدة فى أن نتمنى زوال هذا الكابوس الهائل لما كان له من جمال وروعة .

وأخيراً بزغ شعاع من الشمس . وحينئذ فقط نظر بعضنا إلى بعض ، ومد إلىّ موراني يده وقال فى بساطة :

— شكراً .

ثم أضاف مبتسما :

— أن نقضى غرقاً فى وسط الصحراء فيه ما يدعو إلى السخرية .

لقد جنبتنا هذه النهاية المتناقضة بفضل ما فيك من حزم .

آه ! لو كان جمله عثر به وجرفه السيل فى تياره إلى اللانهاية لما كان بعد ذلك ما كان . . . هذا هو ما أفكر فيه فى لحظات الضعف . ولكن كما قلت لك أتراجع بسرعة عن هذه الفكرة . لا ، لا . . . إنى لا آسف ولا أستطيع أن آسف على وقوع ما حدث .

تركنى مورانج ليتوغل فى الكهف الصغير حيث تسمع أصوات الرضا من جمال بوجمة . وظللت وحيدا أتأمل السيل يتصاعد ويتصاعد دون توقف لما كان ينتهى إليه من مدد متدفق من الفروع التى قد أفلت زمامها . كانت الأمطار قد كفّت وتبدت الشمس ساطعة فى السماء التى استعادت زرقتها . وقد أخذت ملابسى تجف على جسمى بسرعة غريبة ، إذ كنت أحسها مبللة منذ لحظة قصيرة .

وأحسست بيد على كتفى . كان مورانج بجانبى مرة أخرى وقد أضاءت وجهه ابتسامة غريبة . وقال لى :

— هلم . . .

فتبعته فى تلهف . وتوغلنا فى الكهف .

وكانت الثغرة التى كفت لمرور الجمال تسمح للضوء أن يدخل . وقادنى مورانج نحو قطعة ملساء من الصخر كانت تواجهنا . وقال لى فى سرور لم يفلح فى إخفائه :

— أنظر !

— ماذا ؟

— ماذا ؟ ألست ترى ؟

فقلت له فى شئ من الجبن :

— أرى أن هناك كثيراً من نقوش الطوارق ، ولكن أظن أنى أنبأتك بأنى لا أجيد قراءة التيفينارية أو كتابتها. فهل لهذه النقوش قيمة تفوق ما صادفنا من نقوش أخرى من قبل أكثر من مرة ؟

فقال مورانج :

— أنظر إلى هذه !

كان فى صوته نبرة انتصار ، حتى لقد وجهت إلى النقش كل اهتمامى .

ونظرت .

كان ثمة نقش رسمت حروفه على شكل الصليب . و بما أن له قيمة كبيرة فى هذه المغامرة أرى أن أعيد رسمه لك . ها هو ذا :

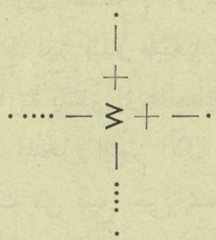

كان مرسوماً فى كثير من الانتظام والحروف محفورة حفراً عميقاً فى الصخرة. ومع ضآلة علمى بالنقوش الصخرية فى ذلك الزمن لم أجد صعوبة فى أن أعرف أن هذا النقش قديم جدا .

وتأمل فيه مورانج بسرور أخذ يزداد شيئاً فشيئاً .

وألقيت عليه نظرة مسائلة .

فقال لى مورانج :

— وبعد ذلك؟ ماذا ترى فى هذا ؟

— ماذا تريد أن أقول ؟ أكرر لك أنى أجد مشقة فى حل رموز التيفينارية .

فقال زميلى مقترحاً :

— أتريد أن أساعدك ؟

ولاح لى أن الوقت غير ملائم لمحاضرة فى النقوش البربرية بعدما كان قد اعترانا من انفعالات نفسية . ولكن سرور مورانج كان من الوضوح بحيث كنت أشعر بألم وضيق لو أنى عكرت عليه صفوه .

وانطلق زميلى فى الشرح وكأنه أمام سبورة :

— ما يجب أن نلاحظه أولا فى هذا النقش هو تكراره على شكل الصليب . بمعنى أنه يحتوى على الكلمة نفسها مرتين من أسفل إلى أعلى ومن اليمين إلى اليسار . وبما أن الكلمة مكونة من سبعة أحرف فالحرف الرابع يبدو طبيعيا فى الوسط . وهذا الوضع الفريد فى النقوش التيفينارية يدعو إلى العناية والاهتمام . على أن ثمة ما هو أحسن من هذا ، فلنحل الرمز الآن .

وأخفقت ثلاث مرات من سبع حتى بمساعدة مورانج الدائبة فى تهجى الكلمة .

وقال مورانج وهو يغمز بعينه بعد أن انتهيت من التمرين :

— هل نجحت ؟

فأجبته فى شئ من الضجر :

— مطلقاً . لقد تهجيت الكلمة : أن ت ى ن ها : انتينها . انتيها . لا أرى كلمة من هذا النوع أو قريبة منها فى كل لهجات الصحراء التى أعرفها .

ففرك مورانج يديه ، وكان سروره يزداد حتى جاوز الحد .

— لقد وجدت . وهذا على التحقيق ما يجعل الاكتشاف فريداً .

— وكيف ذلك ؟

— لا يوجد فعلا فى العربية أو البربرية ما يعادل هذه الكلمة .

— إذن . . .

— إذن يا صديقى العزيز نحن أمام كلمة أجنبية منقولة بحروف تيفينارية .

— وهذه الكلمة إلى أية لغة تنتمى فى رأيك ؟

— تذكر أولاً أن الحرف ى لا يوجد فى أبجدية التيفينارية . . . استبدل هنا بأقرب الأصوات إليه فى النطق وهو : ه . فضع هذا الحرف إلى المكان الذى يناسبه فى الكلمة فنحصل على . . .

— انتينيا .

— انتينيا ، بالضبط . نحن أمام كلمة يونانية مكتوبة بالتيفينارية . وأعتقد الآن أنك توافقنى على الاعتراف بأن كشفى على جانب عظيم من الخطورة .

فى هذا اليوم لم نزد فى شرح النص . ودوّت صيحة قلق وخوف . وكان ينتظرنا فى الخارج حيث أسرعنا فى الحال منظر غريب .

ومع أن السماء كانت قد استعادت صفاءها كان السيل لا يزال يقذف بمياهه التى تعلوها رغوة صفراء مما جعلنا لا نستطيع أن نتكهن متى ينتهى . وفى وسط السيل رأينا حطاماً غريباً رمادى اللون رخواً تتقاذفه المياه وهو يسير مع التيار متخبطاً دون أمل .

على أن ما أدهشنا فى أول وهلة هو منظر بوجمة وهو يقفز فى اتجاه متواز بين صخور حافة الوادى كأنه يتعقب هذا الحطام . لقد

كان عهدنا به هادئاً. أما الآن فقد بدا فى غاية من الجنون . وفجأة أمسكت بذراع سورانج ؛ فقد تحرك هذا الشئ الرمادى ، وبرزت منه رقبة طويلة بائسة ، وانبعث صوت محزن لحيوان مذعور .

وصحت :

— إنه لمخبول . هذا أحد إبلنا أفلت زمامه يجرفه السيل .

فقال سورانج :

— إنك لمخطئ . إن جمالنا كلها فى الكهف ، أما الجمل الذى يجرى بوجمة وراءه فليس من جمالنا . وأضف إلى ذلك أن الصوت الحزين الذى سمعناه لم يصدر عن بوجمة ؛ لأنه شجاع لا يجول برأسه هذه الساعة غير فكرة واحدة وهى أن يضع يده على هذا الجمل الغارق الذى يعد رأس مال لا مالك له .

— فمن الذى صاح إذن ؟

فقال زسيلى :

— فلنحاول إذا أردت أن نصعد مجرى السيل الذى ينحدر فيه رائدنا بهذه السرعة القوية .

ودون أن ينتظر منى رداً توغل على الحافة الصخرية التى حطمها السيل حديثاً . . .

•

وفى هذه اللحظة نستطيع أن نقول إن سورانج قد ذهب ليلقى حتفه .

وتتبعته ، وتجشمنا مشاق كثيرة لنتقدم مسافة مائتين أو ثلاثمائة متر . وأخيراً لمحنا تحت أقدامنا خليجاً صغيراً تتلاطم فيه المياه وهى تنخفض .

فقال سورانج :

— أنظر !

فثمة حزمة سوداء تترجح على مياه الخليج .

ولما صرنا على الحافة رأينا أنه جسم رجل يرتدى رداء الطوارق الطويلة ذات الزرقة القاتمة .

وقال سورانج :

— هات يدك وثبّت الأخرى على الصخر .

كان قويا جدا . وبعد لحظة كأنه يلهو أعاد الجسم إلى الشاطئ .

وقال فى شئ من الرضا :

— إنه ما زال حيا . والآن ينبغى أن ننقله إلى الكهف ، إن هذا المكان لا يصلح لافاقة غريق .

وحمل الجسم بين ساعديه القويين .

— من الغريب أن وزنه لا يتفق مع قامته الطويلة .

ولما قفلنا راجعين فى طريقنا إلى الكهف ، كانت ملابس الطارقى القطنية قد جفت تقريباً . غير أن لونها كان قد بهت كثيراً وصار هذا الرجل أزرق اللون . وقد جهد سورانج فى إعادته إلى الحياة .

وبعد أن ناولته كأساً من الروم فتح عينيه وحملق إلينا فى دهشة ثم تمتم بالعربية — وقد أغمض عينيه — بصوت يصعب فهمه ، هذه الجملة التى لم نفهم معناها إلا بعد أيام :

— أيمكن أن أكون قد بلغت نهاية مهمتى !

فقلت :

— أية مهمة يعنى بكلامه ؟ . . .

فأجاب سورانج :

— دعه يسترجع رشده تماماً . . . افتح صندوقاً من صناديق الطعام المحفوظ . لا داعى لملاحظة الاحتياطات المنصوصة فى حالة غرق الأوربيين مع أناس من هذا القبيل .

وكان فى الواقع عملاقاً ذلك الرجل الذى أنقذنا حياته . كان وجهه معتدلا جميلا تقريباً بالرغم من نحافته . كان أبيض اللون ذا لحية خفيفة . وكان شعره الأبيض يدل على أنه رجل فى العقد السادس . وعندما وضعت أمامه صندوق اللحم المحفوظ أشرقت فرحة نهم فى عينيه . كان الصندوق يحتوى على ما يكفى لغداء أربعة من أشد الرجال شراهة ، فابتلعه فى لمحة عين .

فقال سورانج :

— يا لها من شهية قوية شديدة ! والآن نستطيع أن نستجوبه فى غير تردد .

كان الطارقى قد أعاد على جبهته ووجهه اللثام الأزرق التقليدى . لا بد أنه كان يشعر بجوع شديد ، حتى إنه لم يبادر بهذا العمل الضرورى. وكنا فى هذه اللحظة لا نرى غير عينيه التى أخذتا ترنوان إلينا فى بريق أخذ ينطفئ شيئاً فشيئاً . وأخيراً تمتم :

— ضباط فرنسيون !

وأخذ يد سورانج ووضعها على صدره ثم لثمها .

وفجأة ظهرت فى عينيه علامات القلق . وسأل :

— وجملى ؟ . . .

فأفهمته أن رائدنا كان يحاول أن ينقذ الجمل . وأخذ بدوره يقص علينا كيف تعثرت دابته وتدحرجت فى السيل وسقط هو أيضاً

وهو يحاول أن يمسك زمامها ، وكيف ارتطمت جبهته بصخرة فصاح ثم صار لا يذكر شيئاً .

فسألته :

— ما اسمك ؟

— إج انطواين .

— من أى القبائل أنت ؟

— قبيلة قل تهات .

— إن رجال قل تهات عبيد لقبيلة قل رحالة الذين هم من كبار نبلاء الحجَّار .

فأجاب وهو ينظر خزراً :

— أجل !

كأن هذه الأسئلة الدقيقة عن الحجار لم ترقه .

— إن قل تهات إذا لم أكن مخطئاً يقيمون على السفح الجنوبى الغربى لجبل العتكور (١) . ماذا كنت تفعل بعيداً عن مجالكم حينما أنقذناك ؟

فأجاب :

— كنت ذاهباً إلى عين صلاح عن طريق تتا .

— وماذا كنت تريد أن تفعل فى عين صلاح ؟

كاد يجيب ، ولكنى فجأة رأيته يرتعد ، وصوب نظره إلى نقطة فى الكهف ؛ فاتجهنا بأنظارنا إليها فرأينا النقش الصخرى الذى كان سبباً منذ ساعة مضت فى سرور كبير لمورانج .

---

(١) اسم آخر يطلق على منطقة الحجار بلغة التمهاك . (تعليق مسيو لورو .)

فسأله مورانج فى فضول مفاجىء :

— أتعرف ما هذا ؟

لم ينبس الطارق ببنت شفة . ولمعت عيناه ببريق غريب . فسأل مورانج ملحا :

— أتعرف ما هذا ؟

وأضاف :

— أنتينيا ؟

فردد الرجل :

— أنتينيا .

ثم لزم الصمت .

فصحت به وقد شعرت بغضب غريب يتملكنى :

— أجب الكابتن .

فنظر إلىّ الطارق واعتقدت أنه سيتكلم ؛ غير أن عينيه جمدتا فى الحال ، وأحسست أن ملامحه أخذت تجمد تحت لثامه البراق .

حوّلنا أنظارنا أنا ومورانج .

فاذا بوجمة على عتبة الكهف يلهث كسيفاً حسيراً إذ عدا ساعة لا غناء فيها .

الفصل السادس

من مساوىء الخس

فى اللحظة التى تواجه فيها إج أنطواين وبوجمة بدا لى أنى لمحت فى الطارقى والكمبا رعدة سرعان ما أخفياها . وإنى أكرر أن هذا لم يكن إلا أثراً خاطفاً . وهذا الأثر كان كافياً لأن أعقد عزمى على أن أدقق فى الاستفسار من رائدنا عن زميلنا الجديد حينما نكون منفردين .

كانت بداءة هذا اليوم قد أعيتنا بما فيه الكفاية ، فقررنا أن نقضى بقيته هنا ، بل أن نقضى الليل فى الكهف حتى تغور المياه تماماً .

وبعد أن استيقظت أخذت أتبين على الخريطة طريقنا لهذا النهار فاذا مورانج يقترب منى ، فلاحظت عليه أمارات الضيق .

فقلت له :

— ستصل إلى الشيخ صلاح فى مدى ثلاثة أيام . ولربما كان ذلك بعد غد مساء إذا واصلت الجمال سيرها كما يجب .

فقال :

— لربما افترقنا قبل هذا .

— وكيف ذلك ؟

— لقد غيرت من طريقى قليلا ؛ إذ ليس فى نيتى أن أذهب رأساً

إلى طميسة . سأكون سعيداً لو توغلت قبل ذلك قليلا داخل جبال الحجار .

فزويت ما بين حاجبى :

— ما هذا الرأى الجديد ؟

وفى اللحظة نفسها كانت عيناى تبحثان عن إج أنطواين الذى كنت رأيته بالأمس ثم منذ لحظات مضت يتحادث مع سورانج . كان منهمكاً ببرود فى إصلاح نعليه بخيط مشمع أعطاه إياه بوجمة . لم يرفع رأسه .

فأبان سورانج فى ضيق شديد :

— لقد أخبرنى هذا الرجل عن مكان نقوش مشابهة فى كثير من كهوف الحجار الغربى . وتوجد هذه الكهوف بالقرب من الطريق التى سيسلكها فى عودته . وعليه أن يمر بتتا . ومن تتا إلى طميسة عن طريق سلة ، لا تزيد المسافة عن مائتى كيلومتر . وهذه طريق مطروقة (١) ، تقل بمقدار النصف عن الطريق التى كنت سأقطعها وحدى من الشيخ صلاح إلى طميسة حيث كنا سنفترق . وأنت ترى أن هذا هو أيضاً السبب الذى يدفعنى بعض الشئ إلى . . .

فأجبته :

— قليلا ، قليلا جدا . ولكن هل اتخذت قراراً نهائياً ؟

فقال :

— نعم .

---

(١) عين الكاتب بيسويل منذ ١٨٨٨ طريق تتا إلى طميسة ومراحلها « طوارق الغرب » ، رحلات ١ و ١٠ (تعليق مسيو لورو .)

— ومتى تريد أن تفارقنى ؟

— إن من مصلحتى أن أفعل ذلك اليوم . إن الطريق التى سيسلكها إج أنطواين ليدخل الحجار تقاطع هذه الطريق على بعد أربعة فراسخ من هنا . ولى بهذه المناسبة حاجة عندك .

— تفضل .

— أن تترك لى أحد الجمال ؛ لأن رائدى الطارقى فقد جمله .

فأجبت فى فتور :

— إن الجمل الذى يحمل متاعك ملكك وكذلك جملك .

ومكثنا صامتين لحظات . وكان سورانج صامتاً فى ضيق . أما أنا فكنت أدرس خريطتى . وفى كل مكان وخاصة عند الجنوب كانت أقاليم الحجار المجهولة تبدو فيها بقع عدة بيضاء بين سواد الجبال المفروض وجودها .

فقلت فى النهاية :

— أتعدنى بأن تذهب إلى طميسة عن طريق تتا وسلة بعد أن تلم بهذه الكهوف ؟

فنظر إلى فى ذهول :

— ولم هذا السؤال ؟

— لأنك إذا وعدتنى بذلك ، وإذا لم تكن صحبتى تضايقك بالطبع ، فانى سأرافقك . أنا لا أكترث بمئتى كيلومتر تطول بها طريقى ، وسأصل إلى الشيخ صلاح من الجنوب بدلا من الغرب . هذا كل شئ .

فنظر إلى سورانج فى انفعال وقال :

— لم تفعل هذا ؟

— يا صديقى العزيز (وكانت هذه أول مرة أنادى سورانج بهذا

اللقب) يا صديقى العزيز إن لى حاسة تزداد قوة فى الصحراء وهى حاسة الخطر . لقد أعطيتك مثلا لذلك أمس صباحاً وقت العاصفة . ومع أنك على علم بالصخور يبدو لى أنك لا تستطيع أن تكوّن رأياً واضحاً عن الحجار ولا عن المفاجآت التى يمكن أن تحدث فى هذا المكان. ولذلك أفضل ألا أدعك تعرّض حياتك منفرداً لبعض الأخطار .

فأجابنى فى سذاجته المحبوبة :

— إن معى رائداً .

وكان إج أنطواين مكبا على إصلاح نعليه وهو جالس القرفصاء كعادته دائماً . فاتجهت إليه :

— أسمعت ما قلته للكابتن ؟

فأجاب الطارقى فى هدوء :

— نعم .

— سأرافقه. سنفارقك عند تتا التى لا بد أن تقودنا إليها دون عناء . أين هذا المكان الذى اقترحت على الكابتن أن تقوده إليه ؟

فأبدى الطارقى هذه الملاحظة فى برود :

— لست الذى اقترح ، وإنما هو الذى طلب إلىّ ذلك . والكهوف التى تحوى هذه النقوش توجد على مسيرة ثلاثة أيام جنوباً فى الجبل. إن الطريق وعرة فى البداية ، ثم تأخذ فى التحسن بعد ذلك ، ويستطيع الانسان أن يصل إلى طميسة فى غير عناء . وثمة آبار عذبة حيث يذهب الطوارق تايتوك الذين يحبون الفرنسيين ليسقوا جمالهم منها .

— وهل تعرف الطريق جيداً ؟

فهز كتفيه . وبدت فى عينيه ابتسامة ازدراء وقال :

— لقد سلكتها عشرين مرة .

— إذن إلى الأمام .

وسرنا ساعتين دون أن أبادل سورانج كلمة واحدة . وتملكني إحساس بما كنا مقدمين عليه من جنون ونحن نخاطر بأنفسنا في غير اكتراث في أقل جهات الصحارى طرقاً وأكثرها خطراً . بل إن كل الضربات التي قوضت التقدم الفرنسي منذ عشرين عاماً إنما خرجت من هذا الحجار الرهيب . وإذ كنت قد انضممت عن طيب خاطر إلى هذه الرحلة الجنونية فلم يكن لي أن أحجم عنها . وأية فائدة في أن أشوه عملي هذا بما أظهر من ضجر مستمر ؟ ثم يجب أن أعترف بأن المظهر الذي جعلت تأخذه رحلتنا لم يكن ليشعرني بالنفور . كنت منذ تلك اللحظة أشعر بأننا في طريقنا إلى شيء فريد أو إلى مغامرة فظيعة . لا يمكن أن تضيفنا الصحراء مدى أشهر أو سنين . فهي تتحكم فيك إن عاجلا أو آجلا. ستمحو خلال الضابط الطيبة ورعب الموظف وتقتلع منه تقديره للتبعة . ماذا كان وراء هذه الصخور الغامضة وهذا الخلاء المغلق الذي ابتلع أشهر الباحثين عن الغموض ؟ وقلت في نفسي سنذهب . . . سنذهب .

ثم سألت سورانج :

— أمتأكد أنت على الأقل أن لهذا النقش قيمة تسوغ ما نحن مقدمون عليه ؟

فاهتز سورانج سروراً . كنت أدركت ما انتابه من مخاوف عندما بدأنا الرحلة . ولكن لما كنت قد هيأت له سبيل إقناعي فقد ولت عنه شكوكه ولاح له الفوز مؤكداً !

فأجابني بلهجة أرادها متزنة ، فجاءت حارة :

— لم يعثر قط على نقش يونانى عند خط عرض منخفض مثل هذا . إن المواقع المتطرفة التى وجدت فيها هذه النقوش جنوب الجزائر وليبيا . أما فى الحجار ! أتتخيل ذلك ؟ حقا إن هذا النقش منقول بحروف تيفينارية. ولـكن هذه الصفة لا تقلل من قيمته ، بل تزيد منها.

— ترى ماذا يكون معنى هذه الـكلمة ؟

فقال سورانج :

— إن أنتينيا لا يمكن إلا أن يكون اسم علم . لمن يكون ؟ أعترف أنى أجهل ذلك . وإذا كنت فى هذه الساعة أتجه نحو الجنوب وأنا أحملك على مصاحبتى فذلك لأننى واثق أنى سأحصل على معلومات أخرى . أما أصل الـكلمة فليس هنـاك أصل واحد بل من الجائز أن يكون ثمة ثلاثون أصلا . ولتعلم أن أبجدية التيفينار لاتتفق مع أبجدية اليونان ، وهذا ما يكثر من الفروض . أتريد أن أطلعك على بعضها ؟

— كنت على وشك أن أطلب إليك ذلك .

— هناك أولا ʼαντί أنتى ، و ναῦς, نيوس أى المرأة الموضوعة فى واجهة السفينة . وهذا شرح يسرّ جفاريل أو استاذى المحترم برليو. وهذا الاسم قد ينطبق على الأشكال المحفورة فى مقدمة السفن ويوجد لها اسم فنى لا يمكننى العثور عليه الآن ولو ضربت بالعصا مائة وخمسين مرة (١) .

وهنـاك أيضاً ʼαντινῆα, التى لا بد أنهـا مشـتقة من ʼαντί و ναός, أى التى تقف أمام ναός, أى المعبد ، التى تـكون أمام المذبح : الكاهنة إذن . وهذا شرح يسرّ جيدار ورينان من كل الوجوه .

---

(١) ربما كان من المستحسن أن نشير هنا إلى أن « تماثيل مقدمة السفن » هو عنوان مجموعة من الشعر لمدام دولارو مادرو .

ثم هناك ,ἀντινέα من أنتى ἀντὶ’ و νέος, نيوس أى جديد. لهذه الكلمة معنيان: فأما هذه التى هى عكس شابة أعنى عجوزاً، عدوة التجديد أو عدوة الشباب.

وثمة معنى آخر ,νάτι’أى مبادلة. وهذا معنى يأتى فى الوقت المناسب ليعقد الاحتمالات التى عثرنا عليها من قبل. وتوجد أربعة معان للفعل νέω الذى يعنى على الترتيب: يذهب، يسيل، يحلج أو ينسج، يجمع — وزد على ذلك . . . ولاحظ أننى فى مكانى على رحل هذا الجمل المريح، لا أجد بين يدى قاموس إستيين الكبير ولا مفردات باسو أو باب أو ليدل سكوت. وهذا يا صديقى لأثبت لك فقط أن علم النقوش ما هو إلا علم نسبى؛ إذ يكون من وراء كل كشف نص جديد تخطئة للقواعد السابقة، وهذا إن لم يكن خاضعاً لحالة علماء النقوش النفسية وفكرتهم الخاصة عن الكون (١).

فقلت:

— وهذا ما أراه على وجه التقريب. ولكن دعنى أعجب من أنك مع شكوكك فى الأهداف التى ترمى إليها، لا تتردد فى أن تواجه مخاطر ربما عدت جسيمة.

فابتسم مورانج ابتسامة باهتة:

— أنا لا أفسر يا صديقى ولكننى أجمع. وسيخرج دوم جرانجر من كل ما سأقدمه له بنتائج لا يسمح لى بها علمى الضئيل. وماقصدت أنا إلا اللهو. فاغفر لى.

---

(١) يبدو أن الكابتن مورانج قد نسى أن يذكر فى هذا التصنيف الأصل Ανθινεα وهى لفظة من اللهجة « لدورية » مشتقة من ,Ανθινη`‘’، من ,ανθος`‘ أى زهرة وربما كان معناها « مزدهر » (تعليق مسيو لورو.)

وفى هذه اللحظة التوى سير من أحد سيور الجمال لم يكن محكماً تمام الاحكام بلا شك . فانقلب جزء من الحمل وسقط على الأرض . فأسرع بالنزول إج أنطواين عن مطيته وساعد بوجمة فى إصلاح التلف . ولما انتهيا سرت بجملى بجوار جمل بوجمة وقلت :

— لا بد أن تحكم حزم الجمال عند أول استراحة لأنها ستسير فى الجبل .

ونظر إلىّ الرائد فى دهشة إذ لم أجد حتى هذه الساعة غناء فى أن أطلع رائدنا على مشروعاتنا الجديدة . وكنت أظن أن إج أنطواين قد أطلعه .

فقال الكمبا :

— يا سيدى الملازم، إن الطريق من الوادى الأبيض إلى الشيخ صلاح ليس جبليا .

— لن نسير فى طريق الوادى الأبيض. سنتجه جنوباً إلى الحجار .

فتمتم :

— عن طريق الحجار ! ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟

— أنا لا أعرف الطريق .

— إن إج أنطواين سيقودنا .

— إج أنطواين ؟

فنظرت إلى بوجمة وقد أفلتت منه هذه الصيحة المكتومة ، وألقى على الطارقى نظرة فيهاً مزيج من الدهشة والرعب .

كان جمل إج أنطواين يسير على عشرة أمتار أمامنا بجانب جمل مورانج وكان الرجلان يتحدثان . ففهمت أنه لا بد أن مورانج

كان يحدثه عن هذه النقوش . ولكنا لم نكن متخلفين عنها كثيراً بحيث لا يسمعان حديثنا .

ونظرت إلى رائدى مرة أخرى فرأيته شاحب اللون . فسألته فى صوت خفيض :

— ما دهاك بوجمة ؟ ما دهاك ؟

فتمتم :

— ليس هنا يا سيدى الملازم . ليس هنا !

وكانت أسنانه تصطك. وأضاف فى همس :

— ليس هنا ، هذا المساء فى وقت الراحة عندما يكون متجها نحو الشرق وهو يصلى ، بعد غروب الشمس . إذن دعنى وسأحدثك ، ولكن ليس هنا . إنه يتكلم ولكنه ينصت . ابتعد ! إلحق بالكابتن .

فتمتمت وأنا أحث جملى ضاغطاً بقدمى على عنقه لألحق بمورانج :

— يا لها من مسألة غريبة !

كانت الساعة حوالى الخامسة مساء عندما توقف إج أنطواين الذى كان يمشى فى مقدمتنا ، وقال وهو ينزل عن جمله :

— ها هو ذا المكان .

كان المكان كئيباً وجميلا فى وقت واحد . على شمالنا جدار عجيب من الجرانيت تمتد قمته الرمادية فى السماء الحمراء . وكان فى هذا الجدار من أعلى إلى أسفل ممر ملتو قد يبلغ ارتفاعه ألف قدم وعرضه يكاد يكفى أحياناً لمرور ثلاثة جمال معاً .

فكرر الطارقى :

— ها هو ذا المكان .

وكانت الطريق التى أوشكنا أن نتركها تمتد أمامنا نحو الغرب تماماً فى ضوء الشمس الآفلة ، كأنها شريط باهت : الوادى الأبيض وطريق الشيخ صلاح والاستراحات الآمنة والآبار المعروفة... وفى الجهة المقابلة ، هذا الجدار الأسود فى سماء بنفسجية وهذا الممر المظلم. فنظرت إلى سورانج ، فقال فى بساطة :

— فلنقف . إن إج أنطواين ينصح لنا أن نجدد مئونة الماء كاملة .

وقررنا بالاجماع أن نقضى الليل هنـاك قبل أن نتوغل فى الجبل .

كان هناك غدير فى بقعة مظلمة يصب فيه جدول جميل ، وبعض الشجيرات وبعض النباتات .

وأخذت الجمال وهى مقيدة ترعى ما هنالك من كلأ .

وأخذ بوجمة يضع على حجر كبير مسطح أدوات الأكل من أكواب إلى أطباق نحاسية ، ووضع أيضاً صندوق أكل محفوظ كان قد فتحه بجانب طبق من الخس جمعه على شاطئ الجدول الندى .

وأدركت من حركاته المضطربة وهو يضع على الصخر هذه الأشياء المختلفة ، ما كان يساوره من قلق شديد .

وانثنى نحوى ليناولنى طبقاً . فأشار إلى الممر الكئيب المظلم الذى كنا سنتوغل فيه وتمتم :

— بلاد الخوف .

فسأل سورانج وقد تنبه إلى حركته :

— ماذا يقول ؟

— بلاد الخوف . هذه هى بلاد الخوف . هكذا يسمى العرب الحجّار .

ثم جلس بوجمة بعيداً عنا وتركنا نتناول العشاء. ثم أخذ يأكل بعض أوراق الخس التى كان قد احتفظ بها لنفسه وهو جالس القرفصاء. وكان إج أنطواين لا يبدى حركة .

وفجأة انتصب الطارقى وقد صارت الشمس فى الغرب جمرة حمراء ورأينا إج أنطواين يقترب من الجدول ويبسط على الأرض برنسه الأزرق ويركع .

فقال مورانج :

— ما كنت أعتقد أن الطوارق يحترمون التقاليد الاسلامية إلى هذا الحد .

فقلت وأنا غارق فى التفكير :

— ولا أنا .

كان علىّ فى تلك اللحظة أن أفعل شيئاً غير الدهش .

فناديت بوجمة وأنا أنظر إلى إج أنطواين الذى كان منهمكاً فى الصلاة متجهاً نحو المشرق (١) . فكان واضحاً أنه لا يعيرنى أى انتباه . كان يسجد حينما صحت مرة أخرى بصوت أقوى :

— بوجمة. تعال معى إلى جملى . أريد أن آخذ شيئاً من الكيس .

كان إج أنطواين يؤدى صلاته فى هدوء وإسرار.

---

(١) فى الأصل نحو الغرب (المترجم) .

أما بوجمة فلم يبد حركة .

لم يجبنى إلا أنين خافت .

انتصبنا واقفين سورانج وأنا وجرينا نحو الرائد . ووصل إليه أيضاً إج أنطواين معنا فى اللحظة نفسها .

كان الكمبا يشهق بين ذراعى سورانج وعيناه مغلقتان وقد بردت أطرافه . كنت قد أمسكت باحدى يديه فى حين أمسك إج أنطواين بالأخرى . وكل منا يحاول بنفسه أن يحدس أو يفهم . . .

وفجأة ارتجف إج أنطواين . كان قد لمح الطبق المعوج الذى كان يمسك به العربى منذ قليل بين ركبتيه والذى أصبح مقلوباً على الأرض .

فأمسكه وفصل أوراق الخس الباقية وهو يفحصها بسرعة الواحدة تلو الأخرى ، وصاح صيحة مبحوحة .

فتمتم سورانج :

— والآن قد جاء دوره . هل سيجن هذا أيضاً ؟

كنت أرنو إلى إج أنطواين فرأيته يجرى فى صمت إلى الحجر حيث نظمت أدوات الطعام . وبعد لحظة عاد إلينا وفى يده طبق الخس الذى لم نكن قد لمسناه . وحينئذ أخذ ورقة خضراء كثيفة عريضة باهتة وقربها من ورقة أخرى كان قد أخذها من طبقنا .

وقال فى بساطة :

— خَس سام !

فعرتنى رعشة وكذلك سورانج . أهذا هو الخس السام ، خس عرب الصحراء ، النبات المرعب الذى فتك بعدة من بعثة فلا ترز فتكاً أسرع وأمضى من أسلحة الطوارق ؟

ووقف إج أنطواين ، وكانت قامته الطويلة تمتد فى الفضاء الذى صار بنفسجيا باهتاً . كان ينظر إلينا .

وبينما نحن نقبل فى عناية على الرائد المسكين كرر الطارق وهو يهز رأسه :

— خس سام !

ومات بو جمة فى منتصف الليل دون أن يعاوده الشعور .

الفصل السابع

بلاد الخوف

قال سورانج :

– من الغريب أن نلاحظ كيف غدت حملتنا التى كانت مجردة من الحوادث منذ وارجلان كثيرة الاضطراب .

قال هذه الجملة وهو ينهض بعد أن سجد لحظة وصلى على الحفرة التى حفرناها بكل أسى لنضع فيها رفات رائدنا .

أنا لا أومن بالله . ولكن إذا كان هناك شئ يمكن أن يؤثر فى قوة ما خيراً كانت أو شرًّا ، نوراً كانت أو ظلاما ، فهو صلاة هذا الرجل .

سرنا يومين كاملين فى تيه هائل من الصخور السوداء كأنما كنا نسير فى منظر من مناظر القمر لشدة ما فيه من دمار ؛ فلا شئ يسمع إلا أخفاف مطايانا على قطع الصخور التى كانت تنتثر فتنحدر إلى أعماق الهاوية ، فيسمع لها دوى .

إنها لرحلة عجيبة حقا . فى الساعات الأولى حاولت أن أرسم الطريق التى كنا نسلكها بالبوصلة . ولكن سرعان ما اضطرب رسمى ، وكان ذلك بلا شك بسبب خطأ فى تقدير خطوات الجمال وحينئذ وضعت البوصلة فى أحد أخراجى . ومنذ هذه اللحظة أصبح إج أنطواين سيدنا . لم يبق لنا إلا أن نثق به .

كان يسير فى المقدمة يتبعه مورانج ، وكنت أسير فى المؤخرة . وكان يقع أغرب أنواع الصخور البركانية أمام عينى فى كل لحظة ولكن دون جدوى . لم أهتم بهذه الأشياء ؛ فقد تملكنى فضول آخر . لقد انتابنى ما انتاب مورانج من جنون . فلو أن رفيقى أقبل يحدثنى : « إن ما نفعل لجنون . فلنقفل راجعين إلى الدرب المطروق » لأجبته فى هذه اللحظة : « إنك حر . أما أنا فسأتابع المسير . »

فى مساء اليوم الثانى ، ألفينا أنفسنا عند سفح جبل أسود ترتفع قمته نحو ألفى متر فوق رءوسنا ، كأنه حصن له أبراج كالأبراج الاقطاعية ترتسم بوضوح جلى على صفحة السماء البرتقالية .

وكانت ثمة بئر وبعض الأشجار وهى الأولى من نوعها التى صادفناها منذ توغلنا فى الحجار .

وكان جماعة من الرجال يحيطون بالبئر وجمالهم المعقولة تبحث لها فى غير جدوى عن غذاء .

ولما رآنا الرجال تجمعوا فى قلق مستعدين للدفاع .

فالتفت إلينا إج أنطواين قائلا :

— طوارق إجالى .

وتوجه نحوهم .

كان هؤلاء الاجالى وسيمى الطلعة ، وكانوا أضخم من قابلت من الطوارق . وفى سرعة لم نكن ننتظرها تنحوا عن البئر تاركين لنا استعمالها . ووجه إليهم إج أنطواين بعض الكلمات . فنظروا إلينا ، مورانج وأنا ، نظرة فضول وخوف ، ولكنها نظرة احترام على كل حال. فدهشت لهذا التحفظ . فقد رأيت رئيسهم يرد الهدايا المتعددة

التى أخرجتها من خرجى ، وكان يبدو عليه أنه يخشى حتى نظراتى .

فما إن رحلوا حتى أعربت لإج أنطواين عن الدهشة التى ألقانى فى غمارها هذا التحفظ الذى لم أعتده فى علاقاتى السابقة مع سكان الصحراء . وقلت له :

— لقد خاطبوك فى احترام بل فى خوف ، ومع ذلك فقبيلة الاجالى قبيلة نبيلة فى حين أن قبيلة قل تهات التى أخبرتنى بانتمائك إليها قبيلة عبيد .

ومرت بسمة فى عينى إج أنطواين القاتمتين . وقال :

— هذا حق !

— إذن ؟

— إذن . . . قلت لهم إنى والكابتن سنتجه معك إلى جبل الجن .

وأومأ إج أنطواين مشيراً إلى الجبل الأسود .

— لقد انتابهم الخوف . فكل طوارق الحجار يخافون جبل الجن . أرأيت كيف فروا لمجرد أنهم سمعوا اسمه؟

فسأله مورانج :

— أتقودنا إلى جبل الجن ؟

فأجاب الطارقى :

— نعم ! فهناك النقوش التى حدثتك عنها .

— ولكنك لم تنبئنا بهذه التفاصيل .

— وما الفائدة ؟ فالطوارق يخشون الجن الذين تعلو جباههم القرون وخلفهم الذيول ، ويتدثرون بالشعر ، ويقتلون القطعان ويصرعون الرجال . ولكنى أعرف أن الروم لا يخشونهم بل يسخرون من مخاوف الطوارق فى هذا الأمر .

فقلت :

— وأنت ؟ أأنت طارق ولا تخشى هؤلاء الجن ؟

فأشار إج أنطواين إلى كيس من الجلد الأحمر يتدلى على صدره من سبحة ذات حبات بيضاء .

وقال برزانة :

— إنى أحمل « حجاباً » باركه الولى الجليل سيدى موسى بنفسه ، ثم إننى فى صحبتكم وقد أنقذتما حياتى . لقد أردتما مشاهدة النقوش ، فلتكن مشيئة الله .

ولما انتهى من كلامه جلس القرفصاء وأخرج غليونه الغابى الطويل ذا الغطاء النحاسى وأخذ يدخن فى وقار .

واقترب منى مورانج وتمتم قائلا :

— قد أخذ كل شئ يبدو لى غريباً .

فقلت :

— يخلق بك ألا تغالى . لعلك تذكر جيداً مثل ما أذكر الفقرة التى يقص فيها بارت رحلته إلى العدنين وهى جبل الجن عند طوارق الأزجر . كانت للمكان سمعة سيئة بحيث لم يقبل أى طارقى مصاحبته ومع ذلك قد رجع حيا .

فقال رفيقى :

— لقد عاد منها بلا شك ، غير أنه ضل الطريق فى أول الأمر وكاد يموت جوعاً وعطشاً حتى إنه اضطر إلى فصد عرق من عروقه ليشرب من دمه . إن نهاية كهذه لا تغرينى .

فهززت كتفى : وعلى كل لم تكن غلطتى أن كنا قد بلغنا إلى هذا المدى .

وفهم سورانج سعنى حركتى ، ورأى أن من الواجب أن يعتذر . واستطرد فى مرح متكلف بعض الشئ :

— ومع ذلك أحس بتشوق إلى الاتصال بهؤلاء الجن والتحقق من أخبار بومبونيوس ملا عنهم ، وهو الذى عرفهم وحدد مكانهم بالفعل فى جبال الطوارق . إنه يسميهم أجيبان وبلميين وجمفازنت وساتير . « إن الجمفازنت عراة . وليس للبلميين رءوس لأن وجوههم فى صدورهم . والساتير ليس لهم من الانسان إلا الوجه . أما الأجيبان فهيئتهم عادية على مايقال . » ساتير ، أجيبان . . . أليس من الغريب حقا أن نسمع هذه الأسماء اليونانية تطلق على جن البربر فى هذه الأماكن ! صدقنى إننا نسير فى درب غريب ، وإنى موقن أن أنتينينا ستكون مفتاحاً لاستكشافات غريبة جدا .

فقلت له وقد وضعت إصبعاً على شفتى :

— صه . . . أصغ .

فثمة أصوات غريبة أخذت تنتشر حولنا ، وقد أخذ الليل يجننا سريعاً . وإذ بفرقعة يليهـا أنين طويل يفتت القلب يتردد دون انقطاع فى الأودية المجاورة . وكأن الجبل الأسود بأكمله أخذ يئن فجأة . فنظرنا إلى إج أنطواين ، فاذا به مستمر فى التدخين دون حراك .

وقال فى بساطة :

— إن الجن يستيقظون .

كان سورانج ينصت دون أن يوجه إلىّ كلمة ، وكان مثلى يفهم من غير شك : الصخور الملتهبة وفرقعة الحجارة وسلسلة من الظواهر الطبيعية الأخرى التى تذكر بغناء تمثالى ممنون . ومع ذلك لم يكن

التأثير المؤلم لتلك الحفلة الموسيقية المفاجئة قليلا فى أعصابنا المتهيجة .

وخطرت بذاكرتى آخر عبرات بوجمة :

فتمتمت :

— بلاد الخوف .

فكرر سورانج :

— بلاد الخوف .

وانقطعت الحفلة الموسيقية الغريبة عندما بدت فى السماء طلائع النجوم . وفى انفعال متناه رأينا الشعلات الصغيرة الزرقاء الباهتة تضئ الواحدة تلو الأخرى . فى هذه اللحظة المروعة كانت تصلنا تلك النجوم نحن المحكوم عليهما بالموت ، كانت تصلنا باخواننا فى الأصقاع الشمالية ، أولئك الذين كانوا فى تلك الساعة فى المدن حيث ينتشر ضوء الكهربا فيندفعون فى جنون خرف إلى ملاذهم التافهة :

للايل سبع بنات
ماتردجرى وأرديجيهوت
ماتيسكسك وايسيكاوت
ماتيلهرلهر وايللرهاوت
والسابعة صبى فقد إحدى عينيه

وأخذ صوت إج أنطواين يخرج من حنجرته فى بطء . فى هذا الصمت المطبق كان صوته يدوى رخيما حزيناً .

فلمست ذراع الطارقى وأشار بحركة من رأسه إلى مجموعة النجوم تتألق فى السماء .

فهمست إلى سورانج وأنا أشير إلى النجوم السبعة الباهتة :

— الثريا .

وعاد إج أنطواين بالصوت الرتيب نفسه إلى أغنيته الكئيبة . سيطر عليّ ضيق مفاجئ . فأمسكت ذراع الطارقي وهو يحاول ترديد أنشودته للمرة الثالثة ، فسألته في غلظة :

— متى نصل إلى كهف النقوش ؟

فنظر إلى وأجابني في هدوئه المعتاد :

— لقد وصلنا .

— وصلنا ! وماذا كنت تنتظر إذن لترينا إياها ؟

فأجاب في وقاحة :

— كنت منتظراً أن تطلب إليّ ذلك .

وانتصب سورانج واقفاً :

— الكهف . . . الكهف هنا ؟

فأجاب إج أنطواين بهدوء وهو ينهض :

— إنه هنا .

وفجأة قلت في قلق :

— سورانج . . . لقد جن الليل ولن نرى شيئاً ، ولربما كان الكهف بعيداً .

فقال إج انطواين :

— إنه على خمسمائة خطوة تقريباً . إن الكهف ملئ بالعشب الجاف سنشعله وسيرى الكابتن كأنه في وضح النهار .

فقال زميلي :

— هيا بنا .

فقلت :

— والجبال ؟

فقال إج انطواين :

— إنها مقيدة ولن نغيب عنها طويلا .

كان قد يمم شطر الجبل الأسود وتبعه مورانج فى حالة عصبية عنيفة وتبعتهما أنا أيضاً . وكنت قد اعترانى منذ لحظة ضيق شديد . وكان العرق ينفض فى صدغى ، وقلت لنفسى : « أنا لست خائفاً . أقسم أن هذا ليس بخوف . »

لا . لم يكن هذا خوفاً . ولكن يا له من دوار غريب ! أحسست بغشاوة على عينى وطنين فى أذنى ، وسمعت من جديد صوت إج انطواين . . . صوتاً مدوياً ولكنه مكتوم . . . مكتوم :

للليل سبع بنات . . .

وخيل إلىّ أن أصوات الجبل وهى ترجع الصدى كانت تكرر إلى ما لانهاية البيت الأخير الكئيب :

والسابعة صبى فقد إحدى عينيه .

وقال الطارقى :

— إنه هنا .

وبدت فى الجدار ثغرة سوداء ، نفذ منها إج انطواين وقد حنى قامته ، وتبعناه وأطبقت علينا الظلمات .

لهب أصفر . كان إج أنطواين قد أورى الزناد وأشعل كومة من الحشائش بجانب المدخل . ولم نستطع أن نرى شيئاً فى بادئ الأمر فقد غشى الدخان أبصارنا .

وسكت إج أنطواين بجانب ثغرة الكهف ، وجلس فى هدوء تام وأخذ يخرج من غليونه نفثات طويلة من الدخان الرمادى .

فى هذه اللحظة كان يصدر من العشب المتوهج ضوء براق . ولمحت مورانج ، فبدا لى شاحباً للغاية . كان مستنداً على الجدار بيديه وهو منهمك فى حل بعض رموز لم أرها إلا بصعوبة .

ولكن خيل إلىّ أن يديه ترتعدان .

وقلت فى نفسى وأنا أشعر بصعوبة متزايدة فى وصل الأفكار بعضها ببعض :

— يا للشيطان ! أهو فى حالة اضطراب مثلى !

سمعته يصيح فى عنف وبدا لى أنه يخاطب إج أنطواين :

— ابتعد عن هذا المكان . دع الهواء يدخل . يا له من دخان .

كان يواصل حل الرموز .

وفجأة سمعته مرة أخرى ولكن فى غير وضوح . خيل إلىّ أن الأصوات أيضاً كانت فى الدخان :

— أنتينيا . . . أخيراً . . . أنتينيا . . . ولكن ليست محفورة فى الصخر . علامات مرسومة بلون أصفر . . . لم يمض عليها عشر سنوات بل لربما لم يمض عليها خمس . . . آه ! . . .

كان قد أمسك برأسه بين يديه وصاح صيحة عالية :

— هذا تضليل . . . تضليل مروع .

فأرسلت ضحكة ساخرة مقتضبة :

— هيا ! هيا ! لا تغضب !

فأمسك بذراعى وأخذ يهزنى . ورأيت عينيه تشعان ذعراً ودهشة. وصاح فى وجهى :

— أأنت مجنون ؟

فقلت فى ضحكتى المقتضبة :

— لا تصح عالياً هكذا !

ونظر إلىّ مرة أخرى وجلس متهالكاً على حجر تجاهى . كان إج أنطواين يواصل التدخين فى الهدوء نفسه عند مدخل الكهف. وكنا نرى غطاء غليونه الأحمر يلمع فى الظلام . وردد سورانج فى صوت بدا لى متغيراً :

— مجنون ! مجنون !

وفجأة انحنى على النار التى كانت تنشر لهيبها الأخير عالياً صافياً . وأخذ عشباً لم يكن قد احترق ورأيته يختبره فى اهتمام ثم يلقيه فى النار فى ضحكة مدوية :

— ها ها . إنه لشئ لطيف .

واقترب من إج أنطواين وهو يترنح وأشار إلى النار :

— حشيش أليس كذلك ؟ حشيش آه . . . آه . . . إنه لشئ لطيف . . .

فكررت وأنا أنفجر ضاحكاً :

— إنه لشئ لطيف .

ووافق إج أنطواين بضحكة خافتة . وكانت النار ، وقد أخذت تخبو ، تضئ وجهه الملثم وتبرق فى عينيه الرهيبتين القاتمتين .

وانقضت لحظة ثم أمسك سورانج فجأة ذراع الطارقى وقال :

— أريد أن أدخن أنا أيضاً . أعطنى غليوناً .

ناوله الشيخ فى هدوء ما التمس .

— آه . . . آه . . . غليون أوربى !

فكررت فى مرح متزايد :

— غليون أوربى !

— وعليه حرف م كأنه شئ مقصود : م كابتن مورانج .

فقال إج أنطواين مصححا فى هدوء :

— كابتن ماسون .

فرددت مع مورانج :

— كابتن ماسون !

وعاودنا الضحك .

— آه . . . آه . . . آه . . . كابتن ماسون ! الكولونيل فلاترز بئر جرامة . . . قتلوه ليسلبوه غليونه . هذا الغليون . إن صغير بن شيخ هو الذى قتل الكابتن ماسون .

فأجاب الطارقى فى هدوئه الرزين :

— بالتأكيد إنه صغير بن شيخ .

وقال مورانج وهو ينفجر ضاحكاً :

— كان الكابتن ماسون قد ترك القافلة مع الكولونيل فلاترز ليستكشف البئر .

فأتممت وأنا أتمادى فى الضحك :

— وحينئذ هاجمهما الطوارق .

وقال مورانج :

— وأمسك طارقى حجّارى بلجام فرس الكابتن ماسون .

وقال إج أنطواين :

— وأمسك صغير بن شيخ بلجام فرس الكولونيل فلاترز .

وقلت :

— ووضع الكولونيل قدمه فى الركاب وتلقى فى اللحظة نفسها ضربة من سيف صغير بن شيخ .

وقال سورانج :

— وأخرج ماسون مسدسه وأطلق النار على صغير بن شيخ فأطار ثلاثة أصابع من يده اليسرى .

وأنهى الحديث إج أنطواين فى غير اضطراب :

— ولكن صغير بن شيخ شج رأس الكابتن ماسون بضربة من سيفه .

وضحك ضحكة صامتة راضية وهو يفوه بهذه الجملة . كان الضوء المتخابى يضيئه ورأينا أنبوبة غليونه سوداء لامعة . كان يمسكها بيده اليسرى . أصبع ، اثنان فقط فى هذه اليد . يا للدهشة ! لم أكن قد لاحظت هذا من قبل .

ولاحظ ذلك أيضاً سورانج لأنه اختتم الحديث وهو يقول فى ضحكة مدوية :

— وحينئذ وبعد أن شججت رأسه ، سلبته متاعه وأخذت غليونه . مرحى يا صغير بن شيخ .

ولم يجب صغير بن شيخ . ولكنا لمسنا رضاه التام . واستمر فى تدخينه . لا أتبين تماماً تقاطيع وجهه . وبهت لهيب النار وأخذ يخمد . لم أضحك قط كما ضحكت هذا المساء ، ولا سورانج أيضاً . أنا متأكد من ذلك . لربما نسى الدير . وذلك لأن صغير بن شيخ سرق غليون لكابتن ماسون . فلنثق إذن بالنزعات الدينية .

عادت هذه الأغنية الملعونة : «والسابعة صبي فقد إحدى عينيه.» لم يطرأ على بالى كلام فى مثل هذا السخف . . . آه شئ سخيف حقا : ها نحن أولاء الآن أربعة فى هذا القبو . . . أربعة ! ماذا أقول ؟ خمسة . ستة . سبعة . ثمانية . . . لا تتضايقوا يا أصدقائى ! ماذا ؟ ليس من أحد ؟ سأعرف أخيراً كيف هم عفاريت هذا المكان الجمفازنت والبلميين . . . يقول سورانج إن وجه البلميين فى وسط صدورهم . ولكن من يمسكنى بين ذراعيه ؟ ليس من البلميين بلا شك. هو يحملنى إلى الخارج . وسورانج . . . لا أريد أن ينسوا سورانج . . .

لم ينسوه : أراه مرفوعاً على جمل يمشى أمام الجمل الذى ربطت به . لقد أحسنوا صنعاً ، فلولا ذلك لسقطت بالتأكيد . هذه الجن لم تكن شياطين شريرة حقا . ولكن ما أطول هذه الطريق ! أريد أن أتمدد . النوم ! لقد سلكنا بالتأكيد دهليزاً طويلا ثم خرجنا إلى الهواء الطلق . وهانحن أولاء مرة أخرى فى دهليز خانق لا نهاية له . وها هى ذى النجوم مرة أخرى . أيستمر هذا السير المضحك طويلا ؟

يا للغرابة ! أضواء . . . لعلها نجوم . لا ! هى حقا أضواء ... درج . أقسم أنه درج ، فى الصخر إذا أردت ، ولكنه درج . كيف تستطيع الجمال . . . ولكن ليس هذا بجمل . إنه رجل ذلك الذى يحملنى . رجل يرتدى ثياباً بيضاء . ليس هو الجمفازنت ولا البلميين لا بد أن تكون حالة سورانج سيئة بعد أن أخطأ فى استدلاله التاريخى . إنى أكرر أنه أخطأ . سورانج الطيب أرجو ألا يدعه الجمفازنت يسقط فى هذا الدرج الذى لا ينتهى . ثمة شئ يبرق فى السقف . إى نعم إنه مصباح . مصباح نحاسى كما فى تونس فى منزل

بربوشى . حسن ! هأنذا لا أرى شيئاً مرة أخرى . ولكن لا أكترث إنى ممدد . الآن سأستطيع النوم . يا له من يوم سخيف ! آه ... أيها السادة . أؤكد لكم أن لا فائدة من تقييدى ؛ فلست أتوق إلى النزول إلى الشارع .

الظلام مرة أخرى . خطوات تبتعد . السكون .

للحظة فقط . يتحدثون بالقرب منا . ماذا يقولون ؟ لا ! . . . هذا غير ممكن . هذا الصوت المعدنى . هذا الصوت . أتعرف ماذا يقول هذا الصوت وفى لهجة من اعتاد ذلك . حسن إنه يقول :

— اختاروا لعبتكم أيها السادة . اختاروا لعبتكم . هنا عشرة آلاف جنيه على المنضدة . إلعَبوا أيها السادة . . .

وأخيراً أأنا فى الحجار أم لا بحق الإله المقدس .

الفصل الثامن

اليقظة فى الحجار

كان الصبح قد انبلج عندما فتحت عينى . وفى الحال فكرت فى سورانج . لم أره ، ولكنى سمعته بالقرب منى يرسل صيحات دهشة قصيرة .

ناديته ، فأسرع إلىّ .

وسألته :

— ألم يقيدوك إذن ؟

— أسألك العفو . ولكنهم لم يحسنوا تقييدى ونجحت فى التخلص من قيودى .

فقلت له فى ضجر :

— كان فى استطاعتك أن تحل قيودى أنا أيضاً .

— وما يجدى ذلك ؟ لربما أيقظتك . وكنت أعتقد أن أولى صيحاتك ستكون نداء لى ، وهأنذا قد انتهيت .

وترنحت وأنا أنتصب على ساقى .

فابتسم سورانج وقال :

— لو كنا قضينا الليلة ندخن ونحتسى الخمر ، ما كنا نصبح على هذه الحال التى يرثى لها . وعلى كل حال لقد كان إج أنطواين بحشيشه جد خؤون .

فصححت قائلا :

— صغير بن شيخ .

وأمررت يدى على جبهتى .

— أين نحن ؟

فأجابنى مورانج :

— يا صديقى العزيز ، منذ استيقظت من هذا الكابوس الفريد الذى ابتدأ فى الكهف الملئ بالدخان وانتهى عند الدرج ذى مصابيح ألف ليلة وليلة ، وأنا أنتقل من مفاجأة إلى مفاجأة ومن دهشة إلى دهشة . ويجدر بك أن تنظر حواليك .

ففركت عينى ونظرت ومسكت يد رفيقى .

وقلت له متوسلا :

— مورانج ! قل لى إننا ما زلنا فى حلم .

كنا فى حجرة مستديرة قطرها نحو خمسين قدماً وارتفاعها مثل قطرها تقريباً تضيئها نافذة كبيرة تنفتح على سماء شديدة الزرقة .

وكانت الطيور تمر جيئة وذهاباً وهى ترسل صيحات مرحة خاطفة .

وكانت الأرض والجدران المقوسة والسقف من رخام معرق أشبه بالرخام السماقى ومصفحة بمعدن غريب أبهت من الذهب وأقتم من الفضة ، يعلوه فى تلك اللحظة شئ من ندى نسيم الصباح وقد كان يدخل بشدة من النافذة التى تحدثت عنها .

ومشيت نحو هذه النافذة وأنا أترنح تجتذبنى برودة النسيم والضوء الذى يمحو الأحلام ، واستندت على حاجز النافذة .

ولم أستطع أن أحبس صيحة إعجاب .

كنت على شئ أشبه بشرفة معلقة فى الفضاء منحوتة فى جانب

الجبل ، من فوق زرقة السماء ومن تحتى على بعد خمسين متراً تراءت لى جنة أرضية حقا تحيط بها القمم من كل الجهات كأنها سور متصل لا يمكن اختراقه . هناك تنبسط حديقة . كان النخيل يتمايل بسعفه المتطاول فى رخاوة . وعند جذوعها خليط من الشجيرات التى يحميها النخيل فى الواحات كشجر اللوز والليمون والبرتقال وأشجار أخرى متعددة لم أستطع تمييز نوعها من مثل هذا الارتفاع ، وثمة جدول أزرق تغذيه عين تصب فى بحيرة لطيفة كان ما كنا فيه من الارتفاع يمنحها شفافته العجيبة . وكانت طيور ضخمة تحلق دائرة على هـذه الهاوية العشبية . وكنا نرى على البحيرة بقعاً وردية ملتهبة .

أما الجبال التى كانت تشمخ بقممها العالية من كل جانب فكانت مغطاة بالثلوج تماماً .

الجدول الأزرق ، والنخيل الأخضر ، والثمار الذهبية ومن فوقها الثلوج العجيبة،كل هذا قد كوّن شيئاً بلغ من الحسن والجمال حدًّا لم أستطع أن أتحمل بقوتى الانسانية الضعيفة وقعه ، فوضعت جبهتى على الحاجز الذى كانت تغشاه هذه الثلوج الالهية ، وأخذت أبكى كما يبكى الطفل .

كان مورانج هو الآخر طفلا . ولكن بما أنه استيقظ قبلى فقد أتاح له الوقت أن يألف هذه التفاصيل التى ثقلت علىّ بتاليفها العجيبة .

فوضع يده على كتفى واضطرنى فى رفق إلى العودة إلى البهو .

وقال لى :

— إنك لما تر شيئاً . أنظر . . . أنظر .

— مورانج ! مورانج !

— هيه يا عزيزى ! ماذا تريد أن أصنع ؟ أنظر !

كنت قد لاحظت أن هذا البهو الغريب مؤثث — وليغفر الله لى — على الطريقة الأوربية . غير أن ثمة وسائد طارقية مستديرة من أدم ذى ألوان صارخة ، وأغطية جفصية [١] مبعثرة هنا وهناك ، وبُسط من القيروان وستائر من القراماني كنت ارتعدت لو رفعتها فى تلك اللحظة . ولكن لمحنا من فتحة الحائط مكتبة مملوءة كتباً ، وعلى الحوائط مجموعة من المصورات تمثل تحف الفن القديم . وهناك منضدة اختفت تحت أكوام لا يتصورها العقل من الأوراق والمجلات والكتب . وظننت أنى سأخر صريعاً عندما لمحت عدداً حديثاً من « مجلة الآثار » .

ونظرت إلى مورانج فنظر إلىّ ، وفجأة انبعثت ضحكة جنونية هزتنا لحظات . وأخيراً استطاع مورانج أن يقول :

— لا أدرى أيخالجنا الندم يوماً على رحلتنا فى الحجار . واعترف معى أنها تنبئ بخصوبة فى الحوادث المفاجئة . هذا الرائد الفذ الذى يؤمها لغرض وحيد ، وهو أن ينقذنا من متاعب حياة القوافل ويتيح لى أن أعرف على أكمل وجه نشوة الحشيش التى طالما اشتدت رغبتى فيها ، وركوب الخيل العجيب ليلا ، وأخيراً كهف نور الدين ، ولعله تلقى فى مدرسة النورسال تعاليم برسو الأثينى ، كل هذا يكفى ليخبل أكثر العقول اتزاناً .

— قل لى بجد ماذا ترى فى كل هذا ؟

— الذى أراه فى ذلك يا صديقى المسكين أنى — وهو ما تراه أنت بنفسك — لا أفهم شيئاً مطلقاً ، مطلقاً . إن ما تسميه بلطفك سعة اطلاعى قد تلاشى . وكيف تريد ألا يحدث هذا ؟ إن هذه الحياة

---

(١) نسبة إلى جفصة : مدينة . (المترجم .)

الغريبة ترعبنى . إن بلينوس يتكلم عن وطنيين يعيشون فى الكهوف على بعد ستة أيام سيراً على الأقدام فى الجنوب الغربى لبلاد أمانت وعلى مسافة اثنتى عشر يوماً غربى سيرت . ويقول هيرودوت أيضاً إن الجرامنت يطاردون ، فى عربات تجرها الجياد ، الأحباش أهل الكهوف . ولكن ها نحن أولاء فى الحجار فى وسط بلاد الطوارق ويقدم لنا أحسن المؤلفين . إن الطوارق شعب لا يرضى بالاقامة فى الكهوف . إن دفيرييه صريح فى ذلك . وما هذا الكهف الذى أعد مكتباً للعمل وعلى حوائطه مصورات لفينيس دى ميدشى وأبولون سوروكتون . أقول لك إن هذا جنون . فثمة أشياء تبعث على الجنون .

وترك مورانج نفسه يسقط على أريكة وأخذ يضحك بشدة .

فقلت :

— أنظر ! لاتينى .

كنت قد أخذت بعض ورقات مبعثرة على المكتب الذى كان يتوسط الحجرة ، فأخذها مورانج من يدى وتصفحها فى شره . وبدت الدهشة المرسومة على صفحة وجهه لا حد لها حينذاك .

— يا صديقى من أعجوبة إلى أعجوبة . يوجد شخص هنا يحرر بحثاً عن جزائر « جرجونوم » بالرجوع إلى مصادر عدة . يقول إن ميدوز كانت ليبية متوحشة تقطن ضواحى بحيرة تريتون ، وهو شط ملحرير الحالى وهناك برسيه . . . آه !

واختلج صوت مورانج فى حنجرته . وفى اللحظة نفسها دوّى صوت خشن جاء فى البهو الفسيح :

— أرجوك يا سيدى ، دع أوراقى وشأنها .

فالتفتّ نحو القادم .

وانفرجت إحدى ستائر قرامانى وفسحت المرور لأقل الأشخاص توقعاً بالدخول . ومهما يكن من استسلامنا للمفاجآت العجيبة فان هذا الظهور فاق بعدم ملاءمته فى نظرنا كل ما يمكن أن يتبادر إلى أذهاننا .

وانتصب على عتبة الباب رجل قصير أصلع أصفر الوجه مدببه يختفى تحت زوج من العوينات الخضراء الضخمة ولحية رمادية اللون ، قليل الملابس الداخلية ،ولكنه كان يلبس رباط عنق ضخم أحمر اللون وسروالا أبيض واسعاً . وكانت بلغته التى من أديم أحمر هى الجزء الوحيد الشرقى فى لبسه .

كان يحمل فى تظاهر وسام ضابط المعارف العمومية .

جمع الوريقات التى تساقطت من يد مورانج فى دهشة ، وعدها ورتبها ثم هز جرساً صغيراً نحاسيا بعد أن حدجنا بنظرة غضب .

رفع الستار مرة أخرى . ودخل عملاق طارقى أبيض،فبدا لى واحد من جن الكهف[1] .

فسأل ضابط المعارف العمومية القصير فى غضب :

— فراجى . . . لم أدخل هذان السيدان فى المكتبة ؟

فانحنى الطارقى باحترام وأجاب :

— لقد عاد صغير بن شيخ مبكراً كثيراً عما كنا ننتظر يا سيدى ، ولم يكن محنطو الجثث قد انتهوا أمس من عملهم .

وتمم وهو يشير إلينا :

---

(١) يطلق عادة اسم الطوارق البيض على السود من خدم الطوارق . فالنبلاء يرتدون أقمشة قطنية زرقاء فى حين أن الخدم يرتدون أقمشة قطنية بيضاء . ولذا أطلق عليهم اسم الطوارق البيض . أنظر كتاب دوفيرييه « طوارق الشمال » ص ٢٩٢ . (تعليق مسيو لورو .)

— فقدناهما إلى هنا مؤقتاً .

فقال الرجل القصير فى حدة :

— هذا حسن . يمكنك أن تذهب .

ووصل فراجى إلى الباب متقهقراً وتلبث على العتبة وأضاف :

— على أن أذكرك يا سيدى أن المائدة قد أعدت .

— حسن . اذهب .

وجلس الرجل ذو العوينتين الخضراوين إلى المكتب وأخذ يقلب أوراقاً فى انفعال .

لست أدرى لماذا تملكنى فى هذه اللحظة غيظ جنونى ، فتقدمت منه وقلت له :

— يا سيدى ! لا نعرف زميلى وأنا أين نحن ولا من أنت . وكل ما نعرفه أنك فرنسى لأنك تحمل أحد أوسمة الشرف الممتازة من بلدنا .

وأضفت وأنا أشير إلى الشريط الأحمر الذى كان يتدلى على سترتى البيضاء :

— لعلك قد خامرتك الفكرة نفسها .

فنظر إلىّ فى دهشة كلها احتقار .

— وماذا تريد إذن ؟

— ماذا أريد ؟ إن العبد الذى خرج نطق باسم صغير بن شيخ وهو اسم قاطع طريق . اسم شقى . أحد قتلة الكولونيل فلاترز . أتعرف هذه التفاصيل ؟

فنظر إلىّ الرجل القصير فى برود وهز كتفيه .

— أجل . ولكن هذا لا يهمنى .

فصمت فى انفعال :

— وكيف؟ ولكن من أنت أولا؟

فقال الشيخ القصير وهو يلتفت نحو مورانج فى وقار مضحك:

— سيدى أنت شاهد على تصرفات زميلك الغريبة. أنا هنا فى منزلى ولا أسمح . . .

فأجاب مورانج وهو يتقدم:

— يجب أن تصفح عن زميلى يا سيدى. إنه ليس رجل علم مثلك، فهو ملازم شاب ولذلك يثور سريعاً كما ترى. ويجب أن تفهم على كل حال أن لدينا من الدوافع ما يجعلنا أنا وهو لا نملك أعصابنا كما ينبغى.

وكدت وأنا فى انفعالى أن أنكر على مورانج كلماته الغريبة لتواضعها؛ ولكن نظرة منه أقنعتنى أن السخرية تحتل من وجهه مثل ما تحتل دهشته من مكان.

فهمهم الشيخ القصير:

— إنى أدرك جيداً أن معظم الضباط الفرنسيين أفظاظ. على أن هذا ليس بسبب . . .

فرد مورانج فى لهجة متزايدة فى التواضع:

— لست أنا نفسى إلا ضابطاً يا سيدى. ولو كنت قد تألمت من ضآلة العقلية التى يوصف بها هذا المركز، فأقسم لك أن هذا حدث منذ برهة عندما تصفحت (وأعتذر عن هذا) هذه الصفحات العلمية التى خصصتها لتاريخ جورجون الممتع بالرجوع إلى بروكليس القرطجنى كما تكلم عنه بوزانياس.

وبسطت أسارير وجه الشيخ القصير دهشة مضحكة، ومسح عوينتيه بسرعة ثم صاح:

— كيف ؟

واستمر مورانج فى غير اضطراب :

— إنه لما يدعو إلى الأسف فى هذا الصدد أننا لا نملك البحث الفريد الذى يتناول هذه المشكلة الهامة وقد تكلم عنها ستاثيوس سيبوزوس الذى لا نعرف عنه شيئاً إلا عن بلينوس ، وأن . . .

— أتعرف ستاثيوس سيبوزوس ؟

— وأن أستاذى برليو الجغرافى . . .

فتمتم الرجل القصير ذو الوشاح دهشاً :

— أعرفت برليو ! أكنت تلميذه ؟

وأجاب مورانج وقد صار بارداً :

— كان لى الشرف .

— ولكن . . . إذن يا سيدى . . . لقد سمعت عن . . . إنك على علم بمسألة . . . بمشكلة الأطلنطيد . . .

فردد مورانج فى برود شديد :

— أنا فعلا على علم بأعمال لانيو وبلوا وأربوا دى جوبانفيل .

كان الرجل القصير يضطرب اضطراباً غريباً .

— يا إلهى يا سيدى ! يا سيدى الكابتن ما أشد سرورى ، ما أشد أسفى ! . . .

وفى اللحظة نفسها رفع الستار مرة أخرى وظهر فراجى :

— سيدى يخبرونك أنهم سيبدءون بدونك إذا لم تحضر .

— سأذهب . سأذهب يا فراجى . أبلغهم أننا سنذهب . آه يا سيدى لو أمكننى أن أحدس ، ولكن هذا عجيب جدا . . . ضابط يعرف بروكليس القرطاجنى وأربوا دى جوبانفيل . ومرة أخرى . . . ولكن

أقدم نفسى : مسيو إتيين لميج ، أحمل شهادة الآجر بجاسيون من الجامعة .

فقال زميلى :

— كابتن سورانج .

فتقدمت بدورى :

— الملازم دى سانت أفيت . أنا بالفعل يا سيدى لا أستطيع أن أفرق بين أربوا القرطاجنى و بروكليس دى جوبانفيل ، وسأهتم فى المستقبل بتلافى هذا النقص . ولكنى الآن أريد أن أعرف أين نحن ، أنا وزميلى ، وهل نحن أحرار ، وأية قوة خفية تحجزنا ؟ يبدو عليك يا سيدى أنك تتمتع بحرية فى هذا المنزل بحيث تستطيع أن تطمئننى فى هذه النقطة التى أعدها لضعفى أساسية .

ونظر إلىّ مسيو لميج وقد تبدت على شفتيه ابتسامة خبيثة وفتح فاه ... وفى اللحظة نفسها دوى جرس فى انفعال .

— أيها السادة ، سأوضح لكم كل شىء عما قليل . أما الآن كما تريان فلا بد لنا من الاسراع . إنه وقت الغداء وزملاؤنا قد أخذوا يملون الانتظار .

— زملاؤنا ؟

فقال لميج :

— إنهما اثنان ، فنكون نحن الثلاثة موظفى المنزل الأجانب .

ورأى أن يضيف وهو يبتسم ابتسامته المقلقة :

— الموظفون المثبتون أيها السادة ، إنهما اثنان فريدان ستؤثران بلا شك أن تكون العلاقة معهما ضئيلة قدر المستطاع . أحدهما رجل من رجال الدين ذو عقل ضيق ، إنه بروتستانتى ، والآخر رجل من عالم الفساد ، شيخ مجنون .

فسألته :

— اسمح لى . لا بد أن يكون الشخص الذى سمعته الليلة السابقة كان يلعب الميسر معك ومع القس بلا شك . . .

فأتى مسيو لميج بحركة من أهين فى كبريائه ، وقال :

— أتظن ذلك يا سيدى ؟ معى ؟ إنه يلعب مع الطوارق . لقد علمهم كل ما يمكن أن تتصوره من ألعاب. أنظر إنه هو الذى يدق الجرس بهذا العنف . لنسرع . الساعة الآن التاسعة والنصف ، وتفتح حجرة المقامرة فى الساعة العاشرة . فلنسرع ، وأظن أنه لن يغضبكما أن تأكلا قليلا .

فأجاب مورانج :

— وفعلا لن نرفض ذلك .

.

وتبعنا مسيو لميج فى دهليز متعرج به درجات عند كل خطوة . كان الطريق مظلماً ، ولكن من حين إلى حين كانت تلمع فى كوات منحوتة فى الصخر مصابيح وردية ومباخر . وكانت العطور الشرقية المثيرة تؤرج الظلام وتنشئ تناقضاً رقيقاً مع جو القمم الثلجية الباردة .

وكان من لحظة إلى أخرى يمر بنا طارقى أبيض كأنه شبح أبكم جامد ، وكنا نسمع قرقعة نعليه تتضاءل خلفنا .

وتوقف مسيو لميج أمام باب مصفح بالمعدن الباهت الذى لاحظته على جدران حجرة المكتبة . وبعد أن فتحه انزوى جانباً ليفسح سبيل الدخول .

ومع أن حجرة المائدة التى دخلناها كانت قليلة الشبه بمثيلاتها الأوربية ، أعتقد أن كثيراً منها قد تحسدها على ما يشتملها من رفاهية .

وكانت كالمكتبة تضيئها نافذة كبيرة . غير أنى لاحظت أن الحجرة تطل على الخارج على حين كانت حجرة المكتبة تطل على الحديقة الواقعة فى داخل الدائرة الجبلية .

لا أثر ثمة للمائدة ، ولا لهذا الأثاث الوحشى الذى يسمى بالمقاعد، بل ثمة ألواح لا تعد من خشب مذهب كأنها من البندقية ، وأكوام من البسط شاحبة اللون ضعيفته ، ووسائد طارقية وتونسية ، وفى الوسط حصير كبير وضع عليه فى سلال دقيقة الخيوط ، بين أباريق فضية وكاسات نحاسية مملوءة بالماء المعطر ، طعام أمدنا منظره وحده بشئ من القوة .

وتقدم مسيو لميج وقدمنا إلى الشخصين اللذين كانا قد اتخذا مكانهما على الحصير ، فقال :

— مسيو سباردك .

وأدركت من هذه الجملة البسيطة أن مقدمنا يترفع كثيراً عن الألقاب الانسانية التافهة .

فحيانا جناب القس سباردك ، وهو من منشستر ، تحية متزنة ، والتمس منا أن نسمح له بأن يحتفظ على رأسه بقبعته العالية ذات الأطراف العريضة . كان جافيا بارداً ، طوالا نحيفاً . وكان يأكل كثيراً فى هدوء كئيب .

وقال مسيو لميج بعد أن قدمنا للمدعو الثانى :

— مسيو بيلوفسكى .

وصحح الأخير فى لطف تام حين وقف لمصافحتنا :

— الكونت كازمير بيلوفسكى ، قائد جيتومير .

وشعرت فى الحال بشئ من الميل إلى قائد جيتومير الذى كان

يمثل الشيخ الجميل تمام التمثيل . كان فى رأسه فرق يفصل شعره البنى (وعلمت بعد ذلك أن القائد يصبغه بمزيج من الكحل) وكان له سوالف فاخرة على نمط فرنسوا جوزيف بنية اللون أيضاً . وكان أنفه يميل قليلا إلى الاحمرار ، ولكنه جد دقيق ، جد نبيل . وكانت يداه أعجوبتين . أخذت بعض الوقت فى تحديد تاريخ البِدْع الذى ينتمى إليه رداء الكونت وهو أخضر قاتم ذو قلابات صفراء يزينها وسام فضى ضخم ذو ميناء زرقاء . ووثبت إلى ذهنى صورة للدوق دى مورنى جعلتنى أرده إلى سنة ١٨٦٠ أو ١٨٦٢ . وستظهر بقية القصة أنى ما أخطأت قط .

وأجلسنى الكونت بجواره . ومن أول الأسئلة التى وجهها إلىّ كان سؤاله : هل كنت لعبت لعبة الخمسة .

فقلت :

— هذا يتبع وحى الظرف .

— أحسنت قولا . أما أنا فلم ألعبها منذ ١٨٦٦ . هذا قسم . جرم صغير . . . كنا نلعب فى ذات يوم عند فالفسكى فى حماسة . سحبت خمسة فضاعفت بالطبع الرهان ، وكان مع ملاعبى أربعة . فصاح البارون دى شو جيزيه الصغير الذى كان يقامر على ورق بمبالغ جنونية : « أبله ! » ، فقذفت رأسه بزجاجة شمبانيا . فطأطأ رأسه ، فتلقى الزجاجة الماريشال فايون . و ياله من منظر ! وقد أصلحوا ذات بيننا لأننا كنا نحن الاثنين ماسونيين . واضطرنى الامبراطور أن أقسم ألا أمارس هذه اللعبة فاستمسكت بوعدى ، ولكن هذا كان يشق علىّ فى بعض الأحيان .

وأضاف فى صوت تملؤه الكآبة :

— ناولنى قليلا من نبيذ الحجار ١٨٨٠ ، إنه نبيذ جيد . أنا الذى علم سكان هذا المنزل كيف يستعملون عصير الكروم . إن نبيذ النخيل جيد له قيمته إذا أحسن تخميره ولكنه مع مرور الزمن قد يفقد نكهته.

كان نبيذ الحجار ١٨٨٠ نبيذاً قويا . وكنا نتناوله فى أكواب فضية كبيرة . كان طازجاً كنبيذ الراين وجافًّا كنبيذ الأديرة، ثم إذا به يذكرك بنبيذ البرتغال المحروق ، ثم يغدو حلواً فكيهاً . . . أقول لك إنه نبيذ عجيب .

كان يُتناول هذا النبيذ مع أكثر الوجبات مرحاً : قليل من اللحم ولكنه كان متبل باتقان . كثير من الكعك ، فطائر بالعسل ، شطائر معطرة ، حلويات باللبن الرائب والتمر . فى الأطباق الكبرى المذهبة أو فى وسط السلال الخيزرانية فواكه . . . أكوام من الفواكه تين وتمر وفستق وعناب ورمان ومشمش وعناقيد ضخمة من العنب أطول من العناقيد التى ناءت تحتها مناكب الممولين الاسرائليين فى بلاد كنعان ؛ وبطيخ ثقيل مقطع ذو لحم وردى رطب وصفوف منظمة من اللب الأسود .

وما كدت أنتهى من تذوق إحدى هذه الفواكه الجميلة المثلجة حتى نهض مسيو لميج وقال موجهاً كلامه إلى مورانج وإلىّ :

— تفضلا أيها السادة .

فهمس إلىّ قائد جيتومير :

— دع هذا المخرف بأسرع ما تستطيع . ستبدأ المقامرة عما قليل سترى . . . سترى . . . أعنف كثيراً مما هو عند كورا برل .

وكرر مسيو لميج بلهجة جافية :

— أيها السادة .

فتبعناه . ولما صرنا نحن الثلاثة فى المكتبة قال يخاطبنى :

— يا سيدى ! لقد سألتنى منذ هنيهة أية قوة خفية تحجزكما هنا . وبما أن أسلوبك كان تهديديا كان علىّ أن أرفض الاجابة لولا صديقك الذى يسمح له علمه أكثر منك أن يقدر قيمة ما سأبوح به لكما .

وبينما كان يتكلم ضغط على زر فى جانب من الجدار ، فظهر خوان ملئ بالكتب وتناول واحداً منها .

واستمر مسيو لميج قائلا :

— إنكما كليكما تحت سلطان امرأة . وهذه المرأة وهى الملكة ، السلطانة الحاكمة المطلقة للحجار تدعى أنتينيا . لا تدهش يا مسيو مورانج .

وفتح الكتاب وقرأ هذه الجملة :

« يجدر بى أولاً أن أنبئك قبل الدخول فى الموضوع بألا يأخذك الدهش إذا سمعتنى أسمى بعض البرابرة بأسماء يونانية . »

فتمتم مورانج وقد أفزعنى شحوبه فى هذه اللحظة :

— ما اسم هذا الكتاب ؟

فأجاب مسيو لميج ببطء وهو يزن كلماته مشعراً بانتصاره :

— هذا الكتاب هو أكبر محاورات أفلاطون وأجملها وأكثرها صعوبة . إنه « كريسياس » أو « الأطلنطيد » .

فتمتم مورانج :

— « كريسياس » ولكنه غير كامل .

فقال مسيو لميج :

— إنه غير كامل فى فرنسا ، فى أوربا ، فى كل مكان . أما هنا فانه كامل . تحقق من هذه النسخة التى أناولك إياها .

فردد سورانج وهو يتصفح المخطوط بشره :

— ولكن أية صلة . . . أية صلة بين هذا الحوار الكامل كما يلوح لى . . . أجل كامل . . . أية صلة بينه وبين هذه المرأة أنتينيا ، ولم كان فى حيازتها ؟

فأجاب الرجل القصير فى غير اضطراب :

— لأن . . . لأن هذا الكتاب بالقياس إليها هو كتاب شرفها. إنه لها بمثابة تقويم جوته على وجه التقريب . أفاهم أنت ؟ . . . لأنه يحدد نسبها العجيب . . . لأنها . . .

فكرر سورانج :

— لأنها . . .

— لأنها حفيدة نبتون وآخر سلالة الأطلنط .

الفصل التاسع

الأطلنطيد

ونظر مسيو لميج إلى سورانج نظرة انتصار . كان واضحاً أنه لايوجه الحديث إلا إليه ، فهو فى نظره الوحيد الجدير بهذه الافضاء .

قال :

— إنهم لعديدون أولئك الضباط الفرنسيين أو الأجانب الذين جذبتهم إلى هنا نزوة ملكتنا أنتينيا . وإنك أول من أمنحه شرف معرفة هذه الأسرار . إنك كنت تلميذ برليو ، وأنا أجل كثيراً ذكرى هذا الرجل العظيم . ويخيل إلىّ أنى أكرمه باشراك أحد تلاميذه فى النتائج الفريدة — إذا صح هذا القول — لبحوثى الخاصة .

وهز جرسه الصغير ، فظهر فراجى . وأمره مسيو لميج :

— قهوة لهؤلاء السادة .

ومد إلينا صندوقاً صغيراً ملوناً بألوان زاهية مليئاً بالسجائر المصرية وقال :

— أنا لا أدخن مطلقاً . ولكن أنتينيا تحضر أحياناً إلى هنا وهذه سجائرها . تفضلا أيها السادة .

كنت دائماً أتقزز من هذا الطباك الأصفر الذى يتيح لصبى حلاق فى شارع الميشوديير أن يتخيل الملذات الشرقية . ولكن هذه السجائر

الممسكة هى بذاتها مغرية . ثم كانت مؤونة سجائر الكابورال قد نفدت منذ أمد بعيد .

وقال لى مسيو لميج :

— ها هى ذى مجموعة « الحياة الباريسية » فاقرأها إذا كانت تهمك ، وسأحادث أنا صديقك .

فأجبته بلهجة شديدة :

— يا سيدى لم أكن حقا تلميذ برليو . ولكن ستسمح لى أن أستمع إلى حديثك ؛ فأنا لم أفقد الأمل فى أن أجده ممتعاً .

فأجاب الشيخ القصير :

— كما تريد .

وجلسنا جلسة مريحة ، وجلس مسيو لميج أمام مكتبه ورفع كمى قميصه وابتدأ بهذه الكلمات :

— مهما يكن من شغفى يا سيدى باللاذاتية التامة فيما يختص بالعلم فاننى لا أستطيع أن أفصل تماماً قصتى الخاصة عن قصة آخر سلالة كايتو ونبتون . هذا ما يؤسفنى ويشرفنى فى وقت واحد .

« إننى وليد أعمالى . لقد بهرتنى منذ صباى وثبة القرن التاسع عشر العظيمة للعلوم التاريخية . تبينت طريقى فسلكتها على رغم الجميع .

« أقول فعلا على رغم الجميع . نجحت فى مسابقة الآجريجاسيون فى التاريخ والجغرافيا سنة ١٨٨٠ دون وسيلة إلا مجهودى وجدارتى . كانت مسابقة عظيمة ، وكان من بين الثلاثة عشر الذين فازوا فى المسابقة أسماء خلدت منذ ذلك الحين : جوليان ، بورجوا ، أويرباخ .

ولست أحقد على زملائى الذين وصلوا اليوم إلى أعلى المناصب فى الدولة ؛ فانى أقرأ فى إشفاق أعمالهم والأخطاء الفظيعة التى يوقعهم فيها ما فى مراجعهم من نقص . وكان هذا خليقاً أن يعوضنى تماماً عن كوارثى الجامعية وأن يملأنى بمرح ساخر لولا أنى صرت منذ زمن بعيد أترفع عن مثل هذا الإرضاء لكرامتى وعزة نفسى .

« لما كنت مدرساً فى ليسيه دى بارك فى ليون ، عرفت هناك برليو وتتبعت بشغف بحوثه فى تاريخ أفريقيا . ومنذ هذا الزمن جالت بخاطرى فكرة رسالة دكتوراه طريفة . وكانت الفكرة تقوم على وضع موازنة بين الكاهنة بطلة البرابرة التى حاربت الغزاة العرب فى القرن السابع وبين البطلة الفرنسية جان دارك التى حاربت الغزاة الانكليز . فقدمت إلى كلية الآداب فى باريس اقتراحاً بهذه الرسالة: « جان دارك والطوارق » . وأثار هذا العنوان البسيط فى الأوساط العلمية تذمراً عامًّا وضحكاً عالياً سخيفاً . وقد أسرّ إلىّ بذلك بعض الأصدقاء ، وأبيت أن أصدقهم . ولكنى اضطررت إلى تصديقهم فى اليوم الذى دعيت فيه لمقابلة عميدى الذى أبدى اهتماماً بحالتى الصحية أدهشنى . سألنى آخر الأمر : أتقبل إجازة لمدة سنتين بنصف راتب ؟ فرفضت محتدا . ولم يلح العميد فى ذلك . ولكن بعد خمسة عشر يوماً نقلت بقرار وزارى بدون أى إجراء آخر إلى أحط مدرسة فى فرنسا وأبعدها ، فى مونت دى مارسان .

« ولتفهم جيداً أننى كنت مجروح الكرامة ، وستغفر لى سوء تصرفاتى فى هذه المقاطعة الغريبة . وما العمل فى منطقة اللاند غير أن نأكل ونشرب ! فقمت بهذين العملين بشراهة . وأنفقت راتبى

فى شراء الكبد والبط والنبيذ . وكانت النتيجة جد سريعة . فى أقل من سنة أخذت مفاصلى تقرقع كأنها أعمدة دراجة غارقة فى الزيت بعد أن قطعت مسافة طويلة فى طريق مترب . واضطرنى النقرس إلى ملازمة الفراش . ولحسن الحظ يوجد الدواء إلى جانب الداء فى هذه المقاطعة المباركة . فرحلت فى العطلة إلى داكس لأذيب هذه البلورات المؤلمة .

« واستأجرت حجرة على شاطئ اللادور تشرف على طريق بنيو. وكانت تنظف حجرتى امرأة طيبة ، كما كانت تنظف أيضاً حجرة رجل مسن فى المعاش وكيل نيابة ورئيس جمعية روجيه — دوكو ، وهى جمعية ذات صبغة شبه علمية ؛ إذ كان علماء المقاطعة يبذلون جهودهم مع قلة دراية مدهشة لدراسة أغرب المسائل . وقد كنت لازمت حجرتى بعد ظهر أحد الأيام لشدة المطر . وكانت المرأة تصقل فى عنف أكرة الباب النحاسية . كانت تستعمل دهاناً يسمى تريبولى تتناول منه على ورقة ثم تحك . . . وتحك . . . وأثار شكل الورقة اهتمامى فألقيت عليها نظرة : « — يا إلهى ! من أين أخذت هذه الورقة ؟ » فاضطربت وقالت :

« — من عند سيدى . إن لديه من هذه أكواماً . لقد نزعت هذه الورقة من إحدى الكراسات .

« — هاك عشرة فرنكات وإلى بهذه الكراسة .

« وبعد ربع ساعة عادت وقد أحضرتها . . . يا للسعادة ! لم تكن تنقص إلا صفحة واحدة ، الصفحة التى كانت تصقل بها الباب. وهذا المخطوط . . . هذه الكراسة . . . أتدرى ما هى ؟ لم تكن إلا « الرحلة إلى الأطلنطيد » التى قام بها دنيس دى ميليه كما

يذكرها ديودور، والتى كثيراً ما سمعت برليو يأسف على فقدها [١] .

« كان هذا السند القيم يحوى مقتبسات عدة من « الكريسياس » وكان يذكر أهمّ ما فى الحوار الشهير . وقد وقعت يداك منذ قليل على النسخة الوحيدة الموجودة فى العالم منه . فهو يحدد بطريقة لا تحتمل المناقشة موضع حصن جماعة الأطلنطيد ، ويثبت أن هذا الموقع الذى ينكره العلم الحديث ، لم تغمره المياه كما يتصور المدافعون المتهيبون القلائل عن افتراض الأطلنطيد . كانوا يسمونه : « الجبال المزيقية المتوسطة » . وأنت تعلم أنه لا مجال للشك فى أن المازيق الذين تكلم عنهم هيرودوت هم قبائل ايموسكاوك ، الطوارق . ولكن مخطوط دينيس يجعل بكل تأكيد من مازيق التاريخ جماعة الأطلنطيد فى الأسطورة المزعومة .

« إذن فقد دلنى دنيس على أن الجزء المتوسط من الأطلنطيد ، مهد الأسرة النبتونية ومقرها ، لم يغمر فى الكارثة التى يذكرها أفلاطون والتى ابتلعت باقى جزيرة الأطلنطيد ، ودلنى أيضاً أن هذا الجزء يطابق الحجار الطارقى ، وأن فى عصر دنيس ، على الأقل ، كان من المزعوم أن أسرة نبتون النبيلة تتناسل فى الحجار .

« ويرجع مؤرخو الأطلنطيد تاريخ الطوفان الذى أفنى كل هذه المقاطعة الشهيرة أو جزءاً منها إلى تسعة آلاف سنة قبل الميلاد .

---

(١) كيف وصل كتاب « رحلة إلى الأطلنطيد » إلى مدينة داكس ؟ لم أجد حتى الآن إلا فرضاً واحداً معقولا : ربما استكشفه فى إفريقيا الرحالة دى بيهاجل عضو جمعية روچيه — دوكو الذى تلقى العلم فى كلية داكس وأقام فيها بعد ذلك عدة مرات . (تعليق مسيو لورو .)

إذا كان دنيس دى ميليه الذى كتب من مدة لا تزيد عن ألفى سنة يقرر أن أسرة نبتون كانت لا تزال تفرض قوانينها فى زمانه فستدرك أنت أنه خطرت لى الفكرة التالية : إن ما عمر تسعة آلاف عام يمكن أن يعمر أحد عشر ألفاً . ومنذ تلك اللحظة لم يبق أمامى إلا هدف واحد ، أن أتصل بما يمكن أن يكون حياً من سلالة الأطلنطيد . وإن حدث ، كما كنت أعتقد لعدة أسباب ، أنهم انحدروا وجهلوا مجدهم الأول فسأكشف لهم عن نسبهم المجيد .

« ومن الواضح أننى لم أكشف عن نياتى لرؤسائى الجامعيين : أن أطلب المساعدة منهم بل حتى التصريح ، كان ذلك جديراً من غير شك أن يؤدى بى إلى مستشفى الأمراض العقلية ؛ لما لمسته من ميولهم نحوى . فجمعت بعض النقود وأبحرت إلى وهران دون ما إعلان . فوصلت إلى عين صلاح فى أول أكتوبر . وبينما كنت مستلقياً تحت ظل نخلة فى الواحة أحسست لذة متناهية ، إذ تصورت مدير ليسيه مونت دى مارسان فى هذا اليوم نفسه يحاول جاهداً كالمجنون أن يسكت عشرين طفلا يصخبون أمام باب فصل خال ، ويبعث ببرقيات إلى كل الجهات للبحث عن مدرس التاريخ . »

وتوقف مسيو لميج ونظر إلينا نظرة رضا .

أعترف بأنى انتقصت من كراستى وقتئذ وأصبحت لا أعنى بما كان يبديه من تكلف مستمر بأنه إنما يحدث مورانج وحده .

فقلت :

— المعذرة يا سيدى إذا كان حديثك قد أثار انتباهى أكثر مما كنت أنتظر . ولكن لعلك تعلم جيداً أننى تعوزنى عدة عناصر لأستطيع متابعة حديثك . فقد تحدثت عن أسرة نبتون . ما هى هذه

الأسرة التى أظن أنك تنسبها إلى أنتينيا ؟ وما دورها فى تاريخ الأطلنطيد ؟

فتنزل مسيو لميج بالابتسام وهو ينظر متخاوصاً إلى سورانج الذى كان يصغى إليه دون أن يتحرك أو يفوه بكلمة ، وقد وضع ذقنه فى راحته وأسند مرفقه إلى ركبته .

فقال الأستاذ :

— سيقوم أفلاطون بالاجابة نائباً عنى .

وأضاف فى لهجة إشفاق متناهية :

— أمن الممكن ألا تكون على علم بمبدأ « الكريسياس » ؟

وأخذ من فوق المنضدة المخطوط الذى طالما أثار اهتمام سورانج ، ووضع عوينتيه وجعل يقرأ ، وكأن السحر الأفلاطونى أخذ يهز هذا الشيخ القصير المضحك ويغير من ملامحه . وقال :

« بعد أن اقترع الآلهة على أجزاء الأرض المختلفة كان من نصيب بعضهم القاطعات الكبرى ، ومن نصيب بعضهم الآخر المقاطعات الصغرى . . . وهكذا أحل نبتون ، الذى آلت إليه جزيرة الأطلنطيد ، أولاده الذين أنجبتهم له زوجة آدمية ، مكاناً من هذه الجزيرة . كان هذا المكان سهلا فى وسط الجزيرة غير بعيد عن البحر . ويؤكدون أنه كان من أجمل السهول وأكثرها خصباً . وفى وسط الجزيرة على مسافة خمسين ستاد من هذا السهل كان ثمة جبل . وكان ايفينور يعيش مع امرأته لوسيب ، وهو أحد الرجال الذين نشئوا فى مبدأ الأشياء من الأرض ، وقد أنجبا طفلة وحيدة هى كليتو . كانت فى سن البلوغ حين قضى أبواها نحبهما . وشغف بها نبتون فتزوجها . وجعل حواجز متتالية من الماء واليابس بعضها

صغير والآخر كبير : حاجزين من اليابس وثلاثة من الماء ، وجعلها مستديرة فى وسط الجزيرة بحيث كانت كل أجزائها متساوية . . . »

وقطع مسيو لميج قراءته وسأل :

— ألا يذكرك هذا الوضع بشئ ما ؟

فنظرت إلى مورانج الذى كان غارقاً فى أفكار تتزايد فى العمق .

فألح صوت الأستاذ الواضح النبرات :

— ألا يذكرك بشئ ؟

فتمتمت :

— مورانج . . . مورانج . . . تذكر أمس رحلتنا وخطفنا والممرين اللذين جعلونا نعبرهما قبل الوصول إلى هذا الجبل . . . حواجز من يابس وماء . . . ممران وحاجزان من يابس . . .

فقال لميج :

— هيه هيه !

كان يبتسم وهو ينظر إلى . ففهمت أنه يعنى بابتسامته أننى أقل غباوة مما كان يعتقد .

وقطع مورانج الصمت بعد أن بذل جهداً كبيراً :

— إنى أدرك جيداً . . . إنى أدرك جيداً . . . ثلاثة حواجز من الماء . . . إذن أنت يا سيدى تفترض فى شرحك الذى لا أنكر ما فيه من مهارة . . . تفترض صحة افتراض البحر الصحراوى .

فأجاب الشيخ القصير فى غضب ، وقد ضرب ضربة عنيفة على المكتب :

— أفترضها وأثبتها . أنا أعرف تمام المعرفة معارضة شيرس والآخرين لهذه الفكرة ، وأعرف ذلك أكثر مما تعرف . أعرف كل شئ يا سيدى . وأنا أضع تحت تصرفك كل البراهين . وفى انتظار ذلك ستتمتع على العشاء فى المساء بأكل سمك لذيذ . وستخبرنى إذن عن هذا السمك الذى صيد من البركة التى تستطيع رؤيتها من النافذة هل هو سمك نهرى .

واستمر فى هدوء نسبى :

— ولتفهم جيداً الخطأ الذى وقع فيه من قالوا بوجود الأطلنطيد وحاولوا أن يفسروا ذلك الطوفان الذى غمر الجزيرة الجميلة بأكملها . فلقد قالوا جميعاً بأنه انغمار ، ولكن الواقع أنه لم يكن انغمار من هذا النوع ، وإنما كان انكشاف . لقد انكشفت أراض جديدة من مياه الأطلنطيق وحلت الصحارى مكان البحر . إن الملاحات وبحيرات تريتون والسيرت الرملية هى البقايا الموحشة من المياه المتموجة التى مخرتها قديماً الأساطيل لغزو أتيكا . والرمال تبتلع من المدنية أكثر مما تبتلعه المياه . واليوم لم يبق من الجزيرة الجميلة التى جعلتها البحار والرياح شامخة خضراء إلا هذه الجبال ذات الحرار ، وثبتت وحيدة فى هذا الاناء الصحراوى المنعزل عن عالم الأحياء ، تلك الواحة العجيبة التى تنبسط تحت أقدامكما . هذه الفاكهة الحمراء ، هذا الهدير من الماء ، وهذه البركة الزرقاء ، هى شواهد مقدسة لعصر ذهبى مضى . وأمس مساء وأنتما فى طريقكما إلى هنا عبرتما الحواجز الخمسة : ثلاثة حواجز من الماء التى جفت إلى الأبد وحاجزان اثنان من اليابس يشقهما ممر قطعتماه على ستون الجمال . وقديماً كانت تسير فيه مراكب ذات ثلاثة مجاديف . وقد احتفظ هذا الجبل وحده ،

إبان الكارثة العظيمة ، بما كان عليه وقتئذ من عظمة قديمة . هذا الجبل الذى قصر فيه نبتون حبيبته كليتو ابنة ايفينور ولوسيب ، وأم أطلس ، والجدة الألفية لأنتينيا ، تلك الملكة التى دخلتما فى سلطانها إلى الأبد .

وقال سورانج فى أدب وظرف :

— يا سيدى ، إن الاهتمام الذى سيدفعنا إلى معرفة أسباب هذا الخضوع وغرضه لن يكون إلا طبيعيا للغاية . ولكن أنظر إلى أى حد يثير تصريحك اهتمامى . إنى أرجئ هذا السؤال الشخصى . لقد استكشفت فى هذه الأيام نقشاً تيفيناريا باسم أنتينيا فى كهفين . وبشهد زميلى بأنى رجحت أن يكون اسماً يونانياً . وإنا لأدرك — والفضل فى ذلك يرجع لك ولأفلاطون الالهى — ألا داعى للدهشة إذا ماأطلق اسم يونانى على إحدى البرابرة . غير أن حيرتى فى معرفة أصل هذه الكلمة لا تزال كما هى . أتستطيع أن تفيدنى فى هذا الموضوع ؟

فأجاب مسيو لميج :

— لا أتأخر عن ذلك بكل تأكيد يا سيدى . وبهذه المناسبة أقول إنك لست بأول من ألقى مثل هذا السؤال . إن كثيراً من المستكشفين الذين رأيتهم يدخلون هنا منذ عشر سنوات ، جذبوا بهذه الطريقة ، وهى معرفة هذه الكلمة اليونانية المنقوشة بالخط التيفينارى . وقد قمت بعمل جدول جد دقيق لهذه النقوش والكهوف التى توجد بها ، وكلها أو جلها مرفقة بهذه العبارة : « أنتينيا — هنا تبدأ أملاكها . » أما ما كاد يتلاشى منها فقد أمرت أن يطلى بالأصفر . ولكن لكى نعود إلى ما كنا فيه أولاً أقول : إنه لم يهتم أوربى من هؤلاء الذين جذبهم هذا السر الخطى إلى هنا حين ألفى

نفسه فى قصر أنتينيا بمعرفة أصل الكلمة ؛ فقد شغلهم فى التو شاغل آخر . وبهذه المناسبة فثمة أشياء يمكن أن تقال على قلة الأهمية الفعلية للمسائل العلمية المحضة حتى فى نظر العلماء الذين يضحون بها سريعاً لأمور وضيعة مثل قلقهم على حياتهم .

فقال موراننج وهو لا يزال فى ظرفه المدهش :

— إذا سمحت يا سيدى فلنرجئ الحديث عنها .

— سيدى ليس لهذا الخروج عن الموضوع إلا سبب واحد ، وهو أن أؤكد لك أنى لا أعدك من هؤلاء العلماء غير الجديرين بالثقة . فالحق أنك مهتم بمعرفة أصل هذا الاسم أنتينيا ، وهذا قبل أن تعرف من أى نوع من النساء تلك التى تحمله أو أسباب أسركما أنت والسيد .

فأنعمت النظر فى الشيخ القصير ، غير أنه كان يتحدث وهو مستغرق فى الجد .

فقلت فى نفسى : « هذا حسن لك وإلا ألقيت بك من النافذة لتسخر كما تشاء . لم يتغير من غير شك قانون سقوط الأجسام فى الحجار . »

واستمر مسيو لميج يخاطب موراننج غير مكترث بنظراتى المضطرمة :

— لابد أن تكون — يا سيدى — قد افترضت بعض الافتراضات عن اشتقاق الكلمة عندما وجدت نفسك لأول مرة أمام هذا الاسم أنتينيا . أترى ما يمنع من اطلاعى عليها ؟

فقال موراننج :

— ليس ما يمنع يا سيدى .

وفى رزانة سرد اشتقاقات الكلمة التى تحدثت عنها سابقاً .

وكان الرجل القصير ذو الصدرية الحمراء يفرك يديه . وقال في لهجة فرح شديدة :

— هذا حسن حسن جدا ، أو على الأقل بالاضافة إلى معارفك اليونانية التى لابد أن تكون ضئيلة . على أن كل هذا لا يمنع أن تكون افتراضاتك خاطئة ، خاطئة جدا .

فقال سورانج فى هدوء :

— إنما وجهت إليك هذا السؤال لأنى أشك فى صحتها .

فقال مسيو لميج :

— لن أتركك فى هذا الانتظار المضنى أكثر من ذلك . يتقطع اسم أنتينيا بالطريقة التالية : « تى » وما هو إلا جزء بربرى أدخل على هذا الاسم اليونانى . « إن » هى أداة التعريف للمؤنث فى اللغة البربرية . مثلا ولدينا عدة أمثلة على هذا الامتزاج اسم تيبازا : مدينة فى أفريقيا الشمالية . إن معنى اسمها « الكاملة » وهى مكونة من تى و ναπ ومثلها تينيا ومعناها الجديدة وهى مكونة من تى و έα .

فسأل سورانج :

— والمقطع الأول « أن » ؟

فأجاب مسيو لميج :

— هل يليق يا سيدى أن أجهد نفسى فى الكلام عن « الكريسياس » مدى ساعة لأصل إلى هذه النتيجة المحزنة ؟ يقيناً أنه لا معنى للمقطع « أن » فى ذاته ، ولكن ستدرك أن له معنى حينما أقول لك إننا هنا أمام حالة ترخيم جد غريبة . يجب ألا تقرأ « أن » بل « أطلان » . لقد سقطت « أطل » للترخيم وبقيت « أن » .

وخـلاصة الـكلام أن أنتينيا تنقسم كما يلى : Tί — νέα — ’ατλ — ’Αν ويخرج من هذا الشرح معنى الـكلمة واضحاً وهو « أطلنت الجديدة ».

ونظرت إلى سورانج ، فاذا به فى دهشة لا حـد لها . لقد جعله فى ذهول تام المقطع البر برى « تى » .

وأخيراً تمـكن من أن يقول :

— وهل وجدت فرصة لتتحقق من صحة هذا الاشتقاق الماهر ؟

فقال مسيو لميج فى ازدراء :

— ما عليك إلا أن تلقى نظرة على هذه الـكتب .

وأخذ يفتح على التوالى خمسة فعشرة ثم عشرين صواناً ، فتجمعت بين أيدينا مكتبة عجيبة .

فتمتم سورانج فى نبرة مليئة بالدهش والإعجاب :

— كل شئ ، كل شئ يوجد هنا .

فقال مسيو لميج :

— كل شئ جدير بأن يطلع عليه على الأقل . كل المؤلفـات الـكبيرة التى تأسف على فقدها البيئات العلمية الشهيرة .

— وكيف وجدت هنا ؟

— يا سيدى العزيز إنك بهذا تؤلمنى ، وقد اعتقدت أنك على علم ببعض الأشياء . هل نسيت إذن النص الذى تـكلم عنه بلينوس القديم عن مكتبة قرطاجنة والـكنوز التى كانت مجمعة فيها ؟ لما سقطت المدينة فى سنة ١٤٦ تحت ضربات سيبيون السافل لم تلاق هذه الـكنوز إلا احتقاراً عميقاً من هذه الخليط الفريد من الأميين الذى كان يدعى مجلس الشيوخ الرومانى ، فأهداها إلى الملوك الوطنيين . وهـكذا

تلقى مستنابال هـذا التراث العجيب، ونقل إلى أولاده وحفدته ، هيمبسال ويوبا الأول ويوبا الثـانى زوج كليوباترة سلينيـه العجيبة ابنة كليوباترة العظيمة ومارك أنطوان . وأنجبت كليوباترة سلينيه بنتا تزوجت ملكاً أطلنطيا . وهكذا تُعَدّ انتينيا ، ابنة نبتون ، ملكة مصر الخالدة من أجدادها . وهكذا بحقوق الميراث توجد الآن بين يديك بقايا مكتبة قرطاجنة مزودة ببقايا مكتبة الاسكندرية .

« إن العلم يتهرب من الانسان . فبينما هو يشيد أبراج بابل الضخمة التى تدعى العلم مثل برلين ولندن وباريس اتخذ العلم مكانه فى هذا الركن الصحراوى من الحجار . ولهم أن يفترضوا هنـاك افتراضاتهم عن فقدان مؤلفات العصور القديمة الغامضة . إن هـذه المؤلفات لم تفقد . إنها ها هنا . هنا الكتب العبرية والكلدانية والأشورية . هنا التقاليد المصرية العظيمة التى أوحت إلى سولون وهيرودوت وأفلاطون . هنا رواة الخرافات اليونانيون ومشعوذو أفريقيا الرومانية ، والخياليون الهنود . وبالاختصار كل الكنوز التى يجعل فقدانها من بحوث المعاصرين أشياء ضئيلة مضحكة . صدقنى ! لقد ثأر لنفسه هذا الجامعى الصغير المتواضع الذى اعتقدوه مجنوناً وسخروا منه . فقد عشت وإنى لأعيش ولسوف أحيا وسط رنين متواصل من الضحك أمام معارفهم الخاطئة الناقصة . وحتى بعد وفاتى سيستمر الخطأ بفضل الاحتياطات الشديدة التى اتخذها نبتون ليعزل حبيبته كليتـو عن سائر المعمورة . أصرح لك بأن الخطـأ سيستمر متحكما فى كتاباتهم التى تثير الاشفاق .

فقال سورانج بصوت رخيم :

— لقد أثبتّ تأثير مصر فى مدنية سكان هـذا المكان . ولأسباب

لعل الفرصة تتاح لى لأشرحها لك فى يوم من الأيام ، أطلب أن تثبت لى هذا التأثير .

فأجاب مسيو لميج :

— لا خطر لذلك .

وحينئذ تقدمت بدورى وقلت بلهجة شديدة :

— اسمح لى يا سيدى إن لى كلمتين . لا أخفى عليك أن هذه المناقشات التاريخية تبدو لى فى غير أوانها . وليس من خطئى أن تكون قد أصابتك بعض الكوارث الجامعية أو أنك لم تكن الآن فى الكوليج دى فرانس أو فى أى مكان آخر . ولا يهمنى الساعة إلا شئ واحد ، وهو أن نعرف ماذا نحن فاعلون هنا . . . ماذا أنا فاعل هنا . واهتمامى بأن أعرف ماذا تريد منى هذه السيدة أنتينيا ، يفوق كثيراً اهتمامى بالأصل اليونانى أو البربرى لاسمها . إن زميلى يريد أن يعرف صلاتها بمصر القديمة : هذا حسن جدا . ولكن من ناحيتى أنا أريد أن أقف بخاصة على العلاقات التى تربطها بحكومة الجزائر الرئيسية والمكاتب العربية .

فأطلق مسيو لميج ضحكة مدوية وأجاب :

— سأوافيكما بجواب يرضيكما أنتما جميعاً .

وأضاف :

— اتبعانى . . . لقد آن لكما أن تعرفا .

الفصل العاشر

قاعة المرمر الأحمر

تبعنا مسيو لميج فاجتزنا ما لا حصر له من الدرج والممرات . وتمتمت إلى سورانج :

— إننا نفقد شعور الاتجاه فى هذا التيه .

فرد عليّ رفيقى فى صوت خافت :

— إننا نفقد عقلنا بخاصة . إن هذا الشيخ المجنون عالم كبير بلا ريب ، غير أن الله وحده يعلم إلام يرمى ، ولكنه قد وعدنا أننا سوف نعرف .

كان مسيو لميج قد توقف عن السير أمام باب كبير مظلم نقشت عليه إشارات غريبة وفتح الباب بعد أن فتح القفل وقال :

— أيها السيدان تفضلا .

ومست وجهينا نفحة نسيم باردة . كان الجو السائد فى الحجرة التى دخلناها جو قبو حقا .

ولم تسمح لى الظلمة أول الأمر أن أقدر تقديراً صحيحاً مساحتها . كانت الأضواء التى أرادوا أن تكون ضئيلة تتألف من اثنى عشر مصباحاً نحاسيا ضخما تكوّن أعمدة مركزة على الأرض وترسل لهباً أحمر كبيراً . ولما دخلنا رجّحت ريح الممر هذا اللهب فحرك لحظة فيما

حولنا ظلالنا التى تضخمت وتشوهت بشكل غريب . ثم هدأت النسمة واستقام اللهب ، وثبتت مرة أخرى فى الظلمات مناقيرها الحمراء .

وكانت هذه المصابيح الاثنا عشر الضخمة (يبلغ كل منها ثلاثة أمتار فى الارتفاع) مرتبة على هيئة تاج ، قطره خمسون قدماً على أقل تقدير . وبدا لى فى وسط التاج كومة مظلمة يتخللها ضوء أحمر مرتعش . ولما دنوت منها تبينت نافورة . وكان ماؤها البارد يحافظ على الجو الذى تحدثت عنه .

كانت هناك مقاعد ضخمة طبيعية ، نحتت فى الصخرة المتوسطة حيث كانت تتدفق النافورة المظلمة ذات الخرير ، وكانت على المقاعد وسائد حريرية . وكان اثنا عشر مصباحاً أخرى ترسم فى وسط التاج ذى اللهب الأحمر تاجاً آخر قطره نصف الأول . لم نكن نرى فى الظلمة دخانها يتصاعد نحو القبوة . غير أن هذه الأضواء المتهافتة بامتزاجها مع برودة الماء وخريره ، كانت تقتل فى النفس كل رغبة غير رغبة المكوث هنا إلى الأبد .

وأجلسنا مسيو لميج فى وسط القاعة على المقاعد الضخمة واتخذ هو لنفسه مكاناً بيننا ، وقال :

— ستعتاد أعينكما الظلمة بعد لحظات .

ولاحظت أنه يتكلم بصوت خافت كأنما هو فى معبد .

وقد أخذت أعيننا شيئاً فشيئاً تعتاد بالفعل هذا الضوء الأحمر . لم يكن مضاء من الحجرة إلا الجزء الأسفل منها .

كان القبو غارقاً فى الظلام . ولا يستطيع أحد أن يقدر مدى ارتفاعه . ولمحت فى غموض ، فوق رءوسنا ، ثريا كبيرة ينعكس على

ذهبها كما ينعكس على سائر الأشياء ضوء خافت أحمر . ولكن لم يكن ثمة شئ يسمح بتقدير طول السلسلة الحديدية التى تعلقها بالسقف المظلم .

كان البلاط المرمرى براقاً ، حتى لقد كانت المشاعل الكبيرة تنعكس فيه .

وأكرر أن هذه القاعة كانت مستديرة استدارة تامة ، وكان قطرها النافورة التى كنا نوليها ظهورنا .

كنا إذن نواجه الجدران المستديرة . ولم يكن إلا قليل حتى صارت هذه الجدران قيد أنظارنا . وهاهو ذا ما كان يجعل هذه الجدران عجيبة أخاذة : كانت مقسمة إلى كوى مظلمة متتالية تكوّن خطا أسود لا يقطعه إلا هذا الباب الذى فتح ليسمح لنا بالمرور ، وباب آخر كان خلفنا كأنه حفرة أكثر سواداً لمحته فى الظلام حين استدرت . وقد أحصيت ستين كوة فيما بين البابين ، فيكون مجموعها عشرين ومائة كوة . ويبلغ ارتفاع كل منها نحو ثلاثة الأمتار ، وعرضها متراً . وكل منها تحتوى على مايشبه الصندوق أعلاه أعرض من أسفله ومغطى فى جزئه الأسفل فقط . وقد بدا لى فى هذه الصناديق كلها ما عدا اثنين فى تجاهى ، شكل لامع ذو هيئة بشرية بلا شك ،شئ أشبه بتمثال من نحاس باهت . وأحصيت فى قوس الدائرة أمامى ثلاثين من هذه التماثيل .

ما هى هذه التماثيل ؟ أردت أن أتبين أمرها فنهضت .

ووضع مسيو لميج يده على ذراعى وقال بصوت خافت :

— بعد قليل . بعد قليل .

كانت نظرات مسيو لميج مسددة نحو الباب الذى دخلنا منه

والذى كنا نسمع من ورائه الآن وقع خطوات أخذت تزداد وضوحاً . وفُتح الباب فى صمت ، فسح الطريق لثلاثة طوارق بيض يحمل اثنان منهم على عاتقيهما لفة طويلة . وبدا لى أن الثالث هو الرئيس . وضعا اللفة على الأرض حسب تعليماته ، وأخرجا من إحدى الكوات التى تكلمت عنها ، الصندوق الطويل الذى تحتوى كل كوة على واحد مثله .

وحينئذ قال لنا مسيو لميج :

— يمكنكما أن تقتربا أيها السيدان .

وباشارة منه تراجع الطوارق الثلاثة بعض الخطوات .

وقال مسيو لميج مخاطباً مورانج :

— لقد طلبت إلىّ منذ هنيهة أن أقدم لك دليلا على الأثر المصرى فى هذه البلاد . فما ذا ترى فى هذا الصندوق أولا ؟

وأشار وهو يقول هذه الكلمات إلى الصندوق الذى كان الخدم قد حطوه على الأرض بعد أن أخرجوه من كوته .

فأرسل مورانج صوت دهشة مكتومة .

فقد كان أمامنا أحد هذه الصناديق المخصصة لحفظ الموميات . الخشب اللامع نفسه ، والألوان الصارخة نفسها ، مع هذا الفارق البسيط وهو أن الحروف التيفينارية حلت محل الحروف الهيروغليفية . وكانت فى هيئتها بضيقها من أسفل واتساعها من أعلى كافية لأن تنبئنا بما هيئت له .

لقد سبق أن قلت إن الجزء الأسفل لهذا الصندوق الكبير مغطى مما جعله كشكل حذاء مستطيل .

وجثا مسيو لميج ووضع على الجزء الخارجي من الصندوق مستطيلا

من الورق الأبيض المقوى ، وهو بطاقة عريضة كان قد أخذها من على مكتبه منذ لحظات حين كان يزايل المكتبة .

وقال فى بساطة ولكن فى خفوت كعادته :

— يمكنكما أن تقرآ .

فجثوت أنا أيضاً ؛ إذ كان ضوء الشمعدانات الكبيرة لا يسمح بقراءة البطاقة إلا بصعوبة . ولكنى تبينت خط الأستاذ .

كانت البطاقة تحمل هذه الكلمات البسيطة بخط كبير مستدير :

« رقم ٥٣ . الميجر سير أرشيبلد راسل . ولد فى ريشموند يوم ٥ يوليو سنة ١٨٦٠ . توفى فى الحجار يوم ٣ ديسمبر ١٨٩٦ .

فوثبت قائماً وصحت :

— الميجر راسل ؟

فقال مسيو لميج :

— خفض من صوتك ! خفض من صوتك ! ليس لامرئ أن يرفع صوته هنا .

فكررت وأنا أطيع هذا الأمر بالرغم منى :

— الميجر راسل الذى رحل فى السنة الماضية من الخرطوم ليستكشف السوكوتو ؟

فقال الأستاذ :

— هو بعينه .

— وأين الميجر راسل ؟

فأجاب لميج :

— إنه هنا .

وأتى الأستاذ بحركة ، فاقترب الطوارق البيض .

وأطبق صمت رهيب على الحجرة الغامضة لا يعكره إلا خرير النافورة .

وأخذ السود الثلاثة يحلون رباط اللفة التى كانوا قد وضعوها حين دخولهم بالقرب من الصندوق الملون . كنا نشهد ما يجرى وقد أثقل كواهلنا رعب لا يوصف .

وبعد قليل ظهرت هيئة متخشبة ، هيئة بشرية وسطع عليها بريق أحمر . فقد تمدد على الأرض أمامنا تمثال من البرونز الشاحب ملفوف فى حرير أبيض ، كان تمثالا مثل باقى التماثيل الجامدة فى كواتها ، والتى تبدو كأنها تنظر إلينا نظرة لا ندرك لها كنها .

وتمتم مسيو لميج ببطء :

— السير أرشيبلد راسل .

واقترب مورانج صامتاً ، ومكنته قواه أن يرفع النقاب الحريرى وحدق طويلا فى التمثال البرونزى الكئيب .

ثم قال :

— مومياء ، مومياء . إنك مخطئ يا سيدى ليس هذا بمومياء .

فأجاب مسيو لميج :

— لا . . . ليس هذا بمومياء على أصح تعبير . ولكنها فعلا جثة سير أرشيبلد راسل التى هى بين أيديكما . ويجب علىّ فعلا يا سيدى العزيز أن ألفت نظرك إلى أن طرق التحنيط المتبعة عند أنتينيا تختلف عن الطرق المستعملة فى مصر القديمة . هنا لا يستعمل النطرون ولا الشرائط ولا الروائح العطرية . لقد بلغت صناعة الحجار دفعة واحدة حدا لم تبلغه العلوم الأوربية إلا بعد تجارب طويلة . وما كان أشد دهشتى حين وصلت إلى هنا ولاحظت أنهم يتبعون طريقة كنت أعتقدها معروفة فقط للعالم المتمدن وحده .

وضرب مسيو لميج بسبابته المنثنية ضربة خفيفة على جبهة سير أرشيبلد راسل الكابية ، فدوى رنين معدنى .

فتمتمت :

— إنه برونز . ليست هذه بجبهة بشرية . إنها برونز .

فهز مسيو لميج كتفيه وأكد فى لهجة قاطعة :

— إنها جبهة بشرية لا برونز . إن البرونز أشد قتامة يا سيدى. هذا المعدن هو المعدن المجهول الذى يتحدث عنه أفلاطون فى « الكريسياس » والذى يحتل مكاناً وسطاً بين الذهب والفضة . إنه المعدن الخاص بجبل الأطلنطيد . إنه الأوريشلك .

فزدت فى انحنائى فتحققت أن هذا المعدن هو نفس المعدن الذى يغطى جدران المكتبة . واستمر مسيو لميج قائلا :

— إنه الاوريشلك . يخيل إلى أنكما لا تدركان كيف يمكن أن يبدو جسد بشرى على هيئة تمثال من الاوريشلك . كابتن مورانج ، أنت الذى كنت أعتقد أنك على بعض العلم ، ألم تسمع قط عن طريقة الدكتور فاريو لحفظ الجثث بدون تحنيط ؟ ألم تقرأ قط كتاب (١) هذا الطبيب ؟ إنه يبسط فيه طريقة الطلاء بالكهربا . تغطى الأنسجة الجلدية بطبقة خفيفة جدا من أملاح الفضة لجعلها موصلا للكهربا . ثم تغمس الجثة فى محلول كبريتات النحاس ، ثم تفعل الكهربا فعلها . وقد تم طلاء جثة هذا الميجر الانجليزى المحترم بالطريقة نفسها . إنها الطريقة عينها مع استبدال كبريتات الاوريشلك المعدن النادر بكبريتات النحاس . وهكذا تريان بدل تمثال حقير من

---

(١) فاريو : « طلاء البشر بالكهربا » ، باريس ١٨٩٠ (تعليق مسيو لورو .)

النحاس تمثالا من معدن أثمن من الذهب والفضة ، وباختصار تمثالا جديراً بحفيدة نبتون .

وأبدى مسيو لميج حركة ، فأمسك العبيد السود بالجثة . وفى لحظات كانوا قد وضعوا الشبح الأوريشلكى فى صندوقه الخشبى الملون . ووقف الصندوق ووضع فى الكوة بجانب كوة أخرى حيث يحمل صندوق آخر شديد الشبه به البطاقة رقم ٥٢ .

وبعد أن انتهوا من عملهم ، انسحبوا دون أن ينبسوا ببنت شفة . وعاد هواء الباب البارد فرجرج لهيب المشاعل النحاسية وجعل يرقص حولنا أشباحا كبيرة .

كنا مورانج وأنا قد ظللنا جامدين مثل الأشباح التى من المعدن الشاحب المحيطة بنا . وفجأة بذلت مجهوداً واقتربت وأنا أترنح من الكوة المجاورة لتلك التى وضعت فيها رفات الميجر الانجليزى ، وبحثت عيناى عن البطاقة رقم ٥٢ واستندت إلى مرمر الجدار الأحمر فقرأت :

« رقم ٥٢ . الكابتن لوران دلينى . ولد فى باريس يوم ٢٢ يوليه سنة ١٨٦١ . توفى بالحجار يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٩٦ . »

فتمتم مورانج :

— الكابتن دلينى رحل عام ١٨٩٥ من كولومب بيشار إلى تيميمون ثم انقطعت أخباره .

فقال مسيو لميج وقد أبدى حركة من رأسه تدل على الموافقة :

— بالضبط .

وقرأ مورانج وأسنانه تصطك :

« رقم ٥١ . الكولونيل فون ويتمان . ولد فى يينا عام ١٨٥٥ . توفى بالحجار فى أول مايو ١٨٩٦ . » الكولونيل ويتمان مستكشف

كانم ، اختفى فى ناحية أجاديس .

وقال مسيو لميج مرة أخرى :

— بالضبط .

وقرأت بدورى وأنا متعلق بالجدار حتى لا أسقط :

« رقم ٥٠ . المركيز أولنز دوليفيرا . ولد فى قادس يوم ٢١ فبراير ١٨٦٨ . توفى بالحجار فى أول فبراير ١٨٩٦ . » أوليفيرا الذى كان يتجه نحو أروان .

واستمر مسيو لميج يقول :

— بالضبط . كان هذا الأسبانى من العلماء المجدين ، وكانت لى معه مناقشات مسلية على المركز الجغرافى الحقيقى لمملكة أنتينيا .

وقال مورانج وقد أصبح صوته همساً :

« رقم ٤٩ . الملازم وودهاوس . ولد فى ليفربول يوم ١٦ سبتمبر ١٨٧٠ توفى فى الحجار يوم ٤ أكتوبر ١٨٩٥ . »

فقال مسيو لميج :

— إنه يكاد يكون طفلا .

وقلت :

« رقم ٤٨ . الملازم لويس دى مايفو . ولد فى بروفانس فى يوم . . . »

لم أتم القراءة إذ اختنق صوتى من الانفعال .

لويس دى مايفو أعز أصدقائى ، صديق طفولتى فى سان سير وفى كل مكان . ونظرت إليه وعرفته تحت الطبقة المعدنية . لويس دى مايفو ! . . .

وأخذت أبكى طويلا وجبهتى ملصقة بالجدار البارد وكتفاى

ترتعدان . وسمعت صوت مورانج المضطرب وهو يخاطب الأستاذ :

— يا سيدى ! إن هذا المنظر قد دام مدة كافية ؛ فلننته منه .

فقال مسيو لميج :

— إنه أراد أن يعرف . فماذا أفعل ؟

ودنوت منه وأمسكت بكتفيه :

— كيف أتى إلى هنا ؟ وبأى شئ مات ؟

فأجاب الأستاذ :

— كما مات الآخرون ، كما مات الملازم وودهاوس ، وكما مات الكابتن ، دليني والميجر راسل ، والكولونيل فون ويتمان ، والسبعة والأربعون بالأمس وكما سيموت غيرهم غداً .

فقال موراج بدوره فى لهجة آمرة :

— وبأى شئ ماتوا ؟

ونظر الأستاذ إلى موراج . ورأيت لون صديقى يعروه الشحوب .

— بأى شئ ماتوا يا سيدى ؟ « لقد ماتوا حبا . »

وأضاف فى صوت أجش خافت :

— والآن قد عرفتما .

وأبعدنا مسيو لميج عن نظرات التماثيل الجامدة فى رقة وعناية . . . لم نكن لنعهد فيه هذا . وما هى إلا لحظة حتى ألفينا أنفسنا ، أنا وموراج ، جالسين أو بالأحرى متهالكين بين الوسادات فى وسط القاعة . وكانت أذين شكاية تتردد تحت أقدامنا .

وكان مسيو لميج بيننا . فعاد يقول :

— والآن قد عرفتما . . . لقد عرفتما غير أنكما لما تفهما .

ثم فى صوت جد بطئ أرسل هذه الكلمات :

— إنكما أسيرا أنتينيا كما كانوا . ولأنتينيا أن تثأر لنفسها .

فقال سورانج وقد عاوده الهدوء :

— تثأر لنفسها ! ولماذا من فضلك ؟ ماذا فعلنا الملازم وأنا للأطلنطيد ؟ وكيف أحفظناها ؟

فأجاب الأستاذ فى تجهم :

— ثأر قديم . . . قديم جدا . . . إنه ثأر لا يمكن أن تدرك كنهه يا مسيو سورانج .

— أرجو أن توضح ما تقول يا سيدى الأستاذ .

وقال مسيو لميج بصوت يخالطه التفكير :

— إنكما الرجال ، وهى المرأة . . . المسألة هنا .

— حقا يا سيدى لست أفهم . لسنا نفهم جيداً .

— ستفهمان . . . أنسيتما حقا إلى أى حد كانت ملكات البرابرة الجميلات يشكون من الأجانب الذين دفعتهم الأقدار إلى بلادهن؟ لقد عبر فيكتور هوجو الشاعر على وجه التحقيق عن أفعالهم الكريهة فى مقطوعته المسماه « ابنة أوتايتى » . ومهما يكن من إيغال ذكرياتنا فى الماضى فإننا لانرى إلاضروباً متماثلة من الاغتصاب والجحود. كان هؤلاء السادة يستغلون جمال السيدة وثروتها إلى حد بعيد ، ثم يختفون فى يوم ما . وتكون هى سعيدة إن لم يعد هذا المخلوق بسفن وقوات للاحتلال .

فقال سورانج :

— إن علمك يدهشنى . استمر .

— أتريد أمثلة ؟ إنها كثيرة جدا مع الأسف . تذكر المعاملة

الجافية التى عامل بها أوليس كاليبو ، وديوميد كاليروييه . وماذا تقول فيما صنع ثيسيوس مع أريان ؟ كان جازون مع ميديه مستهتراً كل الاستهتار. وقد انتهج الرومان هذه العادات ولكن بوحشية أكثر . أما إينيوس الذى يشبه كثيراً سبارديك المحترم ، فقد عامل ديدون معاملة جد قبيحة ؛ وكان قيصر لكليوباترة الالهية كأنه وحش قذر . وأخيراً تيتس، تيتس المنافق ، بعد أن قضى سنة فى إيدوميا عالة على بيرينيس ، ألم يعد بها إلى روما لينكل بها أعنف التنكيل ؟ لقد حان الوقت ليؤدى أولاد يافث إلى بنات سام هذا الدين الضخم المؤجل من الاهانات .

« لقد وقفت امرأة لتبعث لصالح بنات جنسها قانون هيجل الكبير الخاص بالذبذبات . وهى فى معزلها عن عالم الآريين بفضل احتياطات نبتون الهائلة ، تجذب إليها الرجال الشبان الأقوياء . فجسدها قريب ميسور ، ولكن روحها بعيدة عسيرة . وهى تأخذ من هؤلاء الشبان الشجعان كل ما يستطيعون أن يبذلوه . إنها تبذل لهم جسدها ولكنها تسيطر عليهم بروحها . إنها أول ملكة لم يستعبدها الحب ، ولو لحظة واحدة . لم يحدث قط أن استعادت سلطانها لأنها لم تستسلم قط . إنها المرأة الوحيدة التى نجحت فى التفريق بين هذين الشيئين الذى لا فارق بينهما : الحب والشهوة .

وسكت مسيو لميج هنيهة ثم قال :

— إنها تأتى مرة كل يوم إلى هذه المقبرة ، وتقف أمام هذه الكوى ، وتفكر أمام هذه التماثيل الجامدة ، وتلمس هذه الصدور الباردة التى عرفتها ملتهبة . ثم بعد أن تحلق حالمة حول الكوة الفارغة حيث سيرقد قريباً و إلى الأبد شخص فى غلافه الأوريشالكى البارد، تعود فى غير ما اكتراث إلى من ينتظرها .

وتوقف الأستاذ عن الكلام . وسمع صوت النافورة مرة أخرى في وسط الظلمة . كان نبضي يدق ورأسي يغلي . كنت أشعر بحمى شديدة . وصحت :

— وكلهم . . . كلهم . . . غير مكترثين بالمكان ، رضوا ، أطاعوا . . آه . . . فلتأتي وسترى .

كان مورانج قد لزم الصمت . ثم قال مسيو لميج في صوت رقيق :

— يا سيدي العزيز ! إنك تتكلم كالأطفال . إنك لا تعرف شيئاً . إنك لم تر أنتينيا . فلتقل لنفسك هذا : إنه كان بين هؤلاء — وبحركة مستديرة أشار إلى كل التماثيل الصامتة — رجال شجعان مثلك ، ولربما كانوا أقل اضطراباً منك . أحدهم وهو الذي يرقد تحت البطاقة رقم ٣٢ ، كان — وإني أذكر جيداً — انجليزيا بارداً ، كان يدخن سيجارة لما ظهر أمام أنتينيا وانحنى يا سيدي العزيز كالآخرين أمام نظرات سيدته .

« لا تتكلم مادمت لم ترهـا . إن المركز الجامعي يسمح قليلا بأن نتنافس في الحب . وسأكون متكلفاً لو أخبرتك من هي أنتينيا . إني أؤكد لك هذا فقط : وهو أنك عندما تراها ستنسى كل شيء : الأسرة ، الوطن ، الشرف ، كل شيء ، ستنكر كل شيء من أجلها .

وسأل مورانج بصوت هادئ جداً :

— كل شيء يا سيدي ؟

فأكد مسيو لميج بقوة :

— كل شيء . ستنسى كل شيء . ستنكر كل شيء .

وارتفع من جديد صوت ضجة خفيفة .

فنظر مسيو لميج فى ساعته وقال :

– وعلى كل حال ستريان .

وفتح الباب ودخل طارق أبيض ضخم ، أضخم ممن رأيناهم فى هذا المنزل المخيف . دخل واتجه نحونا .

ولمس ذراعى فى خفة بعد أن انحنى .

فقال مسيو لميج :

– اتبعه يا سيدى .

فأطعت دون أن أنبس ببنت شفة .

الفصل الحادى عشر

أنتيذيا

واجتزنا أنا ورائدى ممرا آخر . وأخذ اضطرابى الشديد يتزايد . لم أكن متعجلا إلا لأقف أمام هذه المرأة ، لأقول لها . . . وعلى كل حال كنت قد ضحيت بحياتى .

كنت مخطئاً إذ رجوت أن أرى هذه المغامرة تأخذ مظهر البطولة؛ فليست أنواع المغامرات فى الحياة محددة . كان يجب أن أتذكر بوساطة عدة تفاصيل مضت ، أن المهزلة تمتزج فى هذه المغامرة بانتظام مع المأساة .

ولما وصلنا أمام باب صغير أبيض انزوى رائدى ليسمح لى بالدخول .

فألفيت نفسى فى أترف قاعات الزينة . كان السقف من الزجاج المشطوف يرمى على الأرض المرمرية ضوءا ورديا ذا بهجة . وكان أول ما رأيت ساعة معلقة على الحائط وقد استبدلت بأرقامها أبراج فلكية . كان العقرب الصغير لما يصل إلى برج الحمل . . .

الساعة الثالثة . الثالثة فقط .

كان النهار قد بدا لى طويلا كأنه قرن . . . ولم أكن قد قضيت منه إلا ما يزيد قليلا على نصفه .

ثم جالت بخاطرى فكرة أخرى ، وهزتنى ضحكة عصبية .
« إن انتينيا تريد أن أقدّم لها بكل محاسنى . »

وثمة مرآة من الأوريشلك تحتل ركنا كاملا من الحجرة . وإذ ألقيت نظرة عليها تحققت أن زعمى لم يعد الواقع .

كانت لحيتى الشعثة والطبقة البشعة من الأوساخ التى تحيط بعينىّ وتنحدر فى قنوات على خدى ، وملبسى الذى لطخ بجميع أنواع الطين الصحراوى ومزق بجميع أنواع أعشاب الحجار — كل هذا جعل منى فارساً بائساً جدا .

فبادرت بخلع ملابسى والنزول فى الحوض المرمرى الذى يتوسط حجرة الزينة . واعترانى تخدير لذيذ فى الماء المعطر الدافىء ، وتراقصت أمامى نحو ألف من الآنية الصغيرة التى كانت منتشرة على منضدة الزينة الخشبية المحفورة . كانت الأوانى من جميع الأحجام والألوان منحوتة من حجر شبيه باليشب شفاف للغاية . وهدّأت رطوبة الجو اللذيذة من ثورة أعصابى ، واستطعت أن أحدث نفسى قائلا :

— ليأخذ الشيطان الأطلنطيد والمقبرة ومسيو لميج .

وغفوت وأنا أستحم .

ولما فتحت عينى من جديد كان عقرب الساعة الصغير قد بلغ برج الثور أو يكاد . وكان يقف أمامى عبد ضخم عارى الوجه والذراعين ، وعلى جبهته عمامة ضخمة برتقالية اللون . كان يضع يديه السوداوين على حافة الحوض وينظر إلىّ وهو يضحك ضحكة صامتة تكشف عن أسنانه البيض جميعاً .

— وما هذا الشخص الفريد ؟

فازداد العبد ضحكاً . وفى صمت أمسك بى ورفعني كأنى ريشة

إلى خارج الماء المعطر الذى أصبح فى لون لا أحب أن أخبرك به .

وفى لمحة بصر وجدت نفسى ممدداً على منضدة مائلة من المرمر .

وأخذ العبد يدلكنى بقوة .

— آه مهلا يا حيوان !

لم يرد علىّ مدلكى ، ولكنه أخذ يضحك ويدلكنى تدليكاً أقوى.

— من أين أنت ؟ من الكانم ؟ من بركو ؟ لست طارقيا لأنك تضحك كثيراً .

الصمت نفسه . كان هذا العبد أبكم بقدر ما هو ضحوك .

وقلت لنفسى فى يأس :

— على كل حال هذا غير مهم . إنى أجده كما هو أظرف من مسيو لميج بعلمه الثقيل . يا لله ! ياله من غنيمة عظيمة لحمام شارع الماتورين !

— سيجارة يا سيدى .

وأدخل فى فمى سيجارة وأشعلها دون أن ينتظر جوابى ، وأخذ يكبسنى من كل جانب . فقلت فى نفسى :

— إنه قليل الكلام ولكنه مؤدب .

وأرسلت فى وجهه نفخة دخان .

وبدا لى أن هذه الدعابة قد راقته ، وسرعان ما أظهر سروره بأن منحنى ضربات قوية .

ولما انتهى من تدليكى كما ينبغى تناول من منضدة الزينة إناء صغيراً وجعل يدهن جسمى بدهن وردى ، فخيل إلىّ أن الاعياء قد زايل أعضائى التى عاد إليها نشاطها .

وعند ضربة من مقرعة على جرس نحاسى اختفى مدلكى ، ودخلت

زنجية عجوز قصيرة القامة تغطى جسمها بأقمشة ذات ألوان صارخة. كانت ثرثارة جدا . ولكن لم أفهم فى بادئ الأمر كلمة واحدة من الكلام الذى لا نهاية له والذى كانت تلقيه فى سرعة عجيبة ، وقد استحوذت على يدىّ ثم قدمىّ وأخذت تثقل أظافرها وعلى وجهها عبوس جاد .

ورن الجرس مرة أخرى ، فأخلت الزنجية مكانها لعبد آخر ، مظهره جدى عليه ثياب بيض ، ويضع على رأسه المستطيل طاقية من القطن المنسوج . كان هو الحلاق . كان صناعاً . وأسرع فى قص شعرى قصا حسناً جدا ، ثم حلق لحيتى كلها دون أن يسألنى أأفضل حلقة بعينها .

فتأملت فى سرور وجهى الذى بدا واضحاً تمام الوضوح ، وقلت لنفسى :

— لابد أن تكون أنتينيا تستطيب النوع الأمريكى . . . إنها إهانة تلحقها بذكرى جدها الوقور نبتون !

ودخل العبد المرح فى اللحظة نفسها ووضع ربطة على الأريكة ، واختفى الحلاق . فأخذنى بعض الدهش ؛ إذ لاحظت أن الربطة التى حلها بعناية خادمى الجديد كانت تحتوى على رداء من الصوف الأبيض يشبه كل الشبه الرداء الذى يلبسه الضباط الفرنسيون فى الجزائر فى الصيف .

وبدا السروال الواسع اللين كأنه صنع خصيصاً لى . وكانت السترة خالية من العيوب ، وكانت تحمل (وهذا ما ملأنى دهشاً) شريطين متحركين من الذهب — وهى علامة رتبتى العسكرية — ممسكين بخيوط مجدولة على كل جانب من الكمين . ولقدمى زوجان من البابوج من الجلد المراكشى الأحمر مطرزان بالذهب . وخيل إلىّ

ن الملابس الداخلية الحريرية قد أحضرت رأساً من شارع لابيه .

فتمتمت وأنا أتأمل نفسى راضياً فى المرآة :

— كان العشاء لذيذاً والمسكن منظما للغاية . نعم ! ولكن هناك أشياء أخرى .

ولم أتمكن من أن أقف رعدة بسيطة عندما فكرت لأول مرة فى قاعة المرمر الأحمر .

ودقت الساعة الخامسة والنصف فى اللحظة نفسها .

وطرق بابى فى خفة وظهر على العتبة الطارقى الأبيض الضخم الذى كان يقودنى .

وتقدم منى ولمسنى مرة أخرى وأومأ إلىّ فتبعته .

وعدنا فأخذنا طرقات طويلة . كنت منفعلا ولكنى كنت قد لمست شيئاً من الطمأنينة فى الماء الدافئ ، وكنت أشعر بفضول أخذ يزداد كثيراً جدا أكثر مما كنت أعترف به لنفسى . هل كنت أقبل فى تلك اللحظة لو أنه عرض علىّ أن أقاد مرة أخرى حتى طريق السهل الأبيض بالقرب من شيخ صلاح ؟ لا أظن ذلك .

وأخذت أؤنب نفسى على هذا الفضول . وفكرت فى ما يفو .

هو أيضاً سلك الممر الذى أسلكه فى هذه اللحظة . والآن هو هناك فى قاعة المرمر الأحمر . ولم أجد من الوقت ما يسمح لى باطالة هذه الذكرى . وفجأة كأن صخرة دفعتنى ارتميت أرضاً . وكان الممر مظلما فلم أر شيئاً ، ولكنى سمعت صيحة استهزاء .

كان الطارقى الأبيض قد انزوى جانباً وقد ألصق ظهره بالجدار .

فتمتمت وأنا أنهض :

— حسن . . . ها هى ذى ألعاب الشياطين تبدأ .

وتابعنا طريقنا ، وبعد قليل أخذ وميض آخر غير وميض المصابيح الوردية يضئ الممر .

وهكذا وصلنا إلى باب عال من البرونز تتخلله هنا وهناك ثقوب مضيئة . ورن جرس رنيناً واضحاً ، ففتح المصراعين وأغلقهما خافى الطارقى الذى بقى فى الممر .

وخطوت بطريقة آلية بضع خطوات فى القاعة التى دخلتها منفرداً ثم توقفت جامدا فى مكانى ويدى على عينى .

لقد بهرنى ضوء النهار الذى طلع علىّ .

كان قد مضى علىّ من الساعات العديدة فى الأضواء المتهافتة ما جعل ضوء النهار ، الذى كان يدخل قويا من أحد جوانب القاعة ، علىّ غريباً .

كانت القاعة تقع فى الجزء الأسفل من هذا الجبل ، وتتعرج فيها ممرات ومماش أكثر مما نجده فى هرم مصرى . كانت تبدو كأنها تتمة الحديقة التى كانت فى مستواها والتى رأيتها فى الصباح من نافذة المكتبة . كان الانتقال غير ملموس . فبينما كانت البسط تمتد تحت النخيل العالى كانت الطيور تحلق بين أعمدة القاعة التى تشبه الغابة .

وكان التباين يسبغ عليها ظلمة فى الجزء الذى لا يسقط فيه ضوء الواحة . وكانت الشمس وهى تنحدر فى أفولها وراء الجبل تضفى لوناً ورديا على حصى الممرات ولوناً أحمر كالدم على تمثال الطير المقدس الذى على شاطئ البركة الصغيرة الزرقاء ، رافعاً قدمه . وفجأة للمرة الثانية تدحرجت على الأرض . كان جسم ثقيل قد سقط على كتفى ، وشعرت بملمس حريرى على عنقى وتنفس حار على قفاى .

ودوّى من جديد فى اللحظة نفسها صوت الاستهزاء الذى أقلقنى إلى الغاية فى الممر .

وتخلصت بحركة جانبية ، وضربت بيدى فى الهواء تجاه المعتدى على . دوى الصوت مرة أخرى معبراً عن الألم والغضب هذه المرة .

وكان صداه ضحكة طويلة . فنهضت واقفاً باحثاً بعينى عن هذا السفيه لأنتقم منه . وحينئذ جمد نظرى ، جمد تماما .

كانت أنتينيا أمامى .

وفى أقل أركان القاعة ضوءاً ، وكان ثمة مايشبه القبو الذى كان يسطع فيه ضوء صناعى بنفسجى يتساقط من الاثنتى عشرة نافذة ذات الزجاج الملون ، كانت أربع نساء مضطجعات على كومة من الوسائد الملونة والبسط الفارسية البيضاء الثمينة .

فعرفت فى الثلاث الأول نساء طوارق ذوات جمال رائع حسان القسمات يرتدين قمصاناً من الحرير مزركشة بالذهب . وكانت الرابعة وهى خمرية اللون أقرب إلى السواد ، أصغرهن سنًّا ، وكان قميصها الحريرى الأحمر يزيد من لونها الأسود ، لون وجهها وذراعيها وقدميها العاريتين . كان النساء الأربع جميعاً يحطن بهذا البرج من البسط البيضاء التى يعلوها جلد أسد ضخم كانت تتكئ عليه أنتينيا .

أنتينيا ! ما من مرة رأيتها إلا ساءلت نفسى هل أمعنت النظر فيها ؟ لأنى كنت كلما رأيتها اعترانى الاضطراب ؛ إذ أراها أحسن مما كنت رأيتها من قبل . أحسن ! كلمة فقيرة ، ولغة فقيرة . ولكن أهذا ذنب اللغة أم ذنب من يتشدقون بهذه الكلمة ؟

ما من أحد يستطيع أن يمثُل فى حضرة هذه المرأة دون أن يتذكر

من أخضع لها إفراكتوس الأطلس ، ومن اغتصب لها صابور الحكم من أوز يمونداس ، ومن نكل لها ماميلوس سوز وتنترس ، ومن هرب بسببها أنطوان . . .

أيها القلب البشرى الخفاق ! لئن كان وجيبك قد اشتد
لقد كان ذلك حين معانقتها المتسامية الحارة .

كان المنديل المصرى يتدلى على خصل شعرها الكثيفة الزرقاء لشدة سوادها . وكان طرفا هذا القماش الثقيل المزركش يتدليان على متنيها إلى أعلى رِدْفَيْها الثقيلين . وكان يكتنف جبهتها الصغيرة المقببة العنيدة ثعبان ذهبى ذو عينين من الزمرد مخرجاً فوق رأس المرأة الشابة لسانه المزدوج من الياقوت .

كانت ترتدى قميصاً أسود مزركشا بالذهب رقيقاً فضفاضاً يجمعه قليلا وشاح حريرى أبيض ، مطرز باللؤلؤ الأسود .

هكذا كان رداء أنتينيا . أما هى . . . فماذا كانت تحت هذا اللباس الفتان ؟ كانت فتاة هيفاء ذات عينين واسعتين خضراوين ووجه كوجه باز صغير ، كأنما هى الإله أدونيس أو ملكة سبأ طفلة . ولكن كان لها نظرة وابتسامة لم تعهد قط فى امرأة شرقية : فهما آية من السخرية وقلة الاكتراث . أما جسم أنتينيا ، فما كنت أراه . حقا أن هذا الجسم الرائع ما كنت لأفكر فى النظر إليه حتى لو أحسست القوة فى نفسى على ذلك . ولعل هذا هو أغرب ما شعرت به فى أول مرة . ومجرد التفكير فى ضحايا قاعة المرمر الأحمر ، فى الخمسين شابا الذين احتضنوا هذا الجسم النحيف ، كان

ى نظرى ، فى تلك اللحظة التى لا تنسى ، من أشد الأشياء انتهاكاً للحرمات .

ورغم قميصها المفتوح فى اجتراء على جانبها ، وثدييها المكشوفين ، وذراعيها العاريتين وتلك الظلال الغامضة التى تتراءى تحت خمارها ، كانت هذه المرأة ، رغم مايسند إليها من فظائع ، قد نجحت فى أن تبدو طاهرة ، بل عذراء .

كانت فى هذه اللحظة مغرقة فى الضحك الذى استولى عليها حينما تدحرجت على الأرض بين يديها .

ونادت :

— هيرام الملك . . .

فالتفتّ ورأيت خصمى .

على تاج أحد الأعمدة ، وعلى ارتفاع عشرين قدماً من الأرض كان يتعلق فهد جميل جدا ، تدل نظرته على شدة الغضب من اللكمة التى صوبتها نحوه .

فكررت أنتينيا نداءها :

— هيرام الملك ! تعال هنا .

فوثب الحيوان كأنه « زنبرك » فصار فى تلك اللحظة رابضاً تحت قدمىّ سيدته . ورأيت لسانه الأحمر يلعق عرقوبيها الدقيقين العاريين .

وقالت المرأة الشابة :

— سل السيد المغفرة .

فنظر إلىّ الفهد نظرة حقد : تغضن جلد وجهه الأصفر حول شاربه الأسود .

ثم عوى كما يعوى قط كبير .

فقالت أنتينيا بحزم :

— هلم !

فزحف الحيوان الصغير نحوى آسفاً . وفى انكسار وضع رأسه بين قدميه وانتظر .

فربتُّ على جبهته الجميلة .

وقالت أنتينيا :

— يجب ألا تحقد عليه . إنه هكذا مع الغرباء فى أول الأمر .

فقلت ببساطة :

— لابد أن يضجر كثيراً .

كانت هذه أول كلماتى ؛ فبعثت ابتسامة على شفتى أنتينيا . وحدجتنى بنظرة طويلة هادئة ، ثم قالت مخاطبة إحدى النساء الطوارق :

— عجيدة ستعدين خمسة وعشرين جنيهاً ذهبيا لصغير ابن شيخ .

وسألتنى بعد لحظة صمت :

— هل أنت ملازم ؟

— نعم .

— من أين أنت ؟

— من فرنسا .

فقالت فى تهكم :

— كنت أستطيع الشك فى ذلك . ولكن من أية مقاطعة فى فرنسا ؟

— من مقاطعة تسمي اللوت وجارون .

— من أى مكان فى هذه المقاطعة ؟

— من دوراس .

ففكرت لحظة :

— دوراس . يجرى هناك نهير يدعى الدربت ويوجد قصر كبير عتيق .

فتمتمت فى دهشة :

— أتعرفين دوراس ؟

فاستمرت قائلة :

— يصلون إليها من بوردو على طريق خط حديدى صغير . فهو طريق ذو عدوتين عاليتين فيه تلال مليئة بالكروم ، وتتوّجه أطلال من عصر الإقطاع . إن للقرى أسماء جميلة . . . مونسيجور ، سوفتير دى جويين ، لاترين ، كريون . . . كريون كمافى « أنتيجونا » .

— أذهبتِ إلى هناك ؟

فنظرت إلىّ وقالت فى شئ من التهكم :

— لا تتكلف الكلام معى ! ستضطر إلى رفع الكلفة قريباً أو بعيداً . فابتدئ من الآن .

وملأنى هذا الوعيد فى التو بسعادة فائقة . ففكرت فى حديث مسيو لميج : « لا تتكلم ما دمت لم ترها ، وعندما تراها ستنكر كل شئ من أجلها . »

واستمرت تقول فى ضحكة رنانة :

— تسأل أذهبت إلى دوراس ؟ إنك تمزح . أتتخيل حفيدة نبتون فى ديوان من دواوين الدرجة الأولى على خط حديدى من الخطوط الداخلية ؟

ومدت يدها فأشارت إلى الصخرة الضخمة البيضاء التى كانت تسيطر على نخيل الحديقة ، وقالت فى وقار :

— إنها كل أفقى .

وتناولت كتاباً من الكتب الملقاة حولها على جلد الأسد وفتحته بلا قصد وقالت :

— إنه دليل السكك الحديدية الغربية . ما أعجبها قراءة لامرئ لا يتنقل . إن الساعة الآن الخامسة والنصف مساء . لقد وصل قطار ركاب منذ ثلاث دقائق إلى سرجير فى الشارنت السفلى ، وسيرحل منها بعد ست دقائق ، وبعد ساعتين سيصل إلى لاروشيل . إنه لغريب أن نفكر هنا فى تلك الأشياء . يا لها من مسافات ! ويالها من حركة ! ويا له من ركود !

فقلت :

— إنك تتكلمين الفرنسية بطلاقة .

فأرسلت ضحكة عصبية قصيرة وقالت :

— إننى مضطرة إلى ذلك . والألمانية أيضاً والايطالية والانكليزية والأسبانية . إن ظروف حياتى هى التى جعلتنى أتكلم لغات كثيرة . غير أنى أوثر الفرنسية على لغة الطوارق بل على العربية نفسها . بل يخيل إلىّ أننى كنت دائماً أعرفها . وثق أننى لا أقول ذلك لأرضيك .

وساد الصمت . ففكرت فى جدتها التى قال عنها بلوتارخ : « ما أقل الأمم التى كانت تحتاج للتفاهم معها إلى مترجم ! كانت كليوباطرة تكلم الأحباش والتروجلوديت والعبريين والعرب والسوريين والميديين والبارتيين بلغاتهم . »

— لا تقف هكذا جامداً فى وسط القاعة . إنك تؤلمنى . . . تعال هنا إلى جانبى . افسح المكان يا سيد هيرام الملك .

فأذعن الفهد فى ضجر .

وأمرتنى :

— ناولنى يدك .

كان بالقرب منها كأس كبيرة من العقيق . فأخذتْ خاتماً من الأوريشلك فى غاية البساطة ، وألبستنيه فى بنصر اليسرى .ورأيتها لابسة مثله :

— تانيت زرجا ! قدمى إلى السيد دى سانت أفيت كوباً من شراب ماء الورد .

فأسرعت الفتاة السوداء ذات الرداء الحريرى الأحمر .

وقدمتها أنتينيا إلى :

— إنها كاتمة سرى الخاصة . الآنسة تانيت زرجا من جاو على نهر النيجر . إن أسرتها عريقة مثل أسرتى .

قالت ذلك وهى تنظر إلىّ . كانت نظرات عينيهـا الخضراوين تثقل علىّ . وسألتنى فى صوت خافت :

— ورفيقك الكابتن إننى لم أعرفه بعد . كيف هو ؟ هل يشبهك؟

وحينئذ ولأول مرة أثناء وجودى بالقرب منها فكرت فى مورانج ولم أُحر جواباً .

فابتسمت أنتينيا ، واضطجعت على جلد الأسد ، فانكشفت ساقها اليمنى .

وقالت فى سأم :

— لقد آن لى أن أذهب إليه . سأصدر إليك أوامرى عما قليل .

تانيت زرجا شيعيه وأريه حجرته أولاً . لابد أنه لا يعرفها . فنهضتُ وتناولت يدها لأقبلها . فضغطت بها شفتى بقوة لتشعرنى بسلطانها علىّ .

أنا الآن فى الممر المظلم . كانت الفتاة ذات الرداء الأحمر تسير أمامى ، ثم قالت :

— هاهى ذى حجرتك .

ثم أضافت :

— والآن إذا أردت فسأقودك إلى حجرة الطعـام حيث يجتمع الآخرون هناك للعشاء .

كانت تتكلم الفرنسية .

— لا يا تانيت زرجا . لا ! أفضـل أن أبقى هنا هذا المساء . لست بجائع . إننى متعب .

فقالت :

— إنك تتذكر اسمى .

وبدت فخوراً بذلك . وأحسست أنها ستكون لى حليفة إذا لزم الأمر .

— إننى أذكر اسمك يا تانيت زرجا الصغيرة لأنه جميل (١) .

وأضفت :

— والآن دعينى يا صغيرتى ؛ لأنى أريد أن أخلو إلى نفسى .

كانت تطيـل بقـاءها بالحجرة . وكـنت قد تأثرت من ذلك وتضايقت وتملكنى شوق شديد إلى التأمل فى نفسى .

---

(١) تانيت معناها منبع و كلمة زرجا مؤنث أزرق فى اللغـة البربرية (تعليق مسيو لورو .)

وقالت :

— إن حجرتى فوق حجرتك . على هذه المنضدة يوجد جرس نحاسى . فما عليك إلا أن تقرعه إذا احتجت إلى شئ ، فيحضر طارق أبيض .

انشرح صدرى لحظة لهذا الارشاد . كنت فى فندق فى جوف الصحراء ، ولم يكن علىّ إلا قرع الجرس ليحضر الخادم .

فتأملت حجرتى . حجرتى ! إلى متى ستبقى حجرتى ؟

كانت قاعة فسيحة جدا : وسائد وأريكة ومضجع منحوت فى الصخر ، كل ذلك تضيئه نافذة واسعة يجللها ستار من القش .

وتوجهت نحو هذه النافذة ، ورفعت الستار ، فدخلت أشعة الشمس الغاربة . واتكأت على المسند الصخرى وذهنى ملىء بأفكار غامضة . كانت النافذة ناحية الجنوب وترتفع عن الأرض نحو ستين متراً ، وكان الجدار البركانى يمر من تحتها أسود أملس .

وكان يرتفع أمامى جدار آخر على بعد نحو كيلومترين . كان هو أول حواجز « الكريسياس » الأرضية . ثم لمحت وراءه على بعد منه الصحراء الحمراء المترامية الأطراف .

الفصل الثانى عشر

مورانج يستيقظ ويختفى

كنت متعباً إلى حد أننى نمت دون انقطاع إلى اليوم التالى . واستيقظت حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر .

وفى الحال فكرت فى حوادث الليلة السابقة ، ولم ألبث أن وجدتها عجيبة جدا .

وقلت فى نفسى :

— فلنعمل فى انتظام . يجب أولاً استشارة مورانج .

وفضلا عن ذلك كنت أشعر بشهية عظيمة .

كان الجرس الذى نبهتنى إليه تانيت زرجا فى متناول يدى ؛ فقرعته، فظهر طارقى أبيض فأمرته قائلا :

— قدنى إلى المكتبة .

فأطاع . وأدركت وأنا أجتاز من جديد هذا التيه من الدرج والممرات أننى لن أستطيع مواصلة السير مطلقاً دون إرشاد .

كان مورانج فى المكتبة يطالع مخطوطاً باهتمام .

فقال لى :

— بحث مفقود للقديس أوبتات . آه ! لو أن دوم جرانجر كان حاضراً . . . أنظر : خط بريشة الاوزة .

فلم أجب . وكان ثمة على المنضدة بجوار المخطوط شىء استرعى انتباهى فى الحال . كان خاتماً من الاوريشلك يطابق تمام المطابقة الخاتم الذى أعطتنيه أنتينيا فى الليلة السابقة ، ذلك الخاتم الذى كانت تضعه فى أصبعها .

وابتسم سورانج . فقلت :

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك ؟

— هل رأيتها ؟

فأجاب سورانج :

— لقد رأيتها بالفعل .

— إنها لجميلة حقا . أليس كذلك ؟

فأجاب رفيقى :

— إنه من الصعب أن أنكر ذلك ، بل أعتقد أن فى استطاعتى أن أؤكد أنها ذكية بقدر ماهى جميلة .

وساد الصمت . كان سورانج يدير فى هدوء الخاتم الأوريشلكى بين أصابعه . وسألت :

— أتعرف ما سيكون مصيرنا هنا ؟

— أعرف ! لقد أوضحه لنا مسيو لميج فى عبارات غامضة وخرافية . إنها مغامرة خارقة حقا .

وسكت ثم قال وهو يصوب إلىّ نظره :

— إن ندمى لعظيم إذ جذبتك إلى هذا المكان . وثمة شىء واحد يخفف من عظيم ندمى ، وهو إنك تستقبل الأمور فى استسلام منذ مساء أمس .

ترى من أين استمد سورانج علمه بالنفس الانسانية ؟ لم أجبه ، مقدماً له بذلك أحسن دليل على صحة رأيه .

وأخيراً تمتمت :

— ماذا اعتزمت أن تفعل ؟

فأغلق المخطوط واستراح على أحد المقاعد وأشعل سيجاراً ثم أجابنى بهذه العبارات :

— لقد فكرت مليًّا فى الأمر ، واستكشفت خط سيرى بشئ من الحيلة . إنها يسيرة لا تحتمل المناقشة .

« إن المشكلة بالقياس إلىّ تختلف كل الاختلاف بالقياس إليك ؛ وذلك لصفتى الدينية التى — أعترف بذلك — قد أحيط بها . نعم ! إننى لما أقرر نذرى . ولكن علاوةً على أنه محرم على ، كما جاء بالوصية التاسعة ، أن يكون لى صلات بامرأة ليست زوجاً لى ، أعترف بأنه ليس عندى أى ميل إلى هذا النوع من العمل الذى من أجله تفضّل صغير بن شيخ فاختارنا .

« يجب أن ألاحظ أن حياتى ليست ملكاً لى ، ولا أستطيع أن أتصرف فيها كأى مستكشف حر يسافر فى سبيل أهداف تخصه وعلى نفقته الخاصة . إن علىّ مهمة أتممها ونتائج أحققها . فلو استطعت أن أستعيد حريتى بعد أن أدفع ضريبة المرور الغريبة المعتادة هنا لقبلت أن أُرضى أنتينيا فى حدود طاقتى . وأنا أعرف جيداً عقلية الكنيسة الواسعة وخاصة عقلية الجماعة التى أريد أن أنضم إليها . إن تصرفى سيظفر فى الحال برضاهم . ومن يدرى ! لعله يظفر بموافقتهم . إن القديسة مريم المصرية أسلمت جسدها للنوتية فى ظرف شبيه بظرفى ، ولم تجن من فعلتها إلا التمجيد . وقد فعلت ما فعلت لأنها كانت

على يقين بالوصول إلى غايتها المقدسة . كانت الغاية تسوغ الوسيلة .

« ولكن فيما يخصنى لا أجد شيئاً مماثلا . فاذا ما استسلمت لنزوات هذه المرأة الغريبة فلن يمنعنى هذا أن أصبح ، بعد قليل ، فى قاعة المرمر الأحمر تحت رقم ٥٤ ، أو ٥٥ إذا أرادت أن تقصدك أنت أولا . وفى هذه الأحوال . . .

— فى هذه الأحوال ؟

— فى هذه الأحوال لن يغتفر لى الاذعان لمشيئتها .

— وماذا اعتزمت أن تفعل ؟

— ما اعتزمت أن أفعل ؟

وأسند سورانج رأسه إلى المقعد وأرسل نحو السقف نفثة دخان وابتسم ثم قال :

— لا شئ وهذا يكفى . إن الرجل يتفوق بلا شك على المرأة فى هذا المضمار . فبفضل تكوينه الطبيعى يستطيع أن يواجهها برفض استماع ؛ أما المرأة فلا .

وأضاف وهو ينظر نظرة ساخرة :

— لا يُكره المرء إلا بارادته .

فخفضت رأسى .

واستمر فى حديثه :

— لقد جربت مع أنتينيا كل وسائل علم المنطق الرفيع دون جدوى . وقلت حين استنفدت كل حيلة : « ولم لا يكون مسيو لميج ؟ » فجعلت تضحك وأجابت : « ولم لا يكون القس سباردك . إن مسيو لميج وسباردك عالمان أقدّرهما . ولكن :

اللعنة الأبدية على ذلك الحالم الفارغ
الذى أراد أولا ، لغباوته
أن يدخل الشرف فى مسائل الحب
وقد شغف بمشكلة عقيمة لا تحل .

« ثم أضافت وهى تبتسم ابتسامة فاتنة حقا : « يضاف إلى ذلك أنه من المحتمل أنك لم تتأمل كليهما جيداً . » ثم أعقب ذلك ببعض المديح على شكلى ، فلم أوفق للرد عليه ؛ لأن أبيات بودلير الأربعة كانت قد فعلت فىّ فعلها .

« وتفضلت فقالت لى أيضاً : « إن مسيو لميج عالم مفيد لى . إنه يعرف الأسبانية والايطالية وينظم أوراقى ويبذل جهده ليرقب نسبى الالهى . أما القس سباردك فهو يعرف الانكليزية والألمانية . والكونت بيلوفسكى يعرف تماماً اللغات السلافية . ويضاف إلى ذلك أنى أحبه كأنه والد . لقد عرفنى طفلة فى وقت كنت لا أفكر فيه فى السخافات التى تعرفها . إننى فى حاجة إليهم فى الصلات التى يمكن أن تنشأ بينى وبين زائرىّ من ذوى الجنسيات المختلفة ، مع أنى قد بدأت أتكلم أية لهجة أنا فى حاجة إليها . . . على أن هذا كله لغو باطل . وهذه أول مرة أسوغ فيها مسلكى . صديقك ليس فضوليا مثلك . » ثم صرفتنى . حقا أنها لامرأة عجيبة . أعتقد أنها من أتباع رينان ولكنها اِلفَتْ أكثر من أستاذها أمور الشهوات .

وقال مسيو لميج فجأة وهو مقبل علينا :

— أيها السيدان ! ماذا تنتظران ؟ إننا فى انتظاركما للعشاء .

وكان الأستاذ فى هذا المساء بخاصة معتدل المزاج ، وكان يلبس

وساماً جديداً بنفسجيا .

فسألنا فى مرح :

— أرأيتماها ؟

لم يجبه أحد منا ، لا مورانج ولا أنا .

كان القس سباردك وقائد جيتومير قد بدآ يتناولان العشاء عندما وصلنا . وكانت الشمس فى انحدارها تسبغ على الحصير الأصفر لوناً فروليا .

وقال مسيو لميج :

— اجلسا يا سيدىّ . لم تكن أيها الملازم دى سانت أفيت بيننا أمس مساء . ستأكل لأول مرة من طعام كوكو طاهينا البمبارى . وستنبئنى برأيك .

ووضع أمامى خادم أسود سمكة عظيمة فى حمرة الطماطم تبرز من صلصة معالجة بالبهار .

سبق أن قلت إننى كدت أموت جوعاً . وكان الطعام طيباً ، وسببت لى الصلصة عطشاً فى الحال . وهمس قائد جيتومير وهو يملأ كوبى بشراب فاخر أزرق :

— حجار أبيض ١٨٧٩ . إننى أعنى به شخصيا . لا شئ فى الرأس ، كل شئ فى السيقان .

أفرغت كوبى دفعة واحدة ، وأخذ الحنل يبدو لى طريفاً .

وصاح مسيو لميج فى زميلى الذى كان يأكل سمكته فى لذة وتؤدة :

— هيه كابتن مورانج ما رأيك فى هذا ؟ لقد صيدت اليوم من بحيرة الواحة . هل أخذت تقبل فرض وجود البحر الصحراوى ؟

فقال رفيقى :

— إن هذه السمكة لدليل عليه .

وصمت فجأة ، فقد فتح الباب ودخل طارق أبيض ملثم ، فلزم من على المائدة الصمت . وتقدم الرجل الملثم فى تؤدة من مورانج ولمس ذراعه الأيمن .

فقال مورانج :

— حاضر .

ونهض وتبع الرسول .

كانت زجاجة الحجار ١٨٧٩ بينى وبين الكونت بيلوفسكى ، فملأت منها كأسى ، وسعته نصف لتر ، وأفرغتها .

ونظر إلىّ القائد نظرة كلها عطف .

وقال مسيو لميج وهو يهمز مرفقى :

— إن أنتينيا تحترم نظام الطبقات .

فعلت وجه القس سباردك ابتسامة كلها حياء .

فكرر مسيو لميج :

— هيه هيه !

كان كوبى فارغاً ، وقد شعرت فى تلك اللحظة برغبة فى إلقائه على وجه حامل إجازة التاريخ ، غير أنى ملأته وأفرغته ثانية .

وقال الأستاذ وقد ازداد دعابة وهو يتناول قطعة كبيرة من اللحم :

— لن يتذوق مسيو مورانج لحم الضأن هذا إلا بقلبه .

فقال القائد فى ضجر :

— لن يندم على ذلك ؛ إذ ليس هذا لحما محمراً ، بل هو قرون خرفان . حقا أن كوكو قد أخذ يسخر منا .

فأجاب مسيو لميج بصوته الحاد :

— فلتلم الأب على ذلك ؛ إذ طالما نصحت إليه أن يبحث عن أنصار لتعاليمه الدينية غير طاهينا .

فقال الأب سباردك فى وقار :

— يا سيدى الأستاذ !

فصاح مسيو لميج الذى بدا لى فى تلك اللحظة أنه ثمل قليلا :

— أصر على احتجاجى .

واستمر قائلا وهو يلتفت نحوى :

— وأنا أحكّم السيد . إن السيد قادم جديد ، ليس عنده أى تحيز ، فلنسأله . أيكون لشخص ما الحق فى أن يشوش على أفكار طاه بمبارى بملء مخه طيلة النهار بمناقشات دينية ليس لديه أى شىء يهيئه لها ؟

فأجاب القس فى حزن :

— وا أسفاه ، ما أشد خطأك ! إنه لشديد الميل إلى المجادلات .

وقال القائد :

— إن كوكو كسلان ينتهز فرصة وجود هذا الهوجنوت ليمتنع عن العمل ويترك اللحم يحترق .

وصاح وهو يملأ الأكواب للجميع :

— ليحى البابا .

فاستأنف مسيو سباردك حديثه فى كثير من الوقار :

— أؤكد لكم أن هذا البمبارى يقلقنى . أتعرفون إلى أين وصل الآن فى تعليمه ؟ إنه ينفى الوجود الحقيقى . ها هو ذا على قيد أصبعين

سن أخطاء زوينجل وإيكولوسباد . إن كوكو ينفى الوجود الحقيقى .
فقال مسيو لميج وقد اشتد هياجه :
— يا سيدى ! يجب أن ندع المكلفين بأمر المطبخ فى هدوء . هكذا كان يفهم يسوع الذى أعتقد أنه كان لاهوتيا بقدر ما أنت لاهوتى ، والذى لم يخطر بباله أن يصرف مارتا عن مخابزها ليقص عليها سخافات .
فوافق القائد قائلا :
— بالضبط .
كان يضع بين ركبتيه جرة يحاول أن يفتحها .
فهمس لى بعد أن نجح فى فتحها :
— أضلاع مشوية . . . أضلاع مشوية . الأكواب . . . انتباه !
واستمر القس فى قوله وهو يعبّ كوبه فى حزن :
— كوكو ينكر الوجود الحقيقى .
وهمس فى أذنى قائد جيتومير قائلا :
— آه ! دعهما وشأنهما. ألا ترى أنهما قد ثملا حقا ؟
كان هو أيضاً قد ثقل لسانه ولقى مشقة فى ملء كوبى إلى آخره تقريباً .
وشعرت برغبة فى إبعاد الجرة . ولكن خطرت ببالى فكرة :
« فى تلك اللحظة مورانج . . . مهما قال . . . إنها جد جميلة جدا ! »
وحينئذ جذبت الكوب إلىّ وأفرغته مرة أخرى .
كان مسيو لميج والقس فى تلك اللحظة متعثرين فى أعجب المناقشات الدينية يتقاذفان الكتب مثل « كتاب الصلاة العامة» و « تصريح حقوق الانسان » . وأخذ القائد يعلو عليهم بوصفه نبيلا شيئاً فشيئاً

كان قد ثمل حتى بكى إلا أنه احترم نفسه ، بفضل تفوق التربية على التعليم .

كان الكونت بيلوفسكى قد شرب خمسة أضعاف ما شرب الأستاذ والقس ، ولكن احتماله للنبيذ كان قدر احتمالهم عشر مرات .

وقال باشمئزاز :

— فلندع هؤلاء السكارى . هلم يا صديقى العزيز ، إن زملاءنا ينتظروننا فى قاعة اللعب .

قال القائد وهو يدخل القاعة :

— سيداتى سادتى . . . اسمحوا لى أن أقدم لكم زميلا جديداً ، صديقى السيد الملازم دى سانت أفيت .

وتمتم فى أذنى :

— دعنى أفعل . إنهم خدم المنزل . . . ولكنى أتخيل . . . إنك تفهم .

فرأيت أنه كان ثملا جدا .

كانت قاعة اللعب ضيقة طويلة . وثمة منضدة واسعة بمستوى الأرض تحيط بها وسائد اضطجع عليها نحو اثنى عشر من الوطنيين ، وعلى الجدار صورتان تشهدان على حسن التوفيق فى اختيارهما : « القديس جان باتيست » لدفنتشى ، و « الرصاصة الأخيرة » لألفونس دى نيفيل .

وكان على المنضدة أكواب من الفخار ، وجرة ثقيلة مملوءة بالعرقى .

وجدت بعض من أعرف بين الحاضرين : سدلكى ، ومقلمة الأظافر والحلاق واثنان أو ثلاثة من الطوارق البيض أماطوا لثمهم وأخذوا

يدخنون — فى رزانة — غلايينهم ذات الأغطية النحاسية ، وقد استغرقهم جميعاً لعب الورق . ويدا لى أنهم يلعبون الرامز فى انتظار ما هو أحسن . وكان من بين الحاضرين اثنتان من وصيفات أنتينيا الجميلات عجيدة وسيدة . كانت بشرتاهما الخمريتان الناعمتان تلمعان تحت القماش الشفاف الموشى بالفضة . وقد ساءنى ألا أرى رداء الصغيرة تانيت زرجا الأحمر . وعدت أفكر فى سورانج ، ولكن للحظة قصيرة .

وأمر القائد قائلا :

— كوكو ! الفيش . . . لم نكن هنا لنلهو .

فوضع أمامه الطاهى الزوينجلى صندوقاً من الفيش المتعدد الألوان . وأخذ الكونت بيلوفسكى على عاتقه أن يعدها ويقسمها أكواماً صغيرة ، كل ذلك فى وقار بالغ .

وأخذ يشرح لى :

— البيضاء تساوى جنيهاً ذهبيا ، والحمراء مائة فرنك ، والصفراء خمسمائة ، والخضراء ألف . آه ! اعلم أننا نلعب هنا لعباً جهنميا . وعلى كل سترى بنفسك .

وقال الطاهى الزوينجلى :

— آخذ البنك بعشرة آلاف .

فقال القائد :

— اثنى عشر ألفاً .

فقالت سيدة التى كانت تجلس على إحدى ركبتى الكونت ، والابتسامة تعلو وجهها ، وهى توزع الفيش أكواماً صغيرة :

— ثلاثة عشر ألفاً .

وقالت روزيتا العجوز السوداء مقلمة الأظافر بصوتها الحاد :

— خمسة عشر ألفاً .

فأعلن القائد :

— سبعة عشر .

فأنهى الطاهى قائلا :

— عشرين ألفاً .

وضرب بمطرقته وهو يرمينا بنظرة تحد :

— عشرين ! إنى آخذ البنك بعشرين ألفاً .

فأبدى القائد حركة تدل على الضجر :

— كوكو العفريت ! لا ينفع شئ مع هذا الحيوان . ستضطر أن تلعب لعباً حامياً يا سيدى الملازم .

وجلس كوكو متحفزاً فى نهاية المنضدة ،وأخذ يفنط الورق بمهارة أدهشتنى . فتمتم القائد فى زهو :

— لقد قلت لك : كما عند أنّا ديليون .

وصاح الأسود :

— أيها السادة ! اختاروا لعبكم ، أيها السادة اختاروا لعبكم .

وقال بيلوفسكى :

— تمهل يا حيوان ! إنك ترى الأكواب فارغة ، هلم إلينا يا كاكمبو .

وفى الحال ملأ المدلك الضحوك الأكواب .

وقال كوكو مخاطباً سيدة الطارقية الحسناء التى كانت على يمينه :

— اقطعى الورق .

فقطعت الغادة بيدها اليسرى كأى شخص يعتقد فى الخرافات . على أنه لا بد أن نقول إن يدها اليمنى كانت مشغولة بالكأس التى

كانت ترفعها إلى شفتيها . ورأيت نحرها الدقيق الكابى ينتفخ .

فقال كوكو :

— سأوزع الورق .

كنا فى أمكنتنا هكذا : إلى اليسار القائد وعجيدة التى كان القائد يطوق خصرها بذراعه فى ظرف أرستقراطى ، وكاكمبو ، وامرأة طارقية ، ثم اثنان من السود الملثمين وقوران ومتيقظان للعب ؛ وإلى اليمين سيدة وأنا والعجوز روزيتا مقلمة الأظافر ، وياروف الحلاق ، وامرأة طارقية أخرى ، واثنان من الطوارق البيض فى وقار وانتباه مواجهين للأسودين اليساريين .

وقال القائد :

— أطلب ورقاً .

أبدت سيدة حركة سلبية .

فجرى كوكو وأعطى ورقة ذات أربعة للقائد وأخذ هو ورقة ذات خمسة .

فأعلن بيلوفسكى :

— ثمانية .

وقالت الحسناء سيدة :

— ستة .

فقذف كوكو :

— سبعة .

وأضاف ببرود :

— ليدفع بعضكم لبعض .

فقال القائد :

— ألعب « بارولى » .

وحذا حذوه كاكمبو وعجيدة . أما من جانبنا فقد كنا متحفظين وبخاصة مقلمة الأظافر التى كانت لا تخاطر إلا بعشرين فرنكاً فى كل مرة .

فقال كوكو وهو ثابت الشعور :

— أطلب تساوى الطرفين .

فقال الكونت مغتاظاً :

— إن هذا الشخص لا يحتمل . خذ . أمسرور أنت ؟

فوزع كوكو ورمى ورقة ذات تسعة .

فصاح بيلوفسكى :

— الشرف والوطن . كان معى ثمانية . . .

أما أنا ، وكان معى شيخان ، فلم أظهر ضجرى . وأخذت روزيتا الورق من يدى .

ونظرت يميناً إلى سيدة . كان شعرها الأسود المتكاثف يغطى كتفيها ، حقا لقد كانت جميلة جدا وثملة كسائر الحضور المدهشين . فنظرت إلىّ هى أيضاً ، ولكن فى خفية كأنها حيوان خجول . فقلت فى نفسى :

— آه ! لابد أنها خائفة بعض الشئ . مكتوب على جبهتى : صيد محجوز .

فلمست قدمها ، فجذبتُها فى خوف .

وسأل كوكو :

— من يريد ورقاً ؟

فأجاب القائد :

— ليس إياى .

وقالت سيدة :

— مستغنية .

فسحب الطاهى أربعة وصاح :

— تسعة .

فقال الكونت :

— إنها الورقة التى كانت مقدرة لى . خمسة ، كان معى خمسة ، آه ! لو لم أكن قد وعدت قديماً جلالة الامبراطور نابليون الثالث ألا أسحب خمسة . هناك لحظات من الصعب . . . وها هو ذا العبد الذى تخيل نفسه شارلمان .

وبالفعل كان كوكو ينهض فى وقار بعد أن جمع ثلاثة أرباع الفيش وقال يحيى الحاضرين :

— إلى الغد أيها السادة .

فصاح قائد جيتومير :

— اذهبوا جميعاً . ابق معى يا سيد دى سانت أفيت .

ولما صرنا وحيدين صب لنفسه كأساً كبيرة من الخمر ، وكان سقف القاعة مختفياً خلف الدخان الرمادى .

وسألت :

— كم الساعة الآن ؟

— الثانية عشرة والنصف . أتتركنى هكذا يا ولدى ، يا ولدى العزيز ؟ إنى حزين حزين .

كان يبكى بكاء مرًّا ، وكانت أذيال ردائه على الأريكة من خلفه ترفرف كأنها أجنحة خضراء .

وقال وهو مستمر فى البكاء :

— أليست عجيدة جميلة ؟ إنها تذكرنى بالكونتيس دى تيرويل ولكنها أسمر منها قليلا . الكونتيس دى تيرويل الجميلة . مرسيديس التى كانت تستحم عارية فى بيارتز أمام صخرة العذراء فى يوم كان فيه الأمير بسمارك على القنطرة . ألا تتذكر ؟ مرسيديس دى تيرويل

فهززت كتفى .

— حقا أنى نسيت ، إنك كنت صغيراً جدا . سنتين أو ثلاث سنوات . كنت طفلا . نعم كنت طفلا . . . آه يا ولدى ! أأعيش فى تلك الأزمان ثم أضطر إلى لعب الميسر مع متوحشين ! يجب أن أقص عليك . . .

فنهضت ونهرته .

فتوسل إلىّ قائلا :

— ابق ! ابق ! سأحدثك بكل ما تريد . سأقص عليك ما تريد . كيف أتيت إلى هنا . أشياء لم أفض بها إلى شخص آخر . ابق ! إنى أشعر برغبة فى أن أفتح قلبى لصديق صدوق . سأحدثك بكل شئ إنى أثق بك . إنك فرنسى نبيل . أعلم أنك لن تعيد عليها شيئاً .

— لن أعيد عليها شيئاً ؟ على من ؟

— على . . .

وتعثر صوته . وخيل إلى أنى ألمس فيه رعدة الخوف .

— على من ؟

فتمتم :

— عليها . . . على أنتينيا .

فعدت وجلست .

الفصل الثالث عشر

قصة قائد جيتومير

كان الكونت كازمير قد وصل إلى هذا الحد الذى يتخذ فيه السكر هيئة الوقار.

وروّأ لحظة وبدأ يسرد عليّ هذه القصة التى آسف ألا أستطيع أن أعيد تماماً عباراتها القديمة اللذيذة.

« — عندما يبدأ شجر المسك فى حدائق أنتينيا يزدهر سأكون قد بلغت الثامنة والستين من عمرى. إنه لشئ محزن يا ولدى العزيز أن أجدنى قد أسرفت فى شبابى. وليس من الحق أن الحياة بداءة مستمرة. ما أمر الحياة على شخص عرف التويلرى سنة ١٨٦٠ وانزلق إلى الحضيض الذى أنا فيه.

« ذات مساء، قبل الحرب بقليل (أذكر أن فيكتور نوار كان لا يزال حيا) أظهر بعض النساء الجميلات وسأخفى أسماءهن (أقرأ بين حين وآخر أسماء أبنائهن فى أخبار المجتمع فى جريدة « الجولوا ») أقول أظهر بعض النساء لى الرغبة فى الجلوس إلى أشخاص يحملون وشاحات حقيقية، فقدتهن إلى سهرة راقصة فى « الجراند شوميير ». كان الحاضرون من اللصوص والغانيات والطلبة، وكانوا يرقصون « الكانكان » فى وسط المحل بطريقة تكاد تخلع الثريا من السقف. واسترعى انتباهنا شاب

قصير أسمر اللون يرتدى حلة ردنجوت زرية المنظر وسروالا ذا مربعات لا تثبته بطبيعة الحال أية حمالة . كان أحول العين ، وله لحية بشعة وشعر مترب كالعربات العتيقة السود . وكانت خطواته فى الرقص غريبة جدا . ورغبت السيدات أن يعرفهن باسمه ، فقال : ليونيه جمبيتا .

« يا له من شقاء حينما أفكر أنه كان يكفينى أن أقتل بطلقة من مسدسى هذا المحامى الشرير ، لأكفل إلى الأبد هناءتى وهناءة وطنى المختار ؛ إذ أننى يا صديقى العزيز فرنسى بشعورى إن لم أكنه بمولدى .

« ولدت سنة ١٨٢٩ فى فارسوفيا من أب بولونى وأم روسية أو على الأصح فولينية . وورثت منها لقب قائد جيتومير . لقد أعاده إلىّ القيصر إسكندر الثانى عند زيارته لباريس بناء على الطلب الذى قدمه إليه سيدى العظيم الامبراطور نابليون الثالث .

« ولأسباب سياسية لا يمكن الافاضة فيها دون سرد تاريخ بولندا المسكينة ، ترك الكونت بيلوفسكى فرسوفيا سنة ١٨٣٠ وسكن لندن . وأخذ ينفق ثروته الطائلة بعد وفاة والدتى ، وادعى لى أنه فعل ذلك من شدة حزنه . وعند وفاته إبان قضية بريتشارد لم يترك لى إلا نحو ألف جنيه أسترلينى ايراداً ، واثنين أو ثلاثة طرق للعب الميسر لم أتحقق من عدم صلاحيتها إلا أخيراً . وأنا لا أذكر مطلقاً دون انفعال السنتين التاسعة عشرة والعشرين من عمرى ، أى الوقت الذى بددت فيه كل هذا التراث الصغير . كانت لندن حينذاك بلداً ظريفاً حقا . وكنت قد أعددت لنفسى جناحاً صغيراً لطيفاً فى « بيكاديللى » .

بيكادللى ! متاجر وقصور وضجيج ونفحات
وقرقعة عجلات وحفيف أشجار

« وكان صيد الثعالب فى عربة البريسكا والنزهات فى عربة البوجى فى هايد بارك والاجتماعات والحفلات الصغيرة اللطيفة مع غانيات درورى لين ، كل هذا كان يشغل وقتى . إننى مخطئ ؛ فهناك الميسر وعاطفة البنوة التى تدفعنى إلى التحقق من صلاحية طرق اللعب التى تركها لى الكونت المتوفى . إن الميسر هو سبب الحادث الذى سأقصه عليك والذى انقلبت حياتى على أثره رأساً على عقب .

« كان صديقى لورد سلزبورى يكرر على مسامعى مائة مرة : لابد أن أذهب بك إلى سيدة لطيفة تقطن شارع أوكسفورد رقم ٢٧٧ : مس هوارد » . وذات ليلة أسلمت إليه قيادى . كان ذلك يوم ٢٢ فبراير سنة ١٨٤٨ . وكانت ربة المنزل تامة الجمال حقاً،وكان مدعووها ظرفاء. وأحصيت عدة معارف غير سلزبورى : لورد كلبدن ، ولورد شسترفيلد ، وسير فرنسيس سونتجوى ، سيجور فى الحرس ، والكونت دورسيه . ولعبنا ثم أفضنا فى أحاديث السياسة . كانت حوادث فرنسا موضوع الحديث . وكنا نتناقش فى نتائج الثورة التى شبت فى ذلك الصباح فى باريس بعد منع مأدبة الدائرة الثانية عشرة ، والتى نقل البرق أخبارها . ولم أكن أهتم إلى ذلك الحين بالمسائل العامة . لم أعرف ماذا دار برأسى حينما أكدت فى عنف أن الأخبار الواردة من باريس تعنى الجمهورية فى اليوم التالى والامبراطورية بعد ذلك . . .

« وتلقى المدعوون هذه الملحة بضحكة خفيفة ، واتجهت أنظارهم إلى أحد المدعوين . كان يجلس خامس اللاعبين على منضدة بويوت وقد توقفوا عن اللعب . وابتسم المدعو ثم نهض وأقبل نحوى ، فرأيته متوسط القامة بل صغيرها ، يرتدى ردنجوت أزرق ، بعيد النظرة تائهها .

« وكان الحاضرون يتتبعون هذا المشهد فى سرح ولهو .

« فسأل فى عبوس رقيق جدا :

« — إلى من لى شرف التحدث ؟

« نأجبته فى صراحة لأبين له أن فرق السن ليس سبباً كافياً يسوغ سؤاله :

« — الكونت كازمير بيلوفسكى .

« فقال المدعو ذو الردنجوت الأزرق وهو يبتسم :

« — حسناً يا عزيزى الكونت ! أتمنى أن تتحقق نبوءتك ، وأرجو ألا تهمل التويلرى .

« ثم أضاف وقد رضى أن يقدم نفسه :

« — الأمير لويس نابليون بونابرت .

« لم تكن لى يد فى قلب نظام الحكم ، ولست آسف على ذلك ؛ إذ كان مبدئى ألا يتدخل أجنبى عن بلد فى مشاكله الداخلية . وفهم الأمير هذا التحفظ ، ولم ينس قط ذلك الشاب الذى كان له نألا حسناً جدا . وكنت فى طليعة من استدعاهم إلى الأليزيه . وقد توطدت سعادتى نهائيا على أثر مذكرة شائنة من نابليون الصغير . وفى السنة التالية لما مر هناك المونسنيور سيبور عينت فى حاشية الامبراطور الذى تفضل فزوجنى من ابنة الماريشال ريبتو ، دوق مندوفى .

« ولست أشعر بغضاضة إذا أعلنت أن هذا الزواج لم يكن موفقاً كما يجب . كانت الكونتس تكبرنى بعشر سنوات ، وكانت شرسة الطباع ، ولم يكن جمالها يسترعى النظر . يضاف إلى ذلك أن أسرتها حتمت نظام المهر غير أنى لم أكن أملك فى هذا الوقت غير راتبى ،

بوصفى من أتباع الامبراطور ، وقدره خمسة وعشرون ألف فرنك . يا له من مصير محزن لامرئ كان يتردد على الكونت دورسى والدوق دى جراسون — كاديروس ! ترى ماذا كنت أفعل لولا عطف الامبراطور ؟

« وفى ذات صباح من ربيع سنة ١٨٦٢ كنت فى مكتبى أفض خطاباتى ، وكان من بينها خطاب من صاحب الجلالة يدعونى إلى الذهاب إلى التويلرى فى الساعة الرابعة ، وآخر من كايمنتين تنبئنى أنها تنتظرنى فى منزلها فى الساعة الخامسة . وكانت كليمنتين المرأة الجميلة التى كنت أقدم من أجلها على مغامرات طائشة . وكنت جد فخور بها ؛ إذ اغتصبتها ذات مساء فى « البيت الذهبى » من الأمير دى مترنيخ الذى كان مولعاً بها . كانت حاشية الملك تحسدنى على هذه العلاقة . فكنت مضطرا أدبيا إلى الاستمرار فى تحمل تبعاتها . وزد على ذلك أن كليمنتين كانت جميلة ، حتى إن الامبراطور نفسه . . . أما باقى الخطابات يا إلهى ! باقى الخطابات فكانت قوائم موردى هذه الطفلة . وكانت رغم تعريفى بالتأنيب تصر على إرسال هذه القوائم إلى منزل الزوجية .

« كان المبلغ المطلوب يزيد قليلا عن أربعين ألف فرنك ؛ فساتين وملابس سهرة من محل جاجلان أوبيجيه ، ٢٣ شارع ريشيليو ؛ قبعات مختلفة من محل مدام الكسندرين ، ١٤ شارع دانتان ؛ تنورات مختلفة وملابس داخلية من محل مدام بولين ، ١٠٠ شارع دى كليرى ؛ عقود وقفازات جوزفين من محل « مدينة ليون » ، ٦ شارع الشوسيه دانتان ؛ وأوشحة من المال دى زاند ؛ ومناديل من الكومبانى

ايرلانديز ؛ ودنتيلا من محل فرجاسون ؛ ودهن كانديس للتطرية . . . وهذا الدهن بخاصة قد ملأني دهشة . كانت القائمة تشمل إحدى وخمسين زجاجة ثمانياسبعة وثلاثون وستمائة فرنك . وكان يكفى هذا القدر لتطرية أبشار كتيبة عدتها مائة حارس .

« وقلت فى نفسى وأنا أضع قوائم الحساب فى جيبى :

« — لا يمكن أن تستمر هذه الحال .

« فى الساعة الرابعة إلا عشر دقائق اجتزت مدخل الكاروسيل .

« وفى قاعة الياوران قابلت باتشوكى الذى قال لى :

« — إن الامبراطور يشكو بردا وهو ملازم حجرته . لقد أعطى الأمر بادخالك إليه حينما تحضر . تعال .

« كان جلالته غارقاً فى أحلامه أمام النافذة يرتدى حلة مزركشة وسروالا قوزاقيا . وكنت أستطيع أن أرى خضرة التويلرى الباهتة تتموج وتلمع تحت رذاذ دافئ خفيف .

فقال نابليون :

« — آه . . . ها هو ذا أنت . خذ لفافة . يقال إنك وجراموند كاديروس قد عملتما ما لا يعمل أمس فى « قصر الأزهار » .

« فابتسمت ابتسامة رضا وقلت :

« — إذن فجلالتكم قد عرفتم . . .

« — لقد عرفت ، عرفت معرفة غير واضحة .

« — أتعرفون جلالتكم آخر ما قال جراموند كاديروس ؟

« — لا ! ولكنك ستقص علىّ ذلك .

« — حسناً يا مولاى ! كنا خمسة أو ستة : أنا ، وفيبل—كاستيل ، وجراموند و برسينى . . .

« فقال الامبراطور :

— برسيني ! ياله من مخطئ ! يظهر مع جرامونت بعد ما تحدثت باريس عن امرأته !

« — بالضبط يا صاحب الجلالة . كان برسيني منفعلا وجعل يحدثنا عما يسببه له سلوك الدوقة من حزن بالغ .

« فتمم الامبراطور قائلا :

« — إن هذا الرجل يحتاج إلى شئ من الذوق السليم .

« — بالضبط يا صاحب الجلالة . أتعرفون يا صاحب الجلالة ماذا قال جرامونت حينئذ ؟

« — ماذا ؟

« — قال له : يا سيدى الدوق إنى أمنعك من أن تتحدث أمامى بما يسوء عشيقتى .

« فقال نابليون بابتسامة حالمة :

« — إن جرامونت يسرف .

« — وهذا ما قلناه جميعاً يا صاحب الجلالة ، حتى فييل — كاستل مع أنه كان مسروراً .

« وقال الامبراطور بعد لحظة صمت :

« — بهذه المناسبة لقد نسيت أن أسألك عن صحة الكونتس بيلوفسكى .

« — إنها بصحة جيدة يا صاحب الجلالة . إنى أشكر جلالتكم .

« — وكليمنتين ؛ أهى كعهدها دائماً طيبة القلب ؟

« — كعهدنا بها دائماً يا صاحب الجلالة . ولكن . . .

« — يبدو أن مسيو باروش يهيم بها إلى حد الجنون .

« — إنه لشرف لى يا مولاى . ولكن هذا الشرف يكلفنى كثيراً .

« كنت قد أخرجت من جيبى قوائم الحساب التى وصلتنى هذا الصباح ووضعتها على مرأى من الامبراطور .

« فنظر إليها بابتسامته التائهة :

« — مرحى ! مرحى ! هذا لا يهم . سأرى هذا . فثمة خدمة أريدها منك .

« — إنى تحت أمر صاحب الجلالة .

« فهز جرساً .

« — أحضر مسيو موكار .

« وأضاف :

« — إننى أشكو برداً . سيشرح لك موكار المسألة .

« ودخل السكرتير الخاص لجلالته .

« فقال نابليون :

« — موكار ! هذا هو بيلوفسكى . إنك تعلم ماذا أريد منه . فأخبره . وأخذ ينقر على زجاج النافذة وقد كان المطر يسقط عليه بشدة .

« وقال موكار وهو يجلس :

« — يا عزيزى الكونت ! إن المسألة يسيرة . إنك بلا شك سمعت عن المستكشف الشاب مسيو هنرى ديفرييه .

« فأومأت برأسى نافياً وقد أدهشنى الدخول فى الموضوع بهذا الشكل .

« فاستمر موكار قائلا :

« — عاد مسيو ديفرييه إلى باريس بعد رحلة جد خطيرة فى جنوب الصحراء والجزائر . وقد أكد لى مسيو فيفيان دى سانت مارتان ، الذى رأيته منذ أيام ، أن الجمعية الجغرافية تنوى أن تمنحه وسامها

الذهبى الكبير لهذه المناسبة . وقد اتصل مسيو ديفرييه أثناء رحلته برؤساء القبائل التى أعلنت حتى الآن خروجها على سلطان صاحب الجلالة ، وهم الطوارق .

« فنظرت إلى الامبراطور . كانت دهشتى كبيرة حتى جعلته يضحك ، فقال :

« — استمع .

« واستمر موكار يقول :

« — واستطاع مسيو ديفرييه أن يحمل وفداً من هؤلاء الرؤساء على المجىء إلى باريس ليقدموا خضوعهم إلى صاحب الجلالة . ولربما كانت لهذه الزيارة نتائج مهمة جدا ، ولم يفقد معالى وزير المستعمرات الأمل فى عقد معاهدة تجارية تضمن لمواطنينا امتيازات فريدة . وسيصل هؤلاء الرؤساء وعددهم خمسة وبينهم الشيخ عثمان ، أمين وكالة أو سلطان اتحاد الأزجر غداً صباحاً إلى محطة ليون . وسيكون فى انتظارهم مسيو ديفرييه ؛ غير أن الامبراطور قد رأى أنه علاوة على ...

« فقال نابليون الثالث وهو جد مسرور من دهشتى :

« — لقد رأيت أنه من الأوفق أن يكون فى انتظار هؤلاء المسلمين العظام أحد رجال البلاط . ولهذا السبب جئت بك إلى هنا يا صديقى بيلوفسكى المسكين .

« وأضاف وهو يغرق فى الضحك :

« — لا تخف ! سيكون معك مسيو ديفرييه . إنك مكلف بالجانب الرسمى من الزيارة . ستصحب هؤلاء الأئمة إلى مأدبة غداء أقيمها لهم غداً فى التويلرى ، ثم فى المساء ستحاول أن تعطى لهم من طريق خفى فكرة عالية عن المدنية الباريسية ؛ لأن دينهم دين وجدان ومشاعر .

لا تنس أنهم فى الصحراء أئمة عظام . وأنا أعتمد على لباقتك فى هذا الأمر . ولك الحرية التامة . . . سوكار !

« — مولاى .

« — ضع فى الميزانية مناصفة بين وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات المصروفات اللازمة للكونت بيلوفسكى لاستقبال الوفد الطارقى . يبدو لى أن مائة ألف فرنك مبدئيا . . . وسيخبرك الكونت إن اضطر إلى أن يتجاوز هذا المبلغ .

« كانت كليمنتين تسكن منزلا صغيراً مغربيا اشتريته لها من مسيو دى لسيبس . ألفيتها فى فراشها . وعندما بصرت بى أخذت تبكى .

« وتمتمت وهى تجهش بالبكاء :

« — يا لنا من مجانين حقا . ماذا فعلنا ؟

« — ما هذا يا كلمنتين ؟

« واستمرت تقول :

— ماذا فعلنا ؟ ماذا فعلنا ؟

« كان شعرها الأسود المتكاثف يتدلى على جسمى ، وكذلك لحمها الحار الذى يتضوع منه عطر نانون .

« — ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

« — إنى . . .

« وأسرّت فى أذنى بعض كلمات .

« فقلت دهشاً :

« — لا ! . . . أواثقة أنت ؟

« — كل الثقة .

« فخارت قواى .

« وصاحت بى :

« — يبدو أن الخبر لم يسرك .

« — لا أقصد يا كليمنتين ، ولكن . . . أنا سعيد جدا أؤكد لك ذلك .

« — أثبت لى ذلك . . . فلنقض سحابة الغد معاً . .

« فارتعدت .

« — الغد ؟ مستحيل .

« فسألت مرتابة :

« — ولم ؟

« — لأنه علىّ أن أكون فى الغد مرافق الوفد الطارق فى أنحاء باريس . أمر الامبراطور .

« فقالت كليمنتين :

« — ما هذه الكذبة ؟

« إنى أعترف أن ليس ثمة شئ يشبه الكذب أكثر من الحقيقة . وأعدت بالتقريب على كليمنتين حديث موكار . كانت تصغى إلىّ وملامحها تصرخ : لست بلهاء .

« وأخيراً — من شدة غضبى — صحت قائلا :

« — ماعليك إلا أن تحضرى لترى . سأتناول العشاء معهم مساء الغد . انى أدعوك .

« فقالت فى وقار :

« — سأحضر بكل تأكيد .

« أعترف أن شجاعتى قد خانتنى فى هذه الدقيقة . ولكن يا له

من نهار . أربعون ألف فرنك عند استيقاظى ومشقة استصحاب بعض المتوحشين فى أنحاء باريس ، وفضلا عن ذلك نبأ أبوة قريبة غيرشرعية .

« وقلت فى نفسى وأنا عائد إلى منزلى :

« — وعلى كل حال فهذه أواسر الامبراطور . لقد طاب منى أن أعطى هؤلاء الطوارق فكرة عن المدنية الباريسية . وكليمنتين تتصرف تصرفاً حسناً فى المجتمع . ويجب الآن ألا أضايقها ، سأحجز حجرة فى الكافيه دى بارى مساء الغد ، وسأطلب من جراموند — كاديروس وفييل — كاستيل أن يحضرا عشيقتيهما المرحتين . فكرة طفلية أن نرى أبناء الصحراء وسط هذا المجتمع الصغير .

« كان قطار مرسيليا سيصل فى الساعة العاشرة والدقيقة العشرين . ووجدت على إفريز القطار مسيو ديفرييه وهو شاب فى الثالثة والعشرين من عمره له عينان زرقاوان ولحية صغيرة شقراء . وارتمت الطوارق بين ذراعيه عند نزولهم من عربة القطار . كان قد عاش فى الخيام معهم سنتين فى جهات نائية جدا . فقدمنى إلى رئيسهم الشيخ عثمان وأربعة آخرين ، وهم رجال عظام فى أرديتهم القطنية الزرقاء وتمائمهم ذات الجلد الأحمر . ومن حسن الحظ كانوا يتكلمون خليطاً من اللغات مما يسَّر مهمتنا .

« ما أذكر إلا على سبيل السرد الغداء فى التويلرى ، والزيارات المسائية للمتحف ودار البلدية ، والمطبعة الامبراطورية . وفى كل مرة كانوا يقيدون أسماءهم فى السجل الذهبى لمكان الزيارة . وإليك الاسم الكامل للشيخ عثمان وحده لكى أعطى لك صورة واضحة : « عثمان بن الحاج البكرى بن الحاج

الفقيــه بن محمد بويه بن سيـدى أحمــد السوقى بن محمـود [1] .

« وثمة خمسة أسماء أخرى غير هذا !

« وظل مزاجى معتدلا ؛ إذ كان استقبالنا رائعاً فى الشوارع الكبرى وفى كل مكان . وأصبنا نجاحاً فائقاً فى الكافيه دى بارى الساعة السادسة والنصف . وجعل أعضاء الوفد وقــد ثملوا قليلا يقبلوننى قائلين :

« — بونو نابليون ، بونو أوجينى ، بونو كازمير ، بونو رومى . وكان جراموننت كادروس وفبيل كاستيل ينتظران فى الحجرة رقم ٨ مع أنّا جريمالدى من فرقة « الفولى دراماتيك » وهرتانس شنيدر وهما جميلتان إلى حد مزعج . واستأثرت عزيزتى كليمنتين بجميع قلوب القوم لما دخلت القاعة . يجب أن أخبرك بما كانت تلبسه : رداء من التل الأبيض ، وتنورة زرقاء من القطن الرفيع ذات أثناء ، تعلوها نفاخة من التل . وكانت التنورة التلية يرفعها من كل جانب فروع من ورق الشجر الأخضر تحمل أزهاراً وردية ملفوفة ، وهى تكون بذلك حلقة مستديرة تسمح برؤية التنورة القطنية من الأمام والجانبين . وكانت فروع الورق ترتفع حتى الخصر . وبين الفرعين يوجد عقد من حرير الساتان . وكانت صدريتها المدببة مطرزة بالتل ومرصعة بأكاليل من الدانتلا . وكان على رأسها الأسود الشعر إكليل من الأزهار نفسها ، ويكتنف شعرها فرعان من ورق الشجر يتدليان إلى عنقها . وكانت تضع على كتفيها عباءة من الكشمير الأزرق موشاة بالذهب ومبطنة بالحرير الأبيض .

---

(١) لقد أتيحت لى الفرصة أن أجد فى السجل الذهبى الخاص بالمطبعة الأهلية أسمـاء الرؤساء الطوارق وأسمـاء مرافقيهم : مسيو هنرى ديفرييه والكونت بيلوفسكى . (تعليق مسيو لورو .)

« وسرعان ما أخذ الطوارق بهذه الروعة وهذا الجمال وخاصة جار كليمنتين الحاج ابن جامة أخو الشيخ عثمان وأمين وكالة الحجار . كان قد هام بها عند تناول الحساء . ولما قدمت سرّى المارتنيك مع شراب مدام أمفو أبدى ما لا حد له من دلائل الهيام بها ، وقد أظهرِ النبيذ القبرصى حقيقة مشاعره . وجعلت أورتانس تغمزنى بقدمها من تحت المائدة . وأراد جرامونت أن يفعل هذا الشئ نفسه مع أنا ، ولكنه أخطأ فأثار احتجاج أحد الطوارق وسخطه . وأستطيع أن أؤكد لك أنه لما حان وقت الذهاب إلى مابيل كنا قد وقفنا على الطريقة التى يحترم بها مدعوونا الطوارق أمر النبى بتحريم الخمر .

« وفى مابيل استسلم الجميع — كليمنتين وهوراس وأنّا ولودفيك والطوارق الثلاثة — استسلموا جميعاً لعدو جهنمى . وفى ذلك الوقت انتحى بى الشيخ عثمان جانباً وأسرّ الىّ فى انفعال ظاهر بمهمة كلفه بها أخوه الشيخ أحمد .

« وفى اليوم التالى ذهبت فى الصباح الباكر إلى كليمنتين .

« وبدأت حديثى بعد أن توصلت إلى إيقاظها بمشقة :

« — يا صغيرتى أصغى إلى . أمر هام أود أن أبلغك إياه .

« ففركت عينيها فى ضجر :

« — كيف ترين هذا الأمير العربى الذى كان يعانقك مساء الأمس ؟

« فقالت وقد علاها الاحمرار :

« — أوه . . . لا بأس .

« — أتعرفين أنه أمير حاكم فى بلده ، وأنه يبسط سلطانه على أراض تبلغ مساحتها خمسة أو ستة أضعاف الأراضى التى يبسط عليها سلطانه مولانا العظيم الامبراطور نابليون الثالث ؟

« فقالت فى اهتمام :

« — لقد أسر إلىّ بشئ من هذا القبيل .

« — إذن هل يسرك أن تتربعى على عرش مثل عرش ملكتنا الجليلة الامبراطورة أوجينى ؟

« فنظرت إلىّ كليمنتين فى ذهول .

« — هو أخوه الشيخ عثمان الذى عهد إلىّ بأن أقوم بهذه المهمة نيابة عنه .

« لم تجب كلمنتين وقد أصابها من البله بقدر ما أصابها من الارتياع . وأخيراً قالت :

« — أنا إمبراطورة !

« — ما عليك إلا أن تتخذى قرارك . لابد من أن تجيبى قبل الظهر . فاذا كان جوابك بالموافقة فسنتناول الغداء معاً عند فوازان .

« ولمست أن كليمنتين قد اتخذت قراراً فى هذا الأمر ، ولكنها رأت أن من الخير أن تظهر عواطفها نحوى بعض الشئ .

« وقالت متأثرة :

« — وأنت . . . أنت . هل أدعك هكذا . . . أبداً !

« — يا صغيرتى ، دعى عنك هذا الطيش . لعلك تجهلين أنى مفلس . مفلس تماماً . بل لست أدرى كيف أسدد ثمن دهن التطرية .

« فصاحت :

« — آه !

« ثم أضافت :

« — و . . . والطفل ؟

« — أى طفل ؟

« — طفل . . . طفلنا .

« — آه ! حقا . ولكن ضعيه فى حساب الأرباح والخسائر . وعلى كل حال فأنا متأكد أن الشيخ أحمد سيجده شبيهاً به .

« فقالت وهى بين الابتسام والبكاء :

« — إنك لا تعدم دائماً كلمة تبعث على الضحك .

« وفى اليوم التالى — فى الساعة نفسها — كان قطار مرسيليا السريع يحمل معه الطوارق الخمسة وكايمنتين . وكانت المرأة الصغيرة تتكىء مبتهجة على ذراع الشيخ أحمد الذى فقد وعيه من الفرح . وسألت خطيبها فى دلال :

« — هل ثمة حوانيت كثيرة فى عاصمتنا ؟

« فأجاب وهو يرسل ضحكة عالية من تحت لثامه :

— بالأسف . . . الأسف . بونو رومى بونو .

« وعندما أزف الرحيل انتابت كليمنتين نوبة انفعال ، وقالت :

« — اسمع يا كازمير . . . لقد كنت دائماً رقيق الحاشية معى . سأصبح ملكة . فاذا قامت فى وجهك أية متاعب — هنا — فعدنى ، أقسم لى . . .

« وفهم الشيخ مرادها ، وخلع خاتماً من أصبعه ووضعه فى أصبعى وقال مؤكداً على :

« — سيدى كازمير ! رفيق . تعال لمقابلتنا . خذ خاتم السيد أحمد وأظهره . كل فرد فى الحجار رفيق . بونو حجار بونو .

« ولما غادرت محطة ليون أحسست أننى قد أتممت أظرف فكاهة.

كان قائد جيتومير ثملا تماماً . وقد لقيت صعوبات جمة لأفهم نهاية حديثه ؛ لأنه كان يخلطه بمقطوعات غنائية مأخوذة من أحسن أغنيات جاك أوفنباخ :

ثمة شاب كان يجتاز غابة
وهو شاب جميل غض الاهاب
وفى يده تفاحة
لعلك من هذا تتخيل المنظر .

« ولكن ترى على من كانت المفاجأة السيئة عند ضربة سيدان؟ كانت على كازمير ، كازمير الصغير . ففى اليوم الخامس من سبتمبر كان علىّ أن أدفع خمسة آلاف فرنك . ولم يكن معى فلس واحد... ولا فلس واحـد . فأخذت قبعتى واستجمعت شجاعتى ورحلت إلى التويلرى . لم يعد هناك إمبراطور . يا لله . . . ولكن الامبراطورة طيبة جدا . ألفيتها وحدها — آه ! ما أسرع ما يهرب الناس فى مثل هذه الظروف — وحدها مع أحد أعضاء مجلس الشيوخ ، مسيو ميريميه الأديب الوحيد الذى عرفته . وهو أيضاً رجل نبيل . وكان يقول لها : « سيدتى — يجب أن نفقد كل أمل ؛ فان مسيو تيير الذى قابلته منذ حين على « البون رويال » لا يريد أن يغير رأيه . »

« فقلت بدورى :

« — مولاتى . . . إن جلالتك ستعرفين دائماً أين يكون الأصدقاء الحقيقيون .

« ولثمت يدها .

إفوهيه إن للالـهات
وسائل غريبة
لاستمالة الشبان

« وذهبت إلى منزلى فى شارع دى ليل . وفى الطريق قابلت بعض الرعاع الذين أصبحوا يكونون الهيئة التشريعية فى دار البلدية فأجمعت أمرى ، وقلت لزوجتى :

« سيدتى ! مسدساتى .

« فسألت فى انزعاج :

« — ماذاحدث ؟

« — لقد فقدنا كل شئ . ولم يبق إلا أن ننقذ شرفنا . سأذهب إلى المتاريس لأقتل .

« فأجهشت بالبكاء وسقطت بين ذراعى وهى تول :

« — آه ! كازمير . لم أكن أعرفك حق المعرفة . اغفر لى .

« فأجبت فى وقار وانفعال :

« — إنى أغفر لك يا أوريلى ، لطالما أخطأت فى حقك أنا أيضاً .

« وانتشت نفسى من هذا الموقف الكئيب . كانت الساعة السادسة وفى شارع دى باك ناديت عربة وقلت للحوذى :

« — أنفحك عشرين فرنكاً إذا أوصلتنى إلى محطة ليون لألحق

بقطار الساعة السادسة والدقيقة السابعة والثلاثين الذاهب إلى مرسيليا . »

ولم يستطع قائد جيتومير أن يحدثنى بأكثر من ذلك ؛ إذ كان قد تدحرج على الوسائد واستغرق فى نوم عميق .

واقتربت من النافذة الكبيرة وأنا أترنح .

كانت الشمس تشرق صفراء شاحبة من وراء الجبال الزرقاء .

الفصل الرابع عشر

ساعات الانتظار

كان دى سانت أفيت يؤثر أن يحدثنى ليلا بتفاصيل قصته العجيبة فيسردها أجزاء صغيرة حسبما وقعت دون أن يقدم أو يؤخر من حوادث تلك المغامرة التى كنت أعرف نهايتها الفظيعة من قبل . ولم يكن ذلك ليحاول التأثير فىّ من غير شك ؛ إذ كنت أشعر أنه بعيد كل البعد عن هذا ، بل بسبب الحالة العصبية الشاذة التى أغرقه فيها بعث الذكريات .

ووصلت فى هذا المساء القافلة التى تنقل إلينا البريد من فرنسا ، وكانت الخطابات التى أحضرها شاتلان ما زالت ملقاة على المنضدة الصغيرة لم تفض أختامها بعد . وكان المصباح ، وهو أشبه بهالة شاحبة وسط بيداء واسعة من الظلمة ، يتيح لنا أن نتعرف أصحاب خطوط العناوين . آه ! ما أشد ابتسامة الظفر التى شاعت على وجه دى سانت أفيت إذ دفعت جانباً بهذه الرسائل وقلت فى صوت مبهور :

— أكمل !

وقبل دون أن ألح فى الرجاء .

— ليس ثمة شئ يمكن أن يعطيك فكرة عن الحمى التى انتابتنى منذ اليوم الذى قص علىّ فيه قائد جيتومير قصته حتى اليوم الذى

ألفيت نفسى فيه أمام أنتينيا . وأغرب ما فى ذلك هو أن فكرة أننى محكوم عليه بالموت لم يكن لها أثر بأية حال فى هذه الحمى . بل هى على العكس كانت ترجع إلى تلهفى إلى وقوع الحادث الذى سيكون رائد موتى : وهو دعوة أنتينيا . ولكن هذه الدعوة لم تسارع إلى الحدوث . ومن هذا التأخير تولد سخطى المضنى .

ترى هل مرت بى لحظات يقظة ذهنية خلال هذه الساعات ؟ لا أظن ذلك . لا أذكر أننى قلت لنفسى مطلقاً : « ماذا ؟ ألا تخجل ؟ إنك أسير فى موقف شائن ولا تحاول أن تسعى إلى تحرير نفسك فحسب ، بل تبارك هذه العبودية وتتمنى هلاكك . » ولم أكن أنتحل لرغبتى فى البقاء هناك كى أتتبع أطوار المغامرة حتى الاعتذار بأنى لا أريد الهروب دون مورانج . ولئن كان قد تملكنى قلق خفى لعدم رؤية مورانج ، إن ذلك كان لأسباب تختلف عن رغبتى فى أن أراه سليما معافى .

وعلى كل حال كنت أعرف أنه سليم معافى . كان الطوارق البيض من خدم أنتينيا الخصوصيين لا ينقلون خبراً بكل تأكيد . ولم تكن النساء أكثر منهم كلاماً . كنت أعرف بالفعل عن طريق سيدة وعجيدة أن رفيقى مغرم بالرمان ، وأنه لا يحتمل الكسكسى بالموز ؛ ولكنى إذا حاولت أن أستنبئهن خبراً غير هذه الأخبار ، أراهن يهربن مذعورات فى الممرات الطويلة . وكانت الحال تختلف كل الاختلاف مع تانيت زرجا . كان يبدو أن هذه الصغيرة تكره أن تذكر أمامى أى حادث يتصل بأنتينيا . غير أنها كانت — وكنت أعرف ذلك — وفية لسيدتها وفاء الكلب الأمين . ولكنها كانت تلزم الصمت فى عناء لو تفوهت أمامها باسم أنتينيا أو اسم مورانج .

أما البيض فكنت لا أرضى لنفسى مطلقاً أن أستنبئ هؤلاء المرائين الكئاب . وعلى كل حال كان ثلاثتهم لا يميلون إلى ذلك . وكان قائد جيتومير ينغمس فى الخمر أكثر فأكثر . ويخيل إلىّ أنه قد أذهب بقية عقله فى ذلك المساء الذى باح لى فيه بأسرار شبابه . كنت أقابله من حين إلى حين فى الممرات التى غدت فجأة ضيقة فى نظره وهو يغنى بصوت أجش مقطعاً من أنشودة « الملكة هورتانس » :

فلتكن زوج ابنتى ايزاييل فى الحال ؛
فهى أجمل الفتيات وأنت أشجع الشبان .

القس سباردك . كنت لطمت بسرور هذا البخيل . أما الرجل القصير البشع ذو الوشاح ، ذلك الرجل الجامد الاحساس مسجل بطاقات قاعة المرمر الأحمر ، فكيف لى أن أقابله دون أن أصيح به: « هيه يا سيدى الأستاذ ! ها هى ذى حالة ترخيم شاذة أطلنطينيا — حذفت الألف والكاف واللام ! هاك حالة شاذة مثلها : كليمنتينيا . — ترخيم الكاف واللام والياء والميم . ولو كان مورانج بيننا لقال كثيراً من الأشياء العلمية الجميلة فى هذا الموضوع . ولكن مع الأ[illegible] ، لا يتنزل مورانج إلى الحضور بيننا . لم نعد نرى مورانج . »

ولقيت رغبتى الشديدة فى استطلاع الأخبار ترحيباً من جانب روزيتا العجوز السوداء مقلمة الأظافر . ولم يحدث لى أن قلمت أظافرى قط مثلما فعلت فى هذه الأيام القلقة . فى هذه الساعة — وبعد ست سنوات — لابد أن تكون قد ماتت . ولا يقلل من احترامى لذكراها أن أقول إنها كانت مغرمة جدا بالخمر . كانت تقبل

دون ممانعة كل ما أقدم لها من زجاجات الخمر التى كنت أشربها معها تأدباً منى .

على عكس العبيد الذين يجلبون من الجنوب لارسالهم إلى تركيا بوساطة تجار مدينة غاط ، ولدت هذه فى القسطنطينية ، وجاء بها إلى أفريقيا سيدها الذى عين قائمقام غداميس . . . ولكن لا تنتظر منى أن أعقد قصة جد مليئة بالحوادث بسرد كوارث مقلمة الأظافر .

كانت تقول لى :

— أنتينيا هى ابنة الحاج أحمد بن جهان أمين وكالة الحجار وشيخ قبيلة قل رحالة النبيلة . ولدت سنة ١٢٨١ ه‍ . ولم تقبل أن تتزوج من أحد . ونفذت إرادتها لأن إرادة النساء لها قيمتها فى الحجار الذى تتربع هى اليوم على عرشه . إنها ابنة عم سيدى السنوسى ، وحسبها أن تنطق بكلمة واحدة فيسيل دم النصارى متدفقاً من الجريد إلى التوات ومن بحيرة تشاد إلى السنغال . ولو أرادت لعاشت جميلة معززة فى بلاد النصارى ، ولكنها تؤثر أن يحضروا بأنفسهم إليها .

فقلت :

— صغير بن شيخ إنك تعرفينه ! إنه يخلص لها كل الاخلاص !

— ليس منا من يعرف صغير بن شيخ حق المعرفة ؛ إذ هو على سفر دائم . إنه مخلص لأنتينيا . إن صغير بن شيخ سنوسى ، وأنتينيا ابنة عم شيخ السنوسيين . زد على ذلك أنه مدين لها بحياته . إنه أحد هؤلاء الذين قتلوا القائد الكبير فلاترز . ولذلك أراد أخنوخين أمين وكالة الطوارق الأزجر ، أن يسلمه للفرنسيين خشية انتقامهم . ولما نبذته الصحراء كلها وجد مأمنه عند أنتينيا . ولن ينسى صغير بن

شيخ ذلك أبداً ؛ لأنه شجاع ويتمسك بسنة النبى . وحتى يثبت لها عرفانه للجميل أحضر لها — وكانت فى ذلك الحين بكراً فى العشرين من عمرها — ثلاثة ضباط فرنسيين من جيش الاحتلال الأول فى تونس . إنهم الآن فى قاعة المرمر الأحمر يحتلون الأرقام ١ و ٢ و ٣ .

— وهل يؤدى صغير بن شيخ مهمته بنجاح ؟

— إن صغير بن شيخ مدرب تمام التدريب ، ويعرف الصحراء الواسعة كما أعرف أنا حجرتى على قمة الجبل . ولقد أخطأ فى بادئ الأمر . وهكذا فى أول أسفاره أحضر لنا الشيخ لميج والقس سباردك .

— وماذا قالت أنتينيا حينما رأتهما ؟

— أنتينيا ؟ لقد أغرقت فى الضحك حتى عفت عنهما . واضطرب صغير بن شيخ إذ رآها تضحك بهذا الشكل . ومنذ ذلك الحين لم يخطئ قط .

— ألم يخطئ بعد ذلك قط ؟

— لا ! لقد قلمت أظافر كل من جاء بهم إلى هنا ، فكانوا جميعا شباناً جميلى الشكل . ولكنى لا أرى بدًّا من القول بأن رفيقك الذى قادوه إليها بعدك فى ذلك اليوم هو على ما يخيل لى أجمل الجميع شكلا .

فسألتها لأحوّل مجرى الحديث :

— ولماذا لم تعد إلى القس وإلى مسيو لميج حريتهما مادامت قد عفت عنهما ؟

فقالت العجوز :

— يقال إنها وجدت لها أعمالا يمكن أن يؤدوها لها . ثم لا سبيل لمن يدخل هنا مرة إلى الخروج ، وإلا أسرع الفرنسيون بالمجئ

ورأوا قاعة المرمر الأحمر ، ونكلوا بنا جميعاً . وعلى كل حال فجميع الذين قادهم صغير بن شيخ إلى هنا ، لم يحاولوا — باستثناء شخص واحد — الهرب بعد أن رأوا أنتينيا .

— وهل تحتفظ بهم طويلا ؟

— ذلك يرجع إليهم و إلى ما تجد فيهم من لذة . فى المتوسط شهرين أو ثلاثة على حسب . . . وثمة ضابط بلجيكى عملاق لم يمكث إلا ثمانية أيام . وعلى عكس ذلك يذكر الجميع هنا الصغير دوجلاس كين — وهو ضابط إنجليزى — فقد احتفظت به قرابة العام .

— ثم ؟

فأجابت العجوز كأن سؤالى قد أدهشها :

— ثم مات .

— وبأى شئ مات ؟

فقالت كما قال لميج من قبل :

— كالآخرين جميعاً . مات بالحب .

واستمرت فى حديثها .

— بالحب ! إنهم جميعاً يموتون بالحب ، عندما يدركون أن عهدهم قد ولى ، وأن صغير بن شيخ قد رحل يطاب غيرهم . كثيرون منهم قدقضوا نحبهم فى بطء وعيونهم مغرورقة بالدمع العزيز ؛ إذ صاروا لايغمض لهم جفن ولا يقبلون على طعام . ولقد جن ضابط من البحرية الفرنسية ، فكان يرسل صوته فى الليل بأغنية حزينة كانت تردد أصداؤها فى أنحاء الجبل . ورجل آخر — وهو أسبانى — انتابته ثورة عنيفة ، حتى كان يحاول أن يعض كل من يصادفه . فاضطررنا إلى قتله . ومات كثيرون بالكيف . والكيف أشد خطراً من الأفيون . فاذا

ما خاسرهم اليأس من أنتينيا أقبلوا على التدخين . وهكذا مات معظمهم وهم أسعد الجميع حظا . أما الصغير كين فقد مات ميتة أخرى .

— وكيف مات الصغير كين ؟

— مات بطريقة شقّت علينا جميعاً . قلت لك إنه قضى أطول مدة بيننا ، وكنا قد ألفناه . لقد وجد فى حجرة أنتينيا منضدة صغيرة من القيروان مطلية بالأزرق والذهبى عليها جرس ومطرقة طويلة من الفضة لها يد ثقيلة من الآبنوس . هى عجيدة التى أخبرتنى بهذه الواقعة . فلما أخلت أنتينيا سبيل كين الصغير ، مبتسمة كعادتها ، مثل أمامها صامتاً شاحباً ، فضربت الجرس ليخرجوه . فدخل طارق أبيض ، غير أن الصغير كين أمسك بالمطرقة . فاذا الطارق الأبيض ينطرح على الأرض مشجوج الرأس . وعلت ثغر أنتينيا ابتسامة ظلت ملازمة لها . ثم اقتيد كين الصغير إلى حجرته . وغافل حراسه فى الليلة نفسها ، وقفز من النافذة على ارتفاع مائتى قدم . وأخبرنى عمال ورشة التحنيط أنهم عانوا صعاباً جمة فى تحنيط جثته ، غير أنهم أتموا مهمتهم فى نجاح . ما عليك إلا أن تذهب لترى بنفسك وهو يمثل الكوة رقم ٢٦ فى قاعة المرمر الأحمر .

وأخفت العجوز انفعالها بكأس الشراب ، ومضت فى حديثها قائلة :

— قبل ذلك بيومين جئت لأقلم أظافره هنا ، فقد كانت هذه الحجرة حجرته . وقد جعل يكتب بسكينه شيئاً على الحائط بجوار النافذة . أنظر ! تستطيع أن ترى ذلك الآن . . .

أليس هو القدر الذى جعل فى منتصف هذه الليلة من ليالى شهر يوليه . . .

لو أنى قرأت فى لحظة أخرى هـذا البيت من الشعر المنحوت فى الصخر بجانب النافذة التى قفز منها الضابط الانجلبزى الصغير لامتلأت نفسى اضطراباً لا يحد . غير أنه كانت تستولى على نفسى فى تلك اللحظة فكرة أخرى . فقلت فى صوت حاولت أن يكون هادئاً ما استطعت :

— أخبرينى . . . عندما تبسط أنتينيا سلطانها على الواحد منا تحتجزه بالقرب منها . أليس كذلك ؟ ألا نراه بعد ؟

فأومأت العجوز بالنفى قائلة :

— إنها لا تخشى أن يهرب ؛ فان الجبل مغلق تماماً . وليس عليها إلا أن تطرق الجرس فيكون فى الحال بجوارها .

— على أنى لم أر زميلى منذ دعته .

— إن كنت لم تره فذلك يعود إلى أنه يؤثر البقاء بجوارها . إن أنتينيا لا ترغمه على ذلك ، وهى أيضاً لا تحرم عليه شيئاً .

فضربتُ المنضدة بقبضة يدى فى عنف :

— اذهبى أيتها العجوز المعتوهة! أعزبى عن وجهى بأسرع ما يمكن .

وفرت روزيتا مذعورة بعدما جمعت فى عجلة أدواتها الدقيقة .

أليس هو القدر الذى جعل فى منتصف هذه الليلة من ليالى شهر يوليه . . .

وأذعنت لاقتراح المرأة السوداء ، وتتبعت الممرات ، وضلات طريقى ثم هدانى إليه القس سباردك الذى صادفته أمامى . وأخيراً دفعت باب قاعة المرمر الأحمر ودخلت .

وأنعشتنى هذه البرودة المعطرة . ليس ثمة مكان كئيب ، مهما

تكن كآبته ، إلا يشيع البهجة فيه خرير الماء . وسكنت نفسى إلى الهدير الذى وسط القاعة . وتذكرت أنى كنت ذات يوم —قبل المعركة— منطرحاً على الأرض مع فصيلتى بين الأعشاب العالية فى انتظار اللحظة التى نسمع فيها الصفير فننهض تحت طلقات الرصاص . وكان هناك عند قدمى جدول صغير ، فجعلت أنصت إلى خرير الماء وأنا أعجب بتلاعب الظلال والأضواء فى الماء الشفاف والحشرات الصغيرة والأسماك السوداء والأعشاب الخضراء والرمال الصفراء المتموجة المتون . . ما أشدما أثارنى غموض الماء !

هنا فى هذه القاعة الكئيبة أحس أن الهدير المظلم يثير شجونى ، وأنه صار صديقاً لى . فهو يخشى على ألا أتخاذل أمام هذه البراهين الجامدة على كثير من الجرائم الشنيعة .

رقم ٢٦ . حقا أنه « الملازم دوجلاس كين ، ولد فى أدنبرة يوم ٢١ سبتمبر ١٨٦٢ . توفى فى الحجار يوم ١٦ يوليه ١٨٩٠ . » ثمان وعشرون سنة . ولما يكن قد بلغ الثامنة والعشرين ! وجه نحيل جدا تحت الرداء الأوريشكلى ، وفم حزين مشبوب العاطفة . إنه هو بالفعل . يا له من صغير مسكين ! أدنبرة ! إننى أعرف أدنبرة حق المعرفة وإن كنت لم أذهب إليها قط . يمكن أن نرى تلال بنتلاند من جدران القصر . كانت المس فلور استفنسن الرقيقة تقول لآن دى سانت إيف : « انظرى إلى أسفل قليلا ! سترين فى ثنية التل مجموعة من الأشجار يتصاعد من بينها خيط دقيق من الدخان . إنه كوخ سوانستون حيث نقيم أنا وأخى مع خالتنا . ما أسعدنى إذا أعجبك منظره حقا ! » ولما رحل دوجلاس كين إلى دارفور كان قد ترك وراءه من غير شك فلورا أخرى شقراء مثل شقراء سانت إيف . ولكن

أين تكون أولئك الفتيات النحيفات من أنتينيا ! وحتى كين ، الرجل الفطن الذى خلق لمثل هذا الحب قد هام هو أيضاً بالأخرى : لقد مات . وها هو ذا الرقم ٢٧ الذى تحطم بسببه كين على الصخور الصحراوية ، وقد مات هو أيضاً .

الموت والحب . هاتان الكلمتان : يالدويهما الطبيعى فى قاعة المرمر الأحمر ! وما أعظمها حين تبدو أنتينيا وسط هذه الدائرة من التماثيل الشاحبة ! وهل يحتاج الحب إلى الموت ليتكاثر ؟ فثمة نساء أخريات فى العالم يماثل جمالهن جمالها من غير شك . بل ربما كن يبذذنها جمالا . إنى لأشهدك على أنى لم أقل إلا القليل عن جمالها . فكيف إذن كان هذا الميل ، هذه الحمى ، هذه التضحية بارادتى ؟ كيف تأتى لى ، كى أحتضن هذا الشبح المتهالك ، أن أقدم على أعمال لا أجرؤ على تذكرها خشية أن تعرونى لذكراها رعدة فى الحال ؟

ها هو ذا رقم ٥٣ ، الاخير . سيكون مورانج رقم ٥٤ ، ورقم ٥٥ سأكونه أنا بعد ستة شهور أو ربما كان بعد ثمانية . وعلى كل حال كما حدث للآخرين سيضعون فى هذه الكوة صورة مطابقة لى دون عينين : روح ميت وجسد ظفر بمآربه .

قد بلغت الآن قمة السعادة ، بلغت النشوة التى أستطيع أن أحللها . ما أشد ما كنت طفلا منذ حين ! ثارت ثائرتى فى وجه مقلمة الأظافر العجوز . كنت أغار من مورانج أقسم على ذلك . ولماذا لم تأخذنى الغيرة من هؤلاء الماثلين أمامى ومن غيرهم ممن سيأتون واحداً بعد آخر إلى هنا ليملأوا هذه الدائرة السوداء من الكوات الفارغة . . . مورانج ، أعرف أنه فى هذه اللحظة بجوار أنتينيا . أشعر ببهجة سريرة إذ أفكر فى بهجته . ولكن فى ذات مساء بعد ثلاثة أشهر — أو لعلها

أربعة — سيحضر المحنطون إلى هنا وستشتمل الكوة رقم ٥٤ على فريستها . وحينئذ سيتقدم إلىّ طارقى أبيض . سأرتعد لروعة الموقف . سيلمس ذراعى . وسيحين حينئذ دورى فى ولوج الأبدية من طريق باب الحب الدامى .

. . . .

ولما أفقت من تأملاتى ، وجدت نفسى فى المكتبة وقد أخذ الليل الثقيل يشوه خيالات الأشخاص المتجمعين فى الحجرة .

عرفت مسيو لميج والقس والقائد وعجيدة واثنين من الطوارق البيض وآخرين غيرهم . تجمعهم كلهم مناقشة حامية .

فدنوت منهم ، وقد أوحشنى بل أقلقنى أن أرى هذا العدد الكبير من أناس متنافرى الأمزجة يجتمعون فى مكان واحد .

فقد وقع حادث محير أثار فى الحال ثائرة أهل الجبل ؛ إذ شوهد اثنان من المستكشفين الأسبان ناحية الغرب فى « الاضرار احنيت » ، وكانا قادمين من ريو دى أورو .

ولما علم صغير بن شيخ بذلك ، تهيأ فى الحال ليلقاهما .

غير أنه تلقى الأوامر فى التو بعدم الرحيل .

ومنذ هذه اللحظة غدا مستحيلا أن يتطرق إلى أحد أى شك .

لقد أحبت أنتينيا لأول مرة .

الفصل الخامس عشر

شكاية تانيت زرجا

— أراوو ... أراوو ...

وصحوت من الغفوة التى غشيتنى ، وتفتحت عيناى ، وتراجعت فجأة إلى الوراء .

— أراوو .

على نحو قدمين من وجهى رأيت رأس هيرام الملك ، الأصفر المخطط بالسواد . كان الفهد يشاهد يقظتى فى غير اهتمام كبير إذ كان يتثاءب . كان يفتح فمه الأحمر القانى ويقفله فى كسل ، فتلمع أنيابه الجميلة البيضاء .

وفى اللحظة نفسها سمعت رنين ضحكة عالية .

كانت الصغيرة تانيت زرجا تجلس القرفصاء على وسادة بجوار الأريكة التى أتمدد عليها ، وكانت ترقب فى تلهف كيف أواجه الفهد.

ورأت أن تقول لى :

— هيرام الملك ضجر ، فجئت به إلى هنا .

فأجبت فى غضب :

— حسناً ! ولكن أليس فى الامكان أن يذهب بضجره إلى جهة أخرى ؟

فقالت الصغيرة :

— إنه وحيد الآن . لقد طرد ؛ إذ كان يحدث جلبة وهو يلعب .

وذكرتنى هذه الكلمات بحوادث الليلة السابقة .

فقالت تانيت زرجا :

— أستطيع أن أذهب به إن شئت .

— بل دعيه .

وجعلت أنظر إلى الفهد فى رثاء . كانت تعاستنا المشتركة قد قاربت بيننا . وأخذت أربّت على جبهته البارزة . وأظهر هيرام الملك سروره بأن تمطى وأبدى مخالبه الضخمة . لا بد أن يكون الحصير قد تجشم آلاماً جساماً فى هذه اللحظة . وقالت الفتاة الصغيرة :

— جاليه هنا أيضاً .

— جاليه ! ما هذا ؟

وفى الوقت نفسه لمحت على ركبتى تانيت زرجا حيواناً غريباً فى حجم قط كبير مفرطح الأذنين ، رمادى الشعر خشنه .

كان يمعن النظر فىّ بعينين صغيرتين ورديتين .

فقالت تانيت زرجا :

— إنه من نوع المنجوست .

وقلت فى ضجر :

— أهذا كل شئ ؟

لابد أننى كنت أبدو عابساً مضحكاً مما جعل تانيت زرجا تضحك، فضحكت أنا أيضاً . وقالت بعد أن سكت عنها الضحك :

— إن جاليه صديقتى . إننى أنقذت حياتها . كنت حينئذ صغيرة جدا . سأحدثك بذلك مرة أخرى ، أنظر ! ما أظرفها !

ووضعت الحيوان على ركبتى وهى تقول ذلك .

وقلت فى بطء وأنا أمر يدى على ظهر الحيوان :

— إنه لظريف منك يا تانيت زرجا أن جئت لزيارتى . كم الساعة إذن ؟

— بعد التاسعة بقليل . أنظر ! لقد ارتفعت الشمس فى السماء اسمح لى أن أسدل الستائر .

فملأ الظل الحجرة ، وغدت عينا جاليه أكثر احمراراً ، أما عينا هيرام الملك فقد غدتا خضراوين .

وأعدت قولى :

— إنه لظريف منك . أراك اليوم حرة . لم تأت قط إلى هنا مبكرة .

وغشيت سحابة سوداء جبهة الفتاة الصغيرة وقالت فى خشونة :

— فى الواقع أننى حرة .

وأمعنت النظر فى تانيت زرجا . ولأول مرة أدركت أنها جميلة . كان شعرها المرسل على كتفيها مجعداً أكثر منه مموجاً . وبدت ملامحها طاهرة للغاية ، أنف معتدل ، وفم رقيق دقيق الشفتين ، وذقن تدل على العزم ، كان لونها نحاسيا لا أسود . ولم يكن جسمها النحيف اللون يشبه فى شئ هذه القطع الكريهة من الدهن كما هو الحال فى أجسام غيرها من السود المدللين .

كان يكتنف جبهتها وشعرها إطار مستدير عريض من النحاس . كانت تلبس فى ساعديها وأسفل ساقيها سوارين وخلخالين أعرض من إطار شعرها ، وكانت ترتدى قميصاً من الحرير الأخضر ذا قبة مستديرة موشاة بالذهب : خضرة و برونز وذهب .

وسألتها فى هدوء :

— أأنت سنراوية يا تانيت زرجا ؟

فأجابت فى شئ من الزهو :

— أنا سنراوية .

وقلت فى نفسى : « طفلة غريبة » .

ومن الواضح أن ثمة نقطة لا تريد تانيت زرجا أن تحوّل دفة الحديث إليها . وإننى لأذكر مسحة الألم التى غشيتها حين أخبرتنى أنهم طردوا هيرام الملك وهى تنطق كلمة « أنهم طردوا » . واستطردت قائلة :

— إننى سنراوية . ولدت فى بلدة جاو على نهر النيجر ، وهى عاصمة السنرويين القديمة . لقد تربع آبائى على عرش الامبراطورية المندنجية ، وليس ثمة ما يدعو إلى احتقارى إذا كنت ترانى هنا .

وأخذت جاليه تصقل شواربها البراقة بيديها وقد جلست على مؤخرتها الصغيرة تحت أشعة الشمس فى حين كان هيرام الملك منبطحاً على الحصير غارقاً فى النوم ، وأخذ يرسل من حين إلى حين زفرات الألم . وقالت تانيت زرجا وقد وضعت أصبعها على شفتيها :

— إنه يحلم .

فقلت :

— لا يحلم غير حيوان البر .

فأجابت فى رزانة دون أن يبدو عليها أنها فهمت النكتة الباريسية :

— إن الفتاة تحلم أيضاً .

ثم كانت لحظة صمت ثم قالت :

— لا بد أن تكون جائعاً ، وأعتقد أنك لا تجد لذة فى تناول الطعام مع الآخرين .

لم أجب . فاستطردت قائلة :

– يجب أن تأكل ، سأذهب لاحضار طعام لك ولى إن سمحت ، وسأحضر طعام هيرام وجاليه كذلك . يجب ألا تظل وحيداً إذا ما خالجتك الشجون .

وخرجت الساحرة الخضراء الذهبية دون أن تنتظر منى جواباً . وهكذا بدأت علاقتى بتانيت زرجا . كانت تأتى إلى حجرتى كل صباح ويصحبها الحيوانان . وقلما كانت تحدثنى عن أنتينيا ، وإن حدث فبطريق غير مباشر دائماً . ولعل السؤال الذى كانت تراه دائماً على شفتى قد بدا لها لا يحتمل . وكنت أشعر بها تتجنب دائماً كل المواضيع التى لا أجرؤ أن أحوّل إليها مجرى الحديث .

ولكى تتجنب هذه المواضيع تماماً كانت تتكلم وتتكلم كببغاء محمومة .

ومرضتُ ، فعالجنى هذا الملك الرحيم معالجة لم أعهدها من قبل . وكان الحيوانان الكبير والصغير يقبعان جوارى من الناحيتين . وقد كنت أراهما طيلة مدة هذيانى يثبتان فىّ أعينهما الحزينة .

وأخذت تانيت زرجا تقص علىّ أقاصيصها الحلوة فى صوت شجى ، من بينها القصة المفضلة عندها وهى تاريخ حياتها .

ولم ألاحظ ، إلا بعد ذلك بكثير وفجأة ، إلى أى مدى بلغ تأثير هذه المتوحشة الصغيرة فى حياتى . أى فتاتى العزيزة أينما تكونى فى هذه اللحظة ومهما يكن من بعد الشاطئ الهادئ الذى ترقبين منه فجيعتى ومأساتى ، فألقى نظرة على هذا الصديق واغفرى له أن لم يولِك من الاهتمام منذ اللحظة الأولى ما أنت خليقة به .

قالت لى :

— إنى أحتفظ من ذكريات طفولتى بصورة للشمس وهى فتية وردية تتصاعد خلال ضباب الصباح على نهر جار قوى التيار « النهر الملئ بالماء » النيجر . كان . . . ولكنك لا تصغى إلى .

— أى صغيرتى تانيت زرجا ! أقسم إننى لمصغ إليك .

— أحقاً أنى لا أضايقك ؟ أتريد أن أتكلم ؟

— تكلمى يا تانيت زرجا . تكلمى .

— إذن كنا ، أنا ورفيقاتى الصغيرات ، وكنت رقيقة الحاشية سعهن ، كنا نلعب على شاطئ النهر الملئ بالماء تحت شجر العناب وهو من فصيلة الزجزج الذى أدمى شوكه رأس نبيكم والذى نسميه شجر الفردوس ، إذ تحت هذا الشجر ، كما قال نبينا ، سيأوى المختارون فى الجنة . وقد يبلغ حجمه أحياناً من الضخامة بحيث لا يستطيع فارس أن يجتاز ظلاله فى قرن من السنين .

« وهناك كنا نجدل أكاليل جميلة من الأزهار المتنوعة ، ثم نلقيها إلى المياه الخضراء لإبعاد النحس ، وكنا نضحك كثيراً حينما يخرج فرس البحر رأسه الضخم السمين ليستنشق الهواء ، ونحن نضربه فى غير ما خبث حتى يغوص ثانية وسط الزبد المنهمر .

« كان ذلك فى الصباح . ثم ينتشر فى جاو المحترقة موت ساعة القيظ ، حتى إذا انتهت أخذنا نعود إلى شاطئ النهر لنرى بين سحب الناموس والحشرات التماسيح الضخمة التى كأنها مطعمة بالبرونز وهى تصعد شيئاً فشيئاً على النهر وتنغمس فى خبث فى الأوحال الصفراء والأراضى المنحدرة المنخفضة .

« نطاردها أيضاً كما طاردنا فرس البحر فى الصباح ، ونحتفل بالشمس وهى تنحدر وراء فروع الدلدل الأسود . كنا نشكل الدائرة

العادية ونحن نضرب بأقدامنا ثم بأيدينا وننشد نشيد السنراويين.

« وهكذا كانت مشاغلنا العادية ونحن فتيات طليقات. وإنك لتخطئ إذا اعتقدت أننا كنا طائشات. وسأقص عليك، إذا أردت، كيف أنقذت أنا التى تحدثك الآن، قائداً فرنسيا عالى المقام وأعلى منك رتبة بكثير كما كان يدل على ذلك عدد الأشرطة المذهبة التى كان يضعها على كم ردائه الأبيض.

فقلت ونظرتى شاردة:

— قصى يا صغيرتى تانيت زرجا.

فاستطردت فى قليل من الكدر:

— إنك مخطئ إذ تبتسم ولا تعيرنى اهتماماً كثيراً. ولكن ما خطر ذلك؟ إننى أقص هذه الأشياء لنفسى... للذكرى. ووراء جاو تجد النيجر ثانية. وثمة فى النهر رأس صغير تكثف فيه أشجار المطاط. كان ذلك فى أمسية من أمسيات أغسطس والشمس على وشك المغيب، ولم يكن فى الغابة المجاورة من عصفور إلا جثم على غصن جامد فى ارتقاب الفجر. سمعنا فجأة صوتاً غريباً آتياً من الغرب بوم، بوم، بوم... بوم، بوم... بوم ثم أخذ يعلو، وتلاه فجأة طيران غريب من طيور مائية، القنبر والبط والبجع وغيرها، وانتشرت فوق شجر المطاط يتبعها عمود من الدخان الأسود وقد أماله النسيم الذى أخذ يتحرك.

« كانت باخرة تدور حول الرأس، فهاجت فى جميع أنحاء النهر امواجاً أخذت تهز الأعشاب المتمايلة. وعلى مؤخرتها كنا نرى العلم الأزرق الأبيض الأحمر كأنما يجر على الماء لزموتة المساء الشديدة.

« وأقبلت لترسو بجانب المرسى الخشبى، وأنزل قارب فيه بحاران يجدفان وثلاثة قواد قفزوا بعد قليل إلى الشاطئ.

« وطلب أكبرهم سنا ، وهو ضابط فرنسى كبير يلبس برنساً كبيراً أبيض ويعرف لغتنا معرفة جيدة ، طلب أن يتحدث إلى الشيخ سنى أزكيه . فتقدم أبى قائلا إنه هو الشيخ . فأخبره الضابط الكبير أن قائد منطقة تمبكتو فى غاية من الغضب ، وأن الباخرة قد ارتطمت على مسافة ميل بحاجز لا يرى من الأعشاب وقد أصيبت بعطب ، وأنه لا يستطيع مواصلة سيرها إلى أنسانجو على هذه الحال .

« فأجاب أبى بأنه يرحب بالفرنسيين حماة السكان البائسين من الطوارق ، وأن هذا الحاجز لم يبن لقصد خبيث وإنما للأسماك والغذاء ، وأنه يضع تحت تصرف القائد الفرنسى كل موارد جاو وبينها ورشة حديثة لاصلاح الباخرة .

« وبينما كان يتكلم نظر إلىّ القائد الفرنسى ونظرت إليه أيضاً .

« كان رجلا كبير السن ضخم الجثة عريض المنكبين قويهما وإن كانا مقوسين قليلا وله عينان صافيتان صفاء الينبوع .

« فقال بصوته الرقيق :

« — تعالى هنا يا صغيرتى .

« فقلت وقد غاظنى عدم اكتراثه :

« — إننى ابنة الشيخ سنى أزكيه وأنا أفعل ما أريد .

« فأجاب وهو يبتسم :

« — أنت على حق ، لأنك جميلة . هلا أعطيتنى الأزهار التى تحملينها حول عنقك ؟

« كان عقد كبير من الزنابق الحمراء ، فأعطيته إياه ، فقبلنى وساد بيننا السلام .

« وفى أثناء ذلك كان البحارة ومعهم أقوى رجال القبيلة قد جرّوا الباخرة إلى منحنى من النهر بارشاد أبى .

« وقال رئيس الميكانيكيين بعد أن فحص العطب :

« — سيستغرق العمل طول سحابة غد يا سيدى الكولونيل . لن نستطيع الرحيل إلا بعد صباح الغد . هذا ويجب أن يواصل هؤلاء البحارة الكسالى العمل .

« فأجاب صديقى الجديد متذمراً :

« — يا للمضايقة !

« ولكن ضيقه لم يدم طويلا وقد سعينا جهدنا أنا ورفيقاتى إلى تسليته . استمع إلى أجمل أغانينا ، ولكى يشكرنا أذاقنا أطيب الأشياء التى أنزلت من الباخرة لعشائه . ونام فى بيتنا الكبير الذى أخلاه أبى له . ونظرت طويلا قبل أن أنام من بين الغصون التى تكوّن جدران المنزل حيث انسحبت مع والدتى ، فرأيت علم الباخرة يهتز فى حركة لولبية حمراء على سطح المياه المظلمة .

« وفى تلك الليلة رأيت حلماً مفزعاً : رأيت صديقى القائد الفرنسى يرقد آمناً وقد حلّق فوق رأسه غراب وهو ينعق : غاق ، غاق ، إن ظل أشجار المطاط فى جاو — غاق ، غاق لن تساوى شيئاً الليلة القادمة — غاق ، غاق ، لا للقائد الأبيض ولا لأعوانه .

« وما إن شعشع الفجر حتى ذهبت لمقابلة البحارة . كانوا يرقدون على ظهر السفينة منتهزين أن البيض كانوا لايزالون نائمين يستولى عليهم الكسل . فناديت أكبرهم سنا وحدثته آمرة :

« — اسمع ! هذه الليلة رأيت فى حلمى الغراب الأسود ، وقال لى

أن ظل شجر جاو سيكون شؤماً على قائدكم الليلة القادمة . . .

« ولما رأيت أنهم لا يزالون جامدين ممددين وعيونهم شاخصة نحو الأفق كأنهم لم يسمعوا شيئاً أضفت :

« — وعلى أتباعه .

« وكانت الشمس فى كبد السماء ، وكان الكولونيل يتناول الطعام فى المنزل مع غيره من الفرنسيين عندما دخل الميكانيكى وقال :

« — لست أدرى ماذا حدث للبحارة ، إنهم يعملون كالملائكة . فاذا استمروا هكذا يا سيدى الكولونيل فسنستطيع مواصلة السير هذا المساء .

« فقال الكولونيل :

« — هذا حسن ، ولكنى لا أحب أن يفسدوا العمل بسرعتهم . لا داعى للوصول إلى أنسنجو قبل نهاية الأسبوع . . . يستحسن أن نستأنف السير فى الصباح .

« فارتعدت وتقدمت منه متوسلة ، وقصصت عليه قصة حلمى . فاستمع فى ابتسامة الدهش ، ثم قال فى وقار :

« — اتفقنا يا صغيرتى تانيت زرجا . سنبحر الليلة ما دمت تريدين ذلك .

« وقبلنى .

« كان الظلام قد انتشر لما نزلت الباخرة بعد إصلاحها منحنى النهر . وحيانا الفرنسيون طويلا وكنت أرى فى وسطهم صديقى . كانوا يلوّحون بخوذاتهم إلى أن تواروا عن أبصارنا . ثم ظللت واقفة ، وقد أصبحت وحدى على المرسى المترجح ، وجعلت أنظر فى النهر

وهو يسيل ، حتى اختفى فى الليل صوت الباخرة ذات الدخان[١] . »

وتوقفت تانيت زرجا عن الحديث قليلا :

— كانت هذه ليلة جاو الأخيرة . وبينما أنا نائمة والقمر ما زال عالياً فوق الغابة ، نبح كلب ولكنه لم يطل ، وأعقب ذلك صيحات الرجال ثم النساء . . . عويل وصرخات ليس فى الامكان أن تنسى أبداً إذا قدر للمرء أن يسمعها مرة واحدة . ولما طلعت الشمس ألفتنى عارية مع رفيقاتى الصغيرات ونحن نجرى متعثرات نحو الشمال بسبب سرعة الجمال التى يركبها الطوارق الذين يحرسوننا . وفى المؤخرة كانت نساء القبيلة ، وبينهن أمى ، يتبعننا اثنتين اثنتين والمذراق فى أعناقهن . ولم يكن معنا إلا القليل من الرجال . وظل من بقى مع أبى سنى أزكيه الشجاع أجساماً هامدة تحت أطلال جاو العشبية . جاو التى هدمتها مرة أخرى عصابة من أولياء مدين أتوا ليجهزوا على فرنسي الباخرة .

« وأخذ الطوارق يدفعوننا ويدفعوننا لأنهم كانوا يخشون أن يلحق بهم . وسرنا على هذا النحو عشرة أيام تقريباً . وكانت الحال تشتد بنا ما اختفت الذُّرَة والكتان . وأخيراً بالقرب من إيزاكريين ، فى بلاد الكيدال ، باعنا الطوارق لقافلة من المراكشيين الطرارزة كانوا ذاهبين من مبروك إلى غاط . وظننت أول الأمر أن السعد سيلازمنا إذ أبطأنا السير . ولكن فجأة أصبحت الصحراء حصى وصواناً وأخذت النسوة يتساقطن فى حين كان آخر الرجال قد مات منذ أمد طويل تحت ضربات العصا إذ أبوا أن يتقدموا .

---

(١) أنظر محاضر و« مجلة الجمعية الجغرافية بباريس » (١٨٩٧) الخاصة برحلات الكولونيل چوفر قائد منطقة تومبكتو ، والملازمين بودرى وبلوزيه ، والأب هاكار من جمعية الآباء البيض ، على نهر النيجير . (تعليق مسيو لورو .)

« كنت ما زلت أقوى على المسير فى المقدمة ، وكنت أحاول ذلك ما استطعت لكى لا أسمع صرخات رفيقاتى الصغيرات على من تسقط منهن . ومن البديهى أن من تسقط لن تنهض ثانية ؛إذ ينزل أحد الحراس عن مطيته ويجرها قليلا إلى ناحية من القافلة ويذبحها . ولكنى سمعت ذات يوم صرخة اضطرتنى إلى الالتفات إلى الوراء . . . أمى . . . كانت جاثية على ركبتيها وقد مدت إلىّ ذراعيها البائستين . وفى لحظة كنت إلى جوارها ولكن فرق بيننا مغربى ضخم يرتدى البياض وكان يلبس حول عنقه مسبحة سوداء وغمد من الجلد نزع من خنجره . ما زلت أرى السلاح الأزرق على جلدها الأسمر . صيحة أخرى مفزعة . . . وبعد لحظة طردت بضربات هراوة غليظة وأخذت أجرى وأنا أبتلع دموعى لأستعبد مكانى فى القافلة .

« وبالقرب من آبار أسبو هاجم فريق من الطوارق « قل تازحولت »، وهم عبيد القبيلة الكبرى « قل رحالة » التى تسيطر على الحجار ، هاجم تجار الرقيق المغاربة وأبادوهم جميعا . وهكذا جئ بى إلى هنا. وقدمت هدية لأنتينيا التى أعجبت بى وأظهرت منذ ذلك الحين عطفها على . فالتى تخفف اليوم من حمّاك بما تقص عليك من أقاصيص لا تصغى إليها ، ليست بأمة ، بل هى آخر سلالة الأباطرة الكبار السنراويين آخر سلالة سنى علىّ مبيد الرجال والأقطار ، آخر سلالة محمد أزكيه الذى قام بالحج إلى مكة مستصحبا معه ألفا وخمسمائة فارس وثلثمائة مثقال من الذهب . وكان سلطاننا يمتد من بحيرة تشاد إلى التوات والبحر الغربى ، عندما كانت جاو ترفع قبابها عالية بين البلاد الأخرى ، أعدائها ، ترفعها عالية أكثر مما يرتفع الأثل على نبات الذرة المتواضعة .

الفصل السادس عشر

المطرقة الفضية

[لست أمتنع . ولست أريد إلا
أن أعرف أين يجب أن أنحره (١)]

وها هى ذى حالة الجو فى تلك الليلة التى حدث فيها ما سأقصه عليك . فى نحو الساعة الخامسة أظلمت السماء وفى الجو الخانق نذر عاصفة قريبة .

سأذكر ذلك دائماً . كان ذلك يوم ٥ يناير سنة ١٨٩٧ .

كان هيرام الملك وجاليه منطرحين على حصير حجرتى وقد أثقلتهما الهموم . وجعلت أرقب العلامات المنذرة بالبرق وأنا متكئ مع تانيت زرجا على حافة النافذة الصخرية .

وظهرت هذه العلامات واحدة بعد أخرى جاعلة فى الظلمة التى أطبقت فى ذلك الحين خطوطاً زرقاء ، ولكن لم يعقبها رعد . لم تتمكن العاصفة أن تقف عند قمم الحجار ، مرت دون أن تنفجر . وتركتنا غارقين فى عرق كئيب .

فقالت تانيت زرجا :

---

(١) من « أندروماك » ترجمة طه حسين .

— إنى ذاهبة للنوم .

لقد قلت إن حجرتها كانت فوق حجرتى ، وكانت النافذة التى تنيرها تعلو النافذة التى كنت متكئاً عليها بعشرة أمتار .

حملت جاليه بين ذراعيها . أما هيرام الملك فلم يطعها ، تشبث بمخالبه الأربعة فى الحصير وجعل يرسل عواءه فى غضب وحزن .

فقلت لتانيت زرجا آخر الأمر :

— دعيه يمكن أن ينام هنا هذه المرة .

وهكذا يتحمل هذا الحيوان حظا كبيراً من تبعة الحوادث التى ستقع بعد ذلك .

ولما أمسيت وحيداً ، غرقت فى أفكارى . كان الليل حالكاً وقد شمل السكون الجبل كله .

وأخذت زمجرة الفهد تزداد ، فأفقت من تأملاتى .

كان هيرام الملك قد انتصب واقفاً عند الباب وقد أخذ يحفر بأظافره وهو الذى أبى منذ لحظات أن يتبع تانيت زرجا . كان يريد أن يخرج . كان يريد أن يخرج .فقلت :

— حسبك ! هذا كثير . فنم الآن .

وحاولت أن أنتزعه بعيداً عن الباب .

ولم يكن لمحاولتى هذه من نتيجة غير لطمة من مخلبه أضاعت توازنى .

وحينئذ جلست على الأريكة .

ولم يمكث جمودى إلا لحظة قصيرة . وقلت فى نفسى : « لابد أن أكون على شئ من الصراحة مع نفسى . فمنذ تركنى مورانج ، منذ رأيت أنتينيا ، لم يدر بخلدى إلا خاطر واحد . وأى غناء فى أن

أخادع نفسى بقصص تانيت زرجا ، وإن كانت طريفة ؟ إن هذا الفهد علة ولعله يكون رائداً . آه ! إنى لأحس بأن ستقع الليلة أحداث غامضة . فكيف تأتّى لى أن أجمد هكذا طويلا دون أن أفعل شيئاً . »

وفى الحال حزمت أمرى .

وقلت فى نفسى : « لو أنى فتحت الباب لقفز هيرام الملك فى الممرات ، ولكان علىّ أن أتبعه جارياً . لابد أن أغير خطتى . »

كان ثمة حبل رفيع يحرك ستار النافذة فاقتلعته ، وصنعت منه زماماً أثبته فى طوق الفهد الحديدى .

وواريت الباب .

— والآن نستطيع أن نسير . رويداً . رويداً .

ولقد تجشمت مصاعب جمة فى سبيل أن أحد من اندفاع هيرام الملك الذى أخذ يجرنى وراءه مجتازاً الممرات المظلمة .

كانت الساعة دون التاسعة بقليل ، والمصابيح الوردية فى كواتها قد أوشكت أن تنطفىء . وكنا نصادف من حين إلى حين مصباحاً يقذف بآخر أضوائه . ياله من تيه ! وأدركت فى تلك اللحظة أننى لا أستطيع أن أهتدى إلى الحجرة . فلم يكن بد من أن أتبع الفهد .

كان ثائراً أول الأمر ، ثم أخذ يعتاد صحبتى شيئاً فشيئاً وهو ينساب زاحفاً على الأرض ويرسل شهيق الفرح .

ليس ثمة مايشبه ممرا مظلما كممر مظلم . على أنه جال بنفسى خاطر : لو أننى ألفيت نفسى فجأة فى قاعة البكاراه ! على أن هذا يعد ظلما نحو هيرام الملك . لقد حرم هو أيضا شخصاً عزيزاً عليه . إنه يحسن قيادتى إلى حيث أرجو أن يقودنى .

وعند منحنى الممر انقشعت فجأة الظلمة التى كنا نتجه نحوها . وظهرت نافذة صغيرة خضراء حمراء يضيئها نور خافت .

وتوقف الفهد فى تلك اللحظة ، وجعل يعوى عواء مختنقاً أمام أحد الأبواب عند النافذة المنيرة .

فعرفت فيه الباب الذى ولجته أول مرة مع الطارقى الأبيض أصبوحة وصولى ، عندما هاجمنى هيرام الملك وعند ما ألفيت نفسى فى حضرة أنتينيا .

وهمست وأنا ألاطفه حتى لا يصدر عنه صوت يفضحنا :

— إننا اليوم صديقان حميمان .

وحاولت فى اللحظة نفسها أن أفتح الباب . وكانت صورة النافذة فى خضرتها وحمرتها تنعكس على الأرض .

مزلاج صغير أدرته . وفى هذه اللحظة قصرت من الزمام لكى أتمكن جيداً من هيرام الملك ، وقد صار مهتاج الأعصاب .

كان الظلام يخيم على القاعة التى رأيت فيها أنتينيا لأول مرة . ولكن الحديقة التى تطل عليها كانت تلمع تحت أشعة باهتة يرسلها القمر من سماء أثقلتها عاصفة لما تهب . ما من نسمة . وكانت البركة تلمع كقطعة من القصدير .

وجلست على إحدى الوسائد فى حين أخذ الفهد يزمجر نافد الصبر ، وقد أطبقت عليه بركبتىّ . وأخذت أفكر لا فى الغاية — إذ كنت عقدت العزم عليها منذ أمد طويل — ولكن فى الوسيلة إليها .

وحينئذ ، خيل إلىّ أننى أسمع كلاماً يأتى من بعيد ، همهمة أصوات خافتة .

وعلت زمجرة هيرام الملك ، وحاول أن يفلت . فأطلت له الزمام

قليلا وراح يتسلل ملتصقاً بالجدران المعتمة ، متجهاً نحو ما بدا لى أنه مصدر الصوت . فتبعته وأنا أتعثر فى الوسائد المنتثرة دون أن أحدث صوتاً ملحوظاً .

والآن ، وقد تعودت النظر فى الظلام ، رأيت هرم البسط حيث كانت أنتينيا قد ظهرت لى .

وتعثرت فجأة . كان الفهد قد توقف عن المسير . وشعرت أنى قد مشيت على ذيله . يا له من حيوان أمين ! إنه لم يصرخ .

وشعرت بباب آخر وأنا أتحسس الجدار . ففتحته كالسابق فى كثير من الخفة . فأرسل الفهد زمجرة ضعيفة .فتمتمت :

— هيرام الملك ! صه .

ولففت عنقه القوى بذراعى .

وأحسست بلسانه الرطب الدفىء على يدى . كانت فرائصه ترتعد كأن سعادة بالغة تهزها .

وظهرت أمامنا قاعة أخرى ، أضئ الجزء الأوسط منها وحده . وفى منتصفها كان ستة رجال يجلسون القرفصاء على حصير يلعبون النرد وهم يحتسون القهوة فى أقداح نحاسية صغيرة طويلة العنق . إنهم الطوارق البيض .

وكان مصباح معلق فى السقف يضئ حلقتهم والظلام يغمر كل ما حولها .

وكانت الوجوه السوداء والأقداح النحاسية والبرانس البيضاء والظلام والضوء المتحركان ، كان كل ذلك يكوّن لوحة فنية فريدة .

كانوا يلعبون فى جد وتفكير معلنين عن ضرباتهم بأصوات جافية .

وحينئذ وفى هدوء أيضاً نزعت الزمام من طوق الحيوان الصغير الافند الصبر .

-. إذهب يا بنىّ .

وقفز وهو يعوى عواء حادا . وحدث ما كنت أتوقع . لقد بلغت القفزة الأولى بهيرام الملك وسط الطوارق البيض؛ فأحدث اضطرابا فى هيئة الحراس . وفى قفزة أخرى دخل فى الظلام . لمحت فى ابهام ، فى الجانب الآخر للقاعة ، مدخلا مظلما لممر آخر مواجه للممر الذى كنت توقفت فيه .

فقلت لنفسى : « إنها هناك . »

وكان الاضطراب فى الحجرة لا يوصف و إن كان صامتاً ،وكان جليا أن مجاورة شخصية هامة هى التى فرضت هذا التحفظ على الحراس المتخوفين . كانت النقود وأبواق الزهر قد تدحرجت جانباً على حين تدحرجت الأقداح فى جانب آخر .

وأخذ اثنان من الطوارق يدلكان جوانبهما ويبديان السخط لألم اعتراهما .

وليس ثمة مايدعو إلى القول بأنى اهتبلت فرصة هذا الاضطراب الصامت لأتسلل إلى الحجرة .

وأصبحت الآن ملتصقاً بجدار الممر الثانى . . . الممر الذى اختفى فيه هيرام الملك .

وفى تلك اللحظة قطع السكون رنين واضح . وتبينت من الرعدة التى انتابت الطوارق أن الطريق التى اتبعتها هى الصواب .

ونهض رجل من الستة ، ومر بجوارى فاقتفيت خطاه . وكان هدوئى تاما ، وكانت كل حركاتى متزنة .

وقلت فى نفسى: « وبم أخاطر وأنا فى هذا الموقف؟ أن يعيدونى إلى حجرتى فى أدب جم . »

ورفع الطارقى ستاراً ودلفت وراءه إلى حجرة أنتينيا .

كانت الحجرة الكبيرة مضاءة ومظلمة فى وقت واحد . وبينما كان الجزء الأيمن حيث تقف أنتينيا يلمع من الضوء الذى ترسله مصابيح ذات مظلات ، كان الجزء الأيسر مظلما .

إن من دخل بيوت المسلمين يعرف ما هو « الجنيول » ، وهو كوة مربعة فى الجدار على ارتفاع أربعة أقدام سد مدخلها ببساط ، يرقى إليها المرء بأربع درجات خشبية . وتراءى لى « جنيول » على اليسار، فولجته . كانت عروقى تنبض فى الظلام غير أنى كنت هادئاً جدا .

ومن هذا المكان كنت أرى كل شئ وأسمع كل شئ .

كنت فى حجرة أنتينيا . لا شئ غريب فى هذه الحجرة سوى بعض السجاجيد الفاخرة . كان السقف مظلما ، غير أن ثمة مصابيح متعددة الألوان كانت ترسل على الأقمشة البراقة والفراء أضواء متباعدة رقيقة .

كانت أنتينيا تدخن وهى ممددة على جلد أسد ، وبجانبها صينية من فضة وإبريق . وكان هيرام الملك قد جثم عند قدميها يلعقهما فى شغف . وكان الطارقى الأبيض قد وقف جامداً واضعاً يداً على قلبه والأخرى على جبهته فى هيئة تحية .

وتكلمت أنتينيا فى صوت جاف دون أن تنظر إليه :

— لم تركتم الفهد يمر؟ قلت إننى أريد أن أكون وحيدة .

فقال الطارقى الأبيض فى خشوع :

— لقد داهمنا يا مولاتى .

— لم تكن الأبواب موصدة إذن ؟

لم يجب الطارق ، وسأل :

— أيجب أن أقصى الفهد ؟

وكانت عيناه على هيرام الملك ، الذى كان ينظر إليه فى غير اكتراث ، تعبران عن أمله فى أن يكون الجواب بالسلب .

وقالت أنتينيا :

— دعه مادام قد جاء إلى هنا .

كانت تنقر خفيفاً على الصينية بغليونها الفضى .

وسألت :

— ماذا يفعل الكابتن ؟

فأجاب الطارق :

— لقد تناول عشاءه بشهية منذ قليل .

— ألم يقل شيئاً ؟

— بلى ! لقد طلب أن يقابل رفيقه الضابط الآخر .

وأخذت أنتينيا تنقر الصينية نقرات أخف .

— ألم يقل شيئاً غير ذلك ؟

فأجاب الرجل :

— لا يا سيدتى .

وجرى الامتقاع على جبهة غانية أطلنطا .

وخرج الطارق بعد أن كفر .

استمعت إلى هذا الحديث فى قلق لا يمكن الافصاح عنه . هكذا مورانج . . . مورانج . . . أصحيح إذن ؟ أكان ظلما منى أن ارتبت

فى أمر سورانج ؟ لقد أراد أن يرانى ولكنه لم يستطع . . .
ولم أحول نظرى عن أنتينيا .

لم تعد تلك الأميرة المتعجرفة الساخرة كما كانت فى أول مقابلة لنا . ولم أعد أرى على رأسها الثعبان الذهبى ولا الأساور ولاالخاتم . كانت تضع فقط قميصاً واسعاً . وكان شعرها الأسود طليقاً من غير رباط وكان يشبه غطاء من الأبنوس وقد استرسل على كتفيهـا النحيفتين وذراعيها العاريتين .

كان جفناها الجميلان العريضان مصبوغين بلون أزرق وفمها الالهى ينحرف به ميل يائس . ترى أخامرنى فرح أم ألم حين رأيت كليوباترة الجديدة هذه ترتعد على هذا النحو؟لست أدرى .

كان هيرام الملك وهو جاث عند قدميها يرنو إليها فى خضوع .

وكانت مرآة من الأوريشلك ذات بريق ذهبى مثبتة فى الجدار الأيمن . وفجأة نهضت أنتينيا لتمثل أمامها ، فرأيتها عارية .

أى منظر مرير أخاذ ! كيف تمثل أمام المرآة إمرأة تعتقـد أنها وحيدة ، وهى تنتظر الرجل الذى تريد أن تخضعه لسلطانها .

وكانت تتصاعد أعمدة من الدخان العطر من ست مباخر منتثرة فى أرجاء الحجرة . وكانت العطور الباسمية العربية يكوّن دخانها نسيجاً متموجاً هدأ من ثورة حواسى . . . كانت أنتينياتبتسم وقد استدبرتنى بظهرها وما زالت فى استقامتها كالزنبقة أمام المرآة .

ورنّت خطوات صماء فى الممر ، وسرعان ما اتخذت أنتينيا مظهر الاسترخاء الذى بدت لى فيه لأول مرة . لابد للمرء أن يرى مثـل هذا المنظر لكى يؤمن به .

ودخل سورانج الحجرة وقد سبقه الطارقى الأبيض .

كان هو أيضاً شاحباً بعض الشئ . ولكن أدهشني خاصة هذا التعبير الهادئ الذى كان يبدو على هذا الوجه الذى كنت أعتقد أنني أعرفه . وشعرت أنني لم أفهم قط أى رجل كان سورانج .

ووقف منتصب القامة بين يدى أنتينيا دون أن يظهر أنه لاحظ حركة الدعوة إلى الجلوس التى أبدتها .

ونظرت إليه وهى تبتسم .وأخيراً قالت :

— لربما أدهشك أن طلبت إحضارك فى مثل هذه الساعة المتأخرة .

ولم تتحرك قط أهداب سورانج .

وسألته :

— هل فكرت مليا ؟

وابتسم سورانج ابتسامة رزينة ولم يجب .

ولمحت على وجه أنتينيا ماتبذله من مجهود لتحتفظ بابتسامتها ؛ كنت أعجب برباطة جأش هذين المخلوقين .

واستأنفت قائلة :

— لقد طلبت إحضارك . أتدرى لم ؟ لأخبرك بشئ لا تتوقعه مطلقاً . لست أنبئك بشئ جديد إذ أقول لك إننى لم أصادف رجلا مثلك ؛ فانك لم تبد طيلة أسرك عندى إلا رغبة واحدة . لعلك تذكر ما هى .

فقال سورانج فى بساطة :

— لقد طلبت منك الاذن لى برؤية صديقى قبل أن أموت .

لست أدرى أى الشعورين تغلّب فى قلبى على الآخر عند سماعى هذه الكلمات : الفرح أم التأثر ؛ الفرح أن أرى أن الكلفة

لم ترفع بين سورانج وأنتينيا . والتأثر إذ أعلم رغبته الوحيدة .

غير أن أنتينيا قالت فى صوت هادئ :

— بالضبط . وقد دعوتك للحضور لهذا الغرض ، ولأقول لك إنك ستراه بل أزيد على ذلك . لربما زاد احتقارك لى حينما تتبين أنه يكفيك أن تعاندنى لتضطرنى إلى الخضوع لارادتك ، أنا من أخضعت حتى اليوم الآخرين جميعاً لارادتى . ومهما يكن من شئ فقد قررت أن أخلى سبيلكما أنتما الأثنين ، وغداً سيقودكما صغير بن شيخ إلى خارج الجدران الخمسة . أيرضيك كل هذا ؟

فأجاب سورانج وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

— نعم .

كانت أنتينيا تنظر إليه . ثم عاد وقال :

— سيهئ لى ذلك أن أعد رحلتى القادمة التى عزمت أن أقوم بها إلى هنا على وجه أحسن . إذ أنك لا تشكين فى أنى مصمم أن أعود لأعبر لك عن وفائى ، ولكن فى تلك المرة سأطلب إلى حكومتى أن تعهد إلىّ بمائتى أو ثلاثمائة جندى أوربى وبضعة مدافع أيضاً لأقدم للملكة عظيمة ما هى خليقة به من حفاوة و إجلال .

ونهضت أنتينيا فى شحوب شديد :

— ماذا تقول ؟

فأجاب سورانج فى برود :

— أقول إنى كنت أتوقع هذا : الوعد بعد الوعيد .

وتقدمت أنتينيا فجأة نحوه وكان قد شبك ذراعيه بعضهما ببعض وأخذ ينظر إليها نظرة رثاء . وأخيراً قالت :

— سأجعلك تموت من التعذيب .

فأجاب سورانج :

— إننى أسيرك .

— ستقاسى عذاباً لا يمكنك أن تتخيله .

وكرر سورانج فى الهدوء الحزين ذاته :

— إننى أسيرك .

كانت أنتينيا تدور فى الحجرة كحيوان سجين فى قفصه ، وذهبتْ نحو رفيقى ولطمته على وجهه طائشة الصواب . فابتسم وسيطر عليها وقد ضم معصميها الدقيقين اللذين أمسك بهما متلاصقين فى مزيج غريب من قوة ورقة .

وزمجر هيرام الملك . وظننت أنه سيقفز . ولكن نظرات سورانج الباردة ألزمته مكانه مبهوتاً .

وتمتمت أنتينيا :

— سأقتل رفيقك أمامك .

فبدا لى أن شحوب سورانج قد زاد وكان ذلك للحظة قصيرة . وأجاب بجملة راعنى ما فيها من نبل وتبصر :

— إن زميلى شجاع لا يخشى الموت . وأنا واثق أنه يؤثره على حياة أردها له بالثمن الذى تعرضينه .

كان قد ترك معصمىْ أنتينيا وهو يقول هذه الكلمات . وغدت هى فى شحوب مزعج . وأحسست كأن الأوامر القاطعة ستخرج من فيها وقالت :

— صه !

ما كان أجملها حينذاك فى عظمتها المحتقرة وفى جاهها الذى فقد سلطانه لأول مرة ! وعادت تقول :

— صه . صه ! للمرة الأخيرة . فكّر فى أننى أضع يدى على أبواب هذا القصر . فكّر فى أن لى سلطاناً عظيما على حياتك . فكر أنك لا تتنفس إلا بقدر ما أحبك . فكر . . .

فقال سورانج :

— لقد فكرت فى كل هذا .

فكررت أنتينيا :

— مرة أخيرة .

كان الهدوء الذى يبدو على وجهه جد عجيب ، حتى صرت لا أرى وجه محدثته . لم يكن ثمة شئ أرضىّ فى هذا الوجه المتغير .

وقال صوت أنتينيا المتكسر تقريباً :

— مرة أخيرة .

لم يكن سورانج يراها .

وقالت :

— إذن فطب نفساً .

ودوّى صوت واضح . لقد دقت الجرس الفضى ، فظهر الطارق الأبيض .

— أخرج .

وخرج سورانج مرتفع الرأس .

. . . .

والآن أنتينيا بين ذراعى . ليست هى المتكبرة المزدرية الشهوانية التى أضمها إلى صدرى . لم تعد إلا فتاة صغيرة بائسة مهانة . هكذا كان شأنها . لم تدهش عندما رأتنى أقفز إلى جانبها . إن رأسها على كتفى . ورأيت وجهها يظهر ويختفى بين شعرها المرسل كأنه

الهلال بين السحب . ويطوقنى ساعداها الدافئان فى رعشة . . .
« آه أيها القلب البشرى الخفاق . . . »

من يستطيع مقاومة مثل هذا العناق بين هذه العطور الذكية وهذه النداوة الليلية ! أشعر أننى أصبحت مخلوقاً مقعداً . أهذا صوتى ، ذلك الصوت الذى يغمغم :

— ماتريديه ، ما تطلبيه ، فسأفعله ، فسأفعله .

إن حواسى لمرهفة . ويستند رأسى المائل إلى الوراء على ركبة صغيرة عصبية رقيقة . . . وتدور سحب العطور . وخيل الى فجأة أن مصابيح السقف الذهبية أخذت تتحرك كأنها مباخر ضخمة . أهذا صوتى ، ذلك الصوت الذى يردد فى حلم :

— ما تريديه فسأفعله .

ألمح وجه أنتينيا كأنه لاصق بوجهى . ومر وميض غريب فى حدقة عينيها الكبيرتين .

وعلى بعد أرى حدقتىْ هيرام الملك البراقتين و بجانبه ثمة منضدة صغيرة من القيروان زرقاء ذهبية . وعلى المنضدة أرى الجرس الذى تستخدمه أنتينيا فى دعاء أعوانها . وأرى المطرقة التى طرقت بها منذ لحظة . مطرقة ذات يد طويلة من الأبنوس ورأس فضى . المطرقة التى قتل بها الملازم الصغير كين . . .

صرت لا أرى شيئاً . . .

الفصل السابع عشر

عذارى الصخور

واستيقظت فى حجرتى والشمس فى الأصيل تملؤها بضوء وحرارة لا يمكن احتمالها .

وأول ما رأيت عندما فتحت عينى الستار منزوعاً وملقى به فى وسط الحجرة . وحينئذ بدأت أحداث الليلة الماضية تعاودنى فى غموض.

وكان رأسى المثقل يؤلمنى . وكان عقلى حائراً وذاكرتى تعبّ بالأحداث . « إنى خرجت مع الفهد . هذا مؤكد ! إن العلامة الحمراء فى سبابتى لدليل على القوة التى كان يجذب بها الزمام . وإن ركبتى ما زالتا ملطختين بالتراب . لقد زحفت فعلا لحظة على طول جدار الحجرة التى كان الطوارق يلعبون فيها النرد عندما قفز هيرام الملك .وبعد ذلك ؟ آه! نعم . سورانج وأنتينيا . . . ثم بعد ذلك ؟... »

لا أدرى . ولكن لابد أن ثمة شيئاً خطيراً . . . شيئاً لم أعد أذكره قد حدث .

واعترانى قلق . كنت أريد أن أذكر هذا الشئ ، غير أنه كان يخيل إلىّ أننى أخشى أن أتذكره . لم أشعر بشئ أكثر إيلاماً من هذا التناقض .

« كانت الطريق طويلة من هنا إلى جناح أنتينيا . لابد أننى

كنت غارقاً فى النوم حينما نقلت إلى هنا — لأننى نقلت إلى هنا بالفعل — حتى إننى لم ألحظ شيئاً . »

ووقفت بحوثى عند هذا الحد . كنت أشعر بصداع شديد فى رأسى فغمغمت :

— فلأخرج لأستنشق الهواء . إن الجو لحار هنا . أكاد أجن .

كنت فى حاجة إلى أن أرى أناساً أيا كانوا ، واتجهت دون تفكير إلى المكتبة ، فوجدت مسيو لميج فى حالة فرح جنونى . كان الأستاذ يفتح طرداً محوكاً بعناية فى غطاء أسمر .

فصاح حين رآنى داخلا :

— لقد جئت فى الوقت المناسب يا سيدى العزيز . وصلت المجلات الآن .

كان يتحرك فى سرعة المحموم ، وقد تدفق من جانب الطرد سيل من الكتب الزرقاء والخضراء والصفراء والحمراء .

واستطرد قائلا وهو يرقص من شدة الفرح :

— هلم . هلم ! كل شئ حسن . ليس ثمة من تأخير كبير مادامت أعداد أكتوبر موجودة . يجب أن نهنئ عمراً .

وكان فرحه شديداً مبهجاً .

— إنه التاجر التركى المحترم فى طرابلس الذى يقبل الاشتراكات فى المجلات القيمة بالقارتين ، ويرسلها إلى جهة لا تهمه كثيراً عن طريق غداميس . ولكن هاهى ذى المجلات الفرنسية .

كان مسيو لميج يتصفح الفهارس كالمحموم :

— سياسة داخلية : مقالات من السادة فرنسيس شارم ، أناتول ليروا بولييه ، دى هوسنفيل عن رحلة القيصر إلى باريس . وهذا

بحث عن الأجور فى القرون الوسطى بقلم السيد دافنل . وها هى ذى أشعار — أشعار من شعراء الشبان . . . فيرنان جريج وإدمون هاروكور . آه ! نقد لكتاب هنرى دى كاسترى عن الاسلام . هذا يبدو أنه على حظ كبير من الأهمية . . . ولكن يا سيدى العزيز أرجو أن تأخذ لنفسك مايروقك .

إن الفرح يجعل الناس محبوبين . وكان مسيو لميج يهذى حقا .

وكان نسيم خفيف يدخل فى هذه اللحظة من النافذة ، فاقتربت من حافتها ، وأخذت أتصفح عدداً من « مجلة العالمين » وأنا متكئ على حاجز النافذة .

كنت لا أقرأ بل أتصفح وعيناى تجرى تارة على الصفحات حيث تزدحم الحروف الصغيرة السوداء ، وتارة أخرى على الوعاء الصخرى الذى بدا ورديا باهتاً تحت أشعة الشمس المنحدرة .

وفجأة أخذ انتباهى يستيقظ . كانت ثمة صلة غريبة بين النص الذى أتصفحه والمنظر الطبيعى .

« لم يبق بالسماء من فوقنا إلا بعض الآثار الخفيفة من السحاب كأنها شئ من الرماد الأبيض الذى يتخلف عن احتراق الحطب . وكانت الشمس تلهب قمم الصخور جميعاً مبرزة فى السماء خيوطها العظيمة . وكان يهبط من علٍ داخل الجدار الوحيد شجان وعذوبة عظيمان كأنهما شراب سحرى فى كأس عميقة . . . (١) »

---

(١) جبرييل دانتزيو : « عذارى الصخور » . أنظر « مجلة العالمين » ١٥ اكتوبر ١٨٩٦ صفحة ٨٠٧ وما يليها .

وفليت الصفحات فى انفعال ، وبدت أفكارى أكثر وضوحاً .

كان مسيو لميج يجلس خلفى غارقاً فى نسخة من إحدى المجلات وهو يزمجر استنكاراً مما يقرؤه .

وتابعت اطلاعى .

« ومن كل جانب ، فى هذا الضوء الوضاح ، كان يمتد تحت أقدامى منظر جميل جدا . كانت سلسلة الصخور وهى تظهر برمتها فى جدبها الموحش إلى أعلى قمتها تمتد كأنها كومة من أشياء ضخمة ليس لها شكل ، قامت لتبعث دهشة الانسان ، دليلا على الضخامة الأولى . أبراج مهدمة . . .

وكان الأستاذ يقول مكرراً :

— هذا مخجل ، مخجل تماماً .

« أبراج مهدمة ، وقلاع مدمرة ، وأقباء متساقطة ، وعمد محطمة ، وتماثيل ضخمة مهمشة ، صدور سفن ، وأعجاز وحوش ، عظام عمالقة ، إن هذا الجرم يمثل بمرتفعاته ومنخفضاته كل ما يوجد من ضخامة . وكانت الأقاصى من النقاء . . .

وكان مسيو لميج يقول فى غضبته وهو يضرب المنضدة بقبضة يده :

— هذا مخجل حقا .

« وكانت الأقاصى من النقاء بحيث كنت أميز كل دائرة مضخمة

كأنها تقع تحت بصرى مباشرة . كنت أميز الصخرة التى أرانيها فيولنتيه من النافذة فى إيماءة منشئة . . . »

وأقفلت المجلة وأنا أرتعد . تحت قدمى صخرة ضخمة منحدرة ، قد حلتها حمرة ، تسيطر على الحديقة الحمراء ، وهى الصخرة البيضاء التى أشارت إليها أنتينيا يوم مقابلتنا الأولى .

لقد قالت :

— إنها أفقى كله .

والآن قد جاوز غضب لميج الحد :

— إنه ليس مخجلا فحسب بل شائن !

وددت لو خنقته لأسكته . كان قد أمسك بذراعى ليستشهد بى :

— سيدى ! سنقرأ هذا مع أنك غير متخصص فى هذه المواضيع . سترى أن هذا المقال عن أفريقيا الرومانية عجيب ؛ فهو تمثال من قلة الادراك والجهل . وهذا المقال ، أتدرى بقلم من هو؟

فقلت له فى عنف :

— دعنى وشأنى .

— إنه بقلم جاستون بواسييه . نعم يا سيدى ! جاستون بواسييه حامل وسام اللجيون دونير بدرجة فارس ، والأستاذ بمدرسة النورمال العليا ، السكرتير الدائم للمجمع اللغوى الفرنسى ، العضو فى مجمع النقوش والآداب وأحد الذين رفضوا رسالتى ، أحد الذين . . . يا للجامعة البائسة ! يا لفرنسا البائسة !

لم أكن أصغى إليه ، وعاودت القراءة . كانت جبهتى غارقة فى العرق . ولكن كان يبدو لى أن الذكريات تتضح فى رأسى كحجرة

تفتحت نوافذها واحدة بعد أخرى . عادت الذكريات إلى رأسى كما يعود الحمام إلى برجه يرفرف بجناحيه .

« وثمة رعدة لا تقاوم كانت تهزها جميعا . وأخذت عيناها تتسعان كأن رؤيا مفزعة ملأتهما رعباً .

« وتمْتَمَتْ :

« — أنطونيللو . . .

« لم تستطع لمدة ثوان أن تفوه بغير هذه الكلمات .

« ونظرتُ إليها فى قلق لا يوصف وروحى يتعذب لما يعرو شفتيها العزيزتين من تشنج . وانتقلت إلى عينى الرؤيا التى كانت فى عينيها ورأيت من جديد وجه أنطونيللو الشاحب النحيف . كانت خلجات جفنيه السريعة وأمواج القلق التى أخذت تهزه كأنه التمام قد ملأت فجأة جسمه الطويل النحيف . »

وألقيت بالمجلة على المنضدة لا أبغى متابعة القراءة .

وقلت :

— نعم ! هو ذاك بالضبط .

كنت قد استخدمت فى فصل الصفحات سكيناً استعملها مسيو لميجُ فى قطع حبال الطرود ، وهى خنجر قصير ، مقبضه من الأبنوس . كان من تلك الخناجر التى يحملها الطوارق فى غمد له سوار يلتصق بعضلات أذرعتهم اليسرى .

فوضعته فى جيب حُلّتى الصوفية الواسع واتجهت نحو الباب .

وكدت أعبر الباب حين سمعت مسيو لميج ينادينى :

— مسيو دى سانت أفيت ! مسيو دى سانت أفيت !

فالتفت :

— استعلام بسيط من فضلك .

— ماذا تريد ؟

— آه لا شئ كثير . لعلك تعلم أننى مكلف بوضع البطاقات فى قاعة المرمر الأحمر .

فاقتربت من المنضدة .

— لقد نسيت أن أستفهم أولا من السيد مورانج عن تاريخ مولده ومكانه . لم تسنح لى الفرصة بذلك إذ لم أعد أراه ، بحيث أصبحت الآن مضطرا إلى الاستعانة بك . أيمكنك أن تنبئنى ؟

فقلت فى هدوء :

— نعم ! يمكننى ذلك .

وأخذ بطاقة من الورق المقوى الأبيض من صندوق يحتوى على كثير منها وغمس ريشته فى الحبر .

— نقول إذن : رقم ٥٤ . . . كابتن ؟

— الكابتن جان مارى فرنسوا مورانج .

وبينما أنا أملى عليه ويدى على حافة المنضدة لمحت على كمى الأبيض بقعة صغيرة حمراء قاتمة .

فأعاد مسيو لميج وهو ينتهى من كتابته اسم زميلى .

— مورانج . ولد فى . . .

— فيل فرانش .

— فيل فرانش . رون . التاريخ ؟

— ١٤ أكتوبر سنة ١٨٥٩ .

— ١٤ أكتوبر سنة ١٨٥٩ . هذا حسن . توفى فى الحجار فى ٥ يناير ١٨٩٧ . ها قد انتهت المهمة . وجزيل شكرى يا سيدى العزيز لظرفك .

— أنا فى خدمتك يا سيدى .

وبعدئذ تركت مسيو لميج فى سلام .

كنت قد اعتزمت نهائيا . وأكرر أن هدوئى كان تاماً . ومع ذلك شعرت حينما تركت مسيو لميج بضرورة أن أفصل بين العزم والتنفيذ ببضع لحظات . وجعلت أسير أول الأمر فى الممرات . حتى اذا ألفيت نفسى بالقرب من حجرتى توجهت إليها وولجتها . كانت كعهدى بها فى حرارة غير محتملة .

فجلست على أريكتى وأخذت أفكر .

كان الخنجر يضايقنى فى جيبى ، فأخرجته ووضعته على الأرض .

كان خنجراً متيناً ذو سلاح معين الشكل ، وكان بين المقبض والسلاح حلقة من الجلد الأحمر .

وذكرنى منظره بالمطرقة الفضية . وتذكرت ما أحسست به من سهولة حينما أمسكتها وضربت . . .

وعاودتنى جميع تفاصيل الحادثة بوضوح لا شبيه له . ولكن لم تعرنى أية رعدة . كان يبدو لى أن عزيمتى على أن أقتل المحرضة على الجريمة قد مكنتنى من أن أستعيد فى برود هذه التفصيلات الوحشية .

وإذا ما فكرت فى فعلتى كنت أدهش منها دون أن أقر بذنبى .

وقلت فى نفسى :

« ماذا ؟ إن مورانج هذا الذى كان طفلا والذى كلف أمه العذاب كالآخرين فى أثناء مرضه وهو رضيع ، أنا قتلته . لقد انتهت هذه الحياة وأرسلت إلى العدم هذا الهيكل من الحب والدموع والعقاب المتغلب عليها التى تكوّن حياة آدمية . حقا يالها من مغامرة شاذة ! »

كان هـذا هو كل شئ . لا خوف ولا تأنيب ضمير ، ولا هذا الرعب الذى يسود مسرحيات شكسبير عقب القتل والذى يحملنى اليوم ، وأنا متشكك ، جامد الحس ، يقظاً أكثر من أى شخص آخر ، على أن أرتعد فجأة إذا انفردت ليلا فى حجرة مظلمة . وقلت فى نفسى :

— هلم ! لقد حانت الساعة . يجب أن أنتهى من ذلك .

تناولت الخنجر . وقبل أن أعيده إلى جيبى قمت بحركة الطعن . كان كل شئ مرضياً : كان مقبضه ثابتاً فى يدى .

لم يحدث لى أن قطعت الطريق المؤدية إلى جناح أنتينيا بغير رائد . فى أول مرة كان رائدى الطارقى الأبيض ، وفى الثانية الفهد . غير أنى اهتديت إليها فى غير مشقة . وقبل أن أصل إلى الباب ذى النافذة المنيرة بقليل ، صادفت أحد الطوارق .

فقلت له آمراً :

— إفسح لى الطريق . لقد طلبتنى سيدتك .

فانزوى الرجل مطيعاً .

وبعد قليل وصلت إلى أذنى أغنية مختنقة . فعرفت صوت الربابة وهى آلة موسيقية ذات وتر واحد تستعملها نساء الطوارق . كانت عجيدة هى التى توقع عليها وهى جالسة القرفصاء كالعادة عند قدمى

سيدتها . وكانت النساء الثلاث الأخريات يحففن بها كذلك . ولم تكن هناك تانيت زرجا .

آه ! بما أن هذه هى آخر مرة رأيتها فيها فلتدعنى أحدثك عنها وأخبرك كيف بدت لى فى هذه اللحظة الأخيرة .

أكانت تستشعر الخطر الذى يحدق بها ؟ وهل أرادت أن تتحدى هذا الخطر بالتجائها إلى حيلها التى لا تقهر ؟ كان قد علق بذهنى ذلك الجسد النحيف العارى الذى ضممته إلى صدرى فى الليلة السابقة وهو عاطل من الخواتم والحلى . وهأنذا أكاد أقفل راجعاً ، إذ أجد أمامى امرأة مزينة كأنما هى إلهة . امرأة ؟ لا ! بل ملكة .

كان يثقل هذا الجسد النحيف تبرج الفراعنة الهائل . كانت تحمل على رأسها تاج الآلهة والملوك ، وهو ذهبى ضخم قد رسم اسمها عليه بالزمرد — وهو حجر الطوارق الوطنى — رسم مرات ومرات بحروف تيفينارية . كانت تلبس الكنتى كأنه مسح كهنوتى . كان الكنتى من الحرير الأحمر موشى بالذهب وبأزهار اللوتس . وكان عند قدميها صولجان من الأبنوس ينتهى بثلاث شعب . وكان يحيط بذراعيها العاريتين ثعبانان يرتفع رأساهما إلى إبطيها كأنهما يكمنان فيهما . وكان ينحدر من جانبى التاج عقد من الزمرد يمر صفه الأول تحت ذقنها العنيد على هيئة رباط الرقبة على حين تتدلى الصفوف الأخرى مستديرة على نحرها العارى .

ولما دخلت ابتسمت ، وقالت فى بساطة :

— كنت فى انتظارك .

فتقدمت ، ولما صرت على أربع خطوات من العرش توقفت تجاهها تماماً .

فنظرت إلىّ نظرة استهزاء ، وقالت فى هدوء تام :

— ما هذا ؟

وتتبعت اتجاه حركتها ، فرأيت مقبض الخنجر يبرز من جيبى . فأخرجته كله وأمسكت به بقوة فى يدى على استعداد للطعن . وقالت أنتينيا لنسائها فى برود وقد أثارت إيماءتى بينهن تمتمة فزع :

— إن أول واحدة منكن تبدى أقل حركة ، سآمر بتركها عارية على بعد ستة فراسخ من هنا فى وسط الصحراء الحمراء .

وأردفت تخاطبنى :

— حقا إن هذا الخنجر لدميم . ويبدو لى أنك تسئ مسكه . أتريد أن أبعث بسيدة إلى حجرتى لتحضر لك المطرقة الفضية ؟ إنك تحسن استعمالها أكثر من الخنجر .

فقلت فى صوت مختنق :

— أنتينيا سأقتلك .

فقالت وهى تشير إلى النساء وقد سترن أعينهن من الخوف :

— لا تتكلف فى حديثك معى . لقد رفعت الكلفة بيننا أمس . ألا تجرؤ على رفع الكلفة أمامهن ؟

وأردفت :

— تقتلنى ؟ إن تصرفك هذا لا يتفق مع ما تكنه فى دخيلة نفسك . أتقتلنى فى اللحظة التى تستطيع فيها أن تجنى ثمرة قتل الآخر .

فقلت فجأة وأنا أرتعد :

— هل . . . هل تعذب ؟

— قليلا ! لقد قلت لك إنك استعملت المطرقة كما لو كنت اعتدت استعمالها طيلة حياتك .

فغمغمت :

— مثل كين الصغير ؟

فارتسمت على وجهها ابتسامة دهشة .

— آه ! إنك تعرف هذه القصة . . . نعم مثل كين الصغير . إن كين كان معقولا . أما أنت . . . فلست أفهم .

— وأنا أيضاً لست أفهم تماماً .

كانت تنظر إلىّ فى فضول سرح . قلت :

— أنتينيا !

— ماذا ؟

— لقد نفذت ما طلبت إلىّ أن أفعله . هل أستطيع بدورى أن أوجه إليك رجاء ، أن ألقى عليك سؤالا ؟

— تكلم .

— هل كانت الحجرة التى وجدناه فيها مظلمة ؟

— مظلمة تماماً . واضطررت أن أقودك الى الأريكة حيث كان نائماً .

— كان نائماً ! أواثقة أنت من هذا ؟

— أؤكد ذلك .

— إنه . . . لم يمت فى الحال . أليس كذلك ؟

— لا . أنا أعرف تماماً متى مات . . . دقيقتين بعد أن ضربته وهربت وأنت تصيح .

— حينئذ هو لم يعرف بغير شك . . .

— ماذا ؟

— إننى أنا الذى أحمل . . . المطرقة .

قالت أنتينيا :

— كان من المستطاع ألا يعرف شيئاً بالفعل . ولكنه عرف .

— كيف ؟

فقالت وهى تحدق بنظرها فى عينى فى شجاعة فائقة :

— عرف ذلك لأننى قلته له .

فغمغمت :

— وهل صدقك ؟

— لقد عرفك بمساعدتى من الصيحة التى بدرت منك .

وأتمت حديثها فى ضحكة ازدراء :

— إذا لم يكن عرف أنه أنت لم يكن ثمة قيمة للحادث عندى .

لقد قلت إن أربع خطوات تفصلنى عن أنتينيا . فاجتزتها فى وثبة واحدة ، ولكن قبل أن أتمكن من طعنها سقطت على الأرض .

كان هيرام الملك قد أطبق على عنقى .

وسمعت فى اللحظة ذاتها صوت أنتينيا يأمر فى هدوء :

— نادوا الرجال .

وبعد هنيهة كنت قد خلصت من قبضة الفهد . . . وأحاط بى الرجال الستة ، وحاولوا أن يوثقونى .

إننى قوى وعصبى جدا . وتمكنت من النهوض لحظة قصيرة . كان أحد أعدائى ملقى على بعد عشرة أقدام وقد وجهت إليه فى ذقنه لكمة على أحسن قواعد فن الملاكمة ؛ وكان آخر يئن تحت ركبتى . وحينئذ رأيت أنتينيا لآخر مرة . كانت واقفة ومتكئة بيديها

على صولجانها الأبنوسى تشاهد المعركة بابتسامة اهتمام ساخر .

وفى اللحظة نفسها أرسلت صيحة عالية ، وتركت فريستى : قرقعة فى ذراعى الأيسر . كان أحد الطوارق قد خلع كتفى بعد أن قبض على ذراعى من الخلف ولواها .

ولما غشى علىّ تماماً كان حملنى فى الممرات شبحان أبيضان ، وأنا موثق بحيث لم أكن أستطيع القيام بأية حركة .

الفصل الثامن عشر

الجعلان

كان ضوء القمر الشاحب يدخل قويا فى حجرتى من النافذة المفتوحة .

وبجانب الأريكة حيث كنت ممدداً كان يقف شبح أبيض .

فغمغمت :

— أهذا أنت ؟ أنت ! تانيت زرجا .

فوضعت أصبعها على شفتيها .

— صه ! نعم أنا .

وأردت أن أنهض من فراشى ، فشعرت بألم فظيع فى كتفى .

وعادت حوادث ما كان بعد الظهر إلى رأسى المسكين .

— آه ! يا صغيرتى ! يا صغيرتى ! لو عرفت .

فقالت :

— أعرف .

كنت أضعف من طفل ، وحلّ — عند ما أقبل الليل — محل اضطراب النهار انهيار عصبى ، وخنقتنى العبرات .

— لو عرفت ، لو عرفت ! خذينى يا صغيرتى خذينى !

فقالت :

— اخفض من صوتك ، فثمة طارقى أبيض خلف بابك يسهر على حراستك .

فكررت :

— خذينى . . . أنقذينى !

وقالت فى بساطة :

— لقد جئت من أجل ذلك .

ونظرت إليها . لم تكن ترتدى رداءها الجميل الحريرى الأحمر بل كانت ملتفة فى عباءة وقد رفعت جزءاً منها على رأسها .

فقالت فى صوت منخفض :

— وأنا أيضاً أريد الرحيل . منذ زمن بعيد وأنا أريد الرحيل . أريد أن أرى جاو مرة أخرى ، القرية على شاطئ النهر وشجر المطاط الأزرق والماء الأخضر .

وكررت :

— منذ جئت إلى هنا أريد الرحيل . ولكنى كنت صغيرة جدا بحيث لا أستطيع الرحيل وحدى فى الصحراء الكبرى . ولم أكن أجرؤ قط على الافضاء بذلك إلى أحد من الذين أتوا إلى هنا قبلك ، وهم جميعاً لم يكونوا يفكرون إلا فيها . . . ولكنك أنت أنت أردت أن تقتلها .

وأرسلت أنيناً مختنقاً .

وقالت :

— إنك تتألم ! لقد كسروا ذراعك .

— أو جزعوها على أقل تقدير .

— نيها .

ومرت بيديها الصغيرتين المفرطحتين على كتفى فى رقة لا نهاية لها وقلت :

— يقوم على حراستى خلف الباب طارقى أبيض يا تانيت زرجا. فمن أين أتيت إذن ؟

فقالت :

— من هنا .

وأشارت بحركة إلى النافذة . كان خط أسود عمودى يقسم وسط النافذة الزرقاء المربعة .

وذهبت تانيت زرجا إلى النافذة . ورأيتها واقفة على المسند وبيدها مدية تلمع ، وقطعت الحبل من أعلاه فى مستوى الفتحة . فسقط الحبل على الأرض فى صوت جاف .

وعادت إلى جانبى .

فقلت :

— نرحل ! نرحل ! من أين ؟

فكررت :

— من هنا .

وأشارت مرة أخرى إلى النافذة .

فانحنيت ، وتفحصتْ عينى المحمومة البئر المظلمة باحثة عن الصخور الخفية ، الصخور التى تحطم عليها كين الصغير .

وقلت وأنا أرتعد :

— من هنا ! يوجد مائتا قدم من هنا إلى الأرض .

فأجابت :

— إن طول الحبل مائتان وخمسون قدماً . إنه حبل متين الخطين

لقد سرقته منذ لحظة من الواحة . كان يستعمل فى قطع الأشجار . إنه جديد جداً .

ــ أنزل من هنا يا تانيت زرجا . وكتفى ؟

فقالت فى قوة :

ــ أنا التى سأنزلك ، ألمس ذراعىّ وتأكد من قوتهما . لن أنزلك بذراعى بكل تأكيد . ولكن انظر . فثمة عمودان من المرمر على جانبى النافذة . فاذا أمررت الحبل حول أحدهما ولففته مرة واحدة فسأجعلك تنزلق دون أن أشعر بثقلك .

وقالت أيضاً :

ــ ثم انظر : لقد عقدت عقدة كبيرة ، كل عشرة أقدام ستسمح لى بالاستراحة من وقت إلى آخر إذا احتجت إلى استعادة قواى .

وقلت :

ــ وأنت ؟

ــ حينما تصل إلى الأرض ، سأربط الحبل فى العمود وسألحق بك . وهناك العُقَد لأستريح إذا حز الحبل يدى بشدة . ولكن لا تخف ؛ إننى ماهرة . ففى جاو كنت أتسلق ــ طفلة ــ شجر المطاط على ارتفاع يقارب هذا ، لآخذ فراخ التوكان من أعشاشها . إن النزول أسهل .

ــ ولكن عند ما نصل إلى الأرض كيف السبيل إلى الخروج ؟ تعرفين الحواجز إذن ؟

فقالت :

ــ ما من أحد يعرف الحواجز غير صغير بن شيخ ، وربما أتينيا كذلك .

— وعندئذ ؟

— وعندئذ . . . يوجد أيضاً جمال صغير بن شيخ التى يستخدمها فى أسفاره . لقد فككت رباط أحدها وهو أقواها وقدته إلى هنا مع كثير من الحشائش لكى لا يصيح ، وسيكون قد شبع عندما نرحل .

وقلت أيضاً :

— ولكن . . .

فضربت بقدمها وقالت :

— ولكن ماذا ؟ فابق إن كنت تريد ، إن كنت تخاف . أما أنا فسأرحل . أريد أن أرى جاو ، وشجر المطاط الأزرق ، والماء الأخضر .

وأحسست بالخجل .

— سأرحل يا تانيت زرجا . إننى أوثر الموت عطشاً وسط الرمال على البقاء هنا . هيا بنا . . .

فقالت :

— صه ! لم يحن الوقت بعد !

وأرتنى الهاوية التى تحدث الدوار وكان القمر يضيئها بشدة .

— لم يحن الوقت بعد ، يجب أن ننتظر خشية أن يرونا . بعد ساعة سيكون القمر قد دار وراء الجبل . وحينئذ تسنح الفرصة .

وجلستْ وظلت كذلك دون أن تلفظ بكلمة وقد غطت بعباءتها وجهها الدقيق القاتم . هل كانت تصلى ؟ قد يكون .

وفجأة صرت لا أراها . كانت الظلمة قد دخلت من النافذة والقمر قد اختفى .

ووضعت تانيت زرجا يدها على ذراعى وجذبتنى نحو الهاوية . وحاولت ألا أرتعد .

لم يكن تحتنا غير الظلام . وفى صوت خافت ولكنه ثابت قالت لى تانيت زرجا :

— كل شئ معد . لقد لففت الحبل حول العمود . وها هى ذى العقدة المتحركة ، اجعلها تحت ذراعيك . آه ! خذ هذه الوسادة واحتفظ بها ملاصقة لكتفك المصابة . . . وسادة من الجلد . . . إنها سميكة . وليكن وجهك جهة الجدار . ستقيك الوسادة الاصطدام والاحتكاك .

كنت فى هذا الوقت مسيطراً على نفسى تمام السيطرة ، هادئاً كل الهدوء . فجلست على حافة النافذة وقدماى فى الفضاء . وأنعشتنى نسمة باردة هبت من القمم .

وشعرت بيد تانيت زرجا الدقيقة فى جيب حُلتى .

— إنه صندوق . عندما تصل إلى أسفل يجب أن أعرف ذلك لأنزل أنا أيضاً . ستفتح هذا الصندوق وبه جعلان سأراها وسأحضر .

وقبضت بيدها يدى طويلا .

وتمتمت :

— اذهب الآن .

ذهبت .

ولست أذكر من هذه الهوة البالغة مائتى متر إلا شيئاً واحداً : كان ينتابنى ضجر شديد كلما توقف الحبل إذ أرى نفسى ، وساقاى مدلاتان عند سفح هذا الجدار الأملس تماماً . وكنت أقول فى نفسى : ماذا تنتظر هذه الحمقاء الصغيرة ؟ لقد مضى ربع ساعة

تماماً وأنا معلق هكذا . . . آه ! أخيراً ! حسن هأنذا أتوقف مرة أخرى . مرة أو اثنتين اعتقدت أنى لمست الأرض ؛ غير أنه لم يكن إلا بروز فى الصخر . كان لابد أن أضرب بقدمى ضربة خفيفة . . . وفجأة ألفيت نفسى جالساً على الأرض فمددت يدى . فاذا أعشاب . . . وشاكت شوكة أصبعى . لقد وصلت .

وفى الحال أصبحت فى حالة عصبية حادة .

فتخلصت من الوسادة وفككت العقدة المتحركة ، وبيدى الصحيحة مددت الحبل مبعداً إياه خمس أو ست خطوات عن حافة الجبل ووضعت قدمى عليه . وفى نفس الوقت أخذت الصندوق الصغير المصنوع من الورق المقوى وفتحته ورأيت ثلاث هالات متحركة ترتفع فى الليل واحدة بعد أخرى . رأيت الجعلان ترتفع مصعدة مصعدة على جانب الصخر . وزحفت فى رخاوة هالتها الوردية الشاحبة . ودارت واحدة بعد أخرى ثم اختفت . . .

— إنك متعب يا سيدى الملازم . اسمح لى أن أمسك بالحبل .

كان صغير بن شيخ قد ظهر فجأة بجانبى .

ونظرت إلى قامته السوداء الطويلة وارتعدت طويلا ، ولكنى لم أترك الحبل وقد لاحظت عليه تموجات بعيدة .

فردد بلهجة آمرة :

— اتركه .

وأخذ الحبل من يدى .

وفى هذه اللحظة لم أدر أى شئ أصبحت . كنت واقفاً بجانب الشيخ الأسود الضخم . فما العمل ياصاحبى ، وهذه الرضوض فى كتفى ، مع

هذا الرجل الذى أعرف قوته الحاذقة ؟ ثم أى غناء ؟ كنت أراه منحنياً يمد الحبل بيديه وقدميه وبكل جسمه أحسن مما كنت أستطيع أن أفعل .

وسمعنا حفيفاً فوق رءوسنا . ثمة جسم صغير قاتم .

فقال صغير بن شيخ وهو يمسك بين ذراعيه القويتين الشبح الصغير ويضعه على الأرض فى حين أخذ الحبل ، وقد أرسلناه ، يتخبط على الصخر :

— هاهى ذى !

وشهقت تانيت زرجا عندما عرفت الطارقى .

فوضع يده فى عنف على فمها .

— هلا اسكتى ، يا سارقة الجمال ! أيتها الشريرة الصغيرة !

وأمسك بذراعها والتفت نحوى وقال بلهجة آمرة :

— والآن اتبعنى .

فأطعت . وفى أثناء رحلتنا القصيرة كنت أسمع اصطكاك فكى تانيت زرجا من الخوف !

ووصلنا إلى كهف صغير . فقال الطارقى :

— أدخل .

وأوقد مشعلا . فتمكنت على هذا الضوء الأحمر أن ألمح جملا فخما يجترّ فى هدوء .

فقال صغير بن شيخ وهو يشير إلى الحيوان :

— ليست هذه الطفلة غبية . لقد استطاعت أن تختار أحسن الجمال وأقواها . ولكنها غريرة .

وقرب مشعله من الجمل وأردف قائلا :

— إنها غريرة . لم تعرف إلا أن ترحله . ولكنها لم تأخذ ماء أو طعاماً . ولو رحلتم بدونهما لكنتم فى ظرف ثلاثة أيام وفى مثل هذه الساعة ميتين أنتم الثلاثة على قارعة الطريق . . . وأية طريق !

وتوقفت أسنان تانيت زرجا عن الاصطكاك ، وأخذت تنظر إلى الطارقى نظرة هى مزاج من الأمل والرعب . وقال صغير ابن شيخ :

— يا سيدى الملازم ! هلم إلى هنا بجوار الجمل لأشرح لك .

ولما اقتربت منه قال :

— على كل جانب توجد قربة مليئة بالماء . حافظ على هذا الماء ما استطعت ؛ لأنك ستجتاز بلاداً مرعبة . ولعلك لا تجد بئراً على طول خمسمائة كيلو متر .

واستأنف قائلا :

— وهنا فى هذه الخروج يوجد الطعام المحفوظ ، شيئا يسيرا منه ؛ لأن حاجتك إلى الماء أشد ؛ ويوجد أيضاً بندقية ، بندقيتك يا سيدى . وحاول ألا تستعملها إلا فى الغزال . والآن لم يبق إلا هذا .

ونشر شريطاً من الورق ورأيت وجهه الملثم ينحنى وعينيه تبتسمان ونظر إلىّ وسألنى :

— إلى أية جهة أزمعت أن تذهب بعد خروجك من الأسوار ؟

فقلت :

— نحو إيدليس لأصل إلى الطريق حيث قابلتنى والكابتن .

فهز صغير بن شيخ رأسه وتمتم :

— كنت أتوقع ذلك .

وأردف فى برود تام :

— لو فعلت للحقوا بك وبالصغيرة غداً قبل غروب الشمس ومثلوا بكما .

ثم استأنف الحديث فقال :

— نحو الشمال تصل إلى الحجار والحجار بأكمله تابع لأنتينيا . يجب أن تتجه نحو الجنوب .

فقلت :

— سنتوجه إذن نحو الجنوب .

— وبأية طريق تذهبان نحو الجنوب ؟

— عن طريق سلة وطميسة .

فهز الطارقى رأسه ثانية وقال :

— سيبحثون عنكما فى هذه الجهة أيضاً لأنها الطريق الحسنة ، الطريق الغنية بالآبار . وهم يعرفون أنك على علم بها . والطوارق لن يغفلوا عن انتظارك عند إحدى الآبار .

— حينئذ ؟

فقال صغير بن شيخ :

— حينئذ يجب ألا تصل إلى طريق طميسة — تامبكتو إلا على مسافة سبعمائة كيلو متر من هذا المكان ، أى عند إيفروان ، أو أحسن من ذلك ، عند وادى تليمسى . فهناك تنتهى الأراضى التى يرتادها طوارق الحجار وتبتدئ أراضى طوارق أولياء مدين .

وارتفع صوت تانيت زرجا :

— إن أولياء مدين هم الذين ذبحوا أهلى واستعبدونى . لا أريد المرور بين أولياء مدين .

فقال صغير بن شيخ فى قسوة :

— أسكتى أيتها الشريرة .

واستمر موجهاً حديثه إلى :

— لقد قلت ما يجب علىّ أن أقول . ليست الصغيرة مخطئة ؛ إن أولياء مدين متوحشون . ولكنهم يهابون الفرنسيين . وكثير منهم على اتصال بالمراكز الفرنسية شمال نهر النيجر . وزد على ذلك أنهم فى حالة حرب مع أهل الحجار الذين لن يقصوا آثاركما فى أراضى أعدائهم . لقد قلت ما يجب علىّ أن أقول : يجب أن تصلا إلى طريق تامبكتو إلى حيث تتوغل فى الأراضى التى يرتادها أولياء مدين . وبلادهم كثيرة الغابات غنية بالينابيع . إذا وصلتما إلى وادى تليمسى فستواصلان رحلتكما تحت سماء من الورد . وعلى أية حال فالطريق من هنا إلى وادى تليمسى أقصر من الطريق التى تمر بطميسة ؛ فهى طريق مستقيمة .

فقلت :

— إنها مستقيمة حقا . ولكنك تعلم أنه يجب عليك لتسلكها أن تجتاز التانزرفت .

فأبدى صغير بن شيخ بحركة تدل على نفـــاد صبره وقال :

— إن صغير بن شيخ يعرف ذلك ويعرف ما هو التانزرفت ، ويعرف أيضاً — وهو الذى عبر الصحراء كلها — أنه يرتجف خوفاً لو مر من التانزرفت وتاسلى الجنوبية . ويعرف أن الجمال التى تضل طريقها هناك تموت أو تستوحش ؛ لأنه ما من أحد يخاطر بحياته للبحث عنها . . . وإن هذا الخوف الذى يحيط بهذا المكان هو منقذكما . ثم يجب أن تختار : إما التعرض للموت عطشاً فى طرق التانزرفت ، وإما [illegible] بالتأكيد فى أية طريق أخرى .

وأضاف :

— ويمكنك أن تمكث هنا .

فقلت :

— يا صغير بن شيخ لقد صح عزمى .

فقال وهو يعاود نشر ورقته الملفوفة :

— حسن . إن هذا الخط يبتدئ عند ثغرة ثانى الحواجز اليابسة حيث سأقودكما ، وينتهى عند إيفروان . لقد عينت مكان الآبار ولكن لا تثق بها كثيراً لأن معظمها جاف . واحرص على ألا تحيد عن هذا الخط . فاذا انحرفت عنه . . . كان الهلاك . . . والآن امتط الجمل مع الصغيرة . إن ما يحدثه اثنان من الضوضاء أقل بكثير مما يحدثه أربعة .

وسرنا طويلا فى صمت يتقدمنا صغير بن شيخ يتبعه بعيره فى دعة . واجتزنا على التوالى ممرا مظلما ثم آخر خانقاً ثم ممرا ثالثاً . . . كان كل مدخل يختفى تحت أكوام متشابكة من الصخور والأعشاب. وفجأة أحسسنا بلهيب حول رءوسنا . ودخل وميض أحمر قاتم حيث نهاية الممر . كانت الصحراء .

وتوقف صغير بن شيخ وقال :

— ترجلا .

كان ينبوع يتغنى فى الصخر ، فاقترب منه الطارقى وملأ كوباً من الجلد بالماء وناولنا إياه كلا بدوره وهو يقول :

— اشرب .

آمراً :

— اشربا ثانية . هذا ما يوفر من ماء القربتين . واجتهدا ألا يعاود كما الظمأ قبل غروب الشمس .

واستوثق من أحزمة البعير وتمم :

— كل شئ على ما يرام . هلما ! لم يبق على الفجر إلا ساعتان : يجب أن تكونا بعيدين عن هذا المكان .

وتملكنى شئ من الانفعال فى هذه اللحظة الأخيرة ، فتوجهت نحو الطارقى وأخذت يده وقلت له فى صوت خفيض :

— صغير بن شيخ ، لِمَ تفعل ذلك ؟

فتقهقر راجعاً ورأيت عينيه القاتمين العميقتين تلمعان وقال :

— لم ؟

— نعم . لم ؟

فأجاب فى جد :

— إن النبى يسمح للمؤمن أن يؤثر الشفقة على الواجب مرة واحدة فى حياته . وصغير بن شيخ يتنهز هذه الرخصة لينقذ من أنقذ حياته .

فقلت :

— ألا تخشى أن أتكلم فأبوح بسر أنتينيا عند عودتى بين الفرنسيين ؟

فهز رأسه وقال فى صوت ساخر :

— لا أخشى ذلك ، لأنه ليس من مصلحتك يا سيدى الملازم أن يعرف أهل بلدك كيف مات سيدى الكابتن .

وارتعدت عند سماعى هذا الرد المنطقى . وأضاف الطارقى :

— ربما كنت أخطأت إن لم أقتل الفتاة . . . ولكنها تحبك . لن تقول شيئاً .إذهبا فقد أوشك النهار أن يطلع .

وحاولت أن أصافح هذا المنقذ الغريب ولكنه تقهقر مرة أخرى .

— لا تشكرنى . إن ما أفعله هو من أجلى أنا ، لأنال ثوابى من الله . واعلم جيداً أننى لن أعاود هذه الصنيع أبداً مرة أخرى لا مع غيرك ولا معك .

وبينا أنا أحاول أن أطمئنه باشارة قال فى سخرية ما زالت تدوى فى أذنى :

— لا تحتج ! لا تحتج . إن ما أفعله هو لمصلحتى لا لمصلحتك.

ونظرت إليه دون أن أفهم . فقال فى صوته الرزين :

— لا لمصلحتك يا سيدى الملازم ، لا لمصلحتك ؛ لأنك ستعود ويومئذ لا تعتمد على مساعدة صغير بن شيخ .

فتمتمت فى رعدة :

— سأعود ؟

فقال الطارقى :

— ستعود ، ستعود .

كان واقفاً كأنه تمثال مظلم بجانب صخرة رمادية . وعاود الكلام فى عنف .

— ستعود . إنك تهرب الآن . ولكنك تخطىء إذا اعتقدت أنك سترى عالمك بنفس العيون التى كنت تراه بها قبل مغادرتك إياه . فستلاحقك فى كل مكان فكرة واحدة لا تتغير . وفى يوم ما بعد سنة أو خمس أو ربما كانت عشرة ستمر ثانية من هـذا الممر نفسه الذى مررت به الآن .

فقالت تانيت زرجا وصوتها يرتعد :

— أسكت يا صغير بن شيخ !

فأجاب صغير بن شيخ :

— بل أسكتى أنت أيتها الشريرة .

وضحك مستهزئاً .

— ألا ترى أن الصغيرة يخالجها الخوف لأنها تعرف أن ماقلته هو الحق ، لأنها تعرف قصة الملازم جيبرتى .

فقلت وقد تفصد جبينى عرقاً :

— الملازم جيبرتى ؟

— إنه ضابط إيطالى كنت قابلته بين غاط وغداميس منذ ثمانى سنوات . وحدث أن حبه لأنتينيا لم ينسه كل النسيان أول الأمر حبه للحياة . فحاول الهرب ووفق فى ذلك ، ولست أدرى كيف كان ذلك لأننى لم أساعده . وعاد إلى بلاده . ولكن صه ! بعد سنتين اثنتين كنت خارجاً للاستكشاف إذ وجدت أمام الحاجز الشمالى رجلا فى حالة بؤس شديد يقاسى الأمرين من الجوع والتعب وهو يبحث فى غير طائل عن المدخل . كان الملازم جيبرتى قد عاد إلينا . وهو الآن يحتل فى قاعة المرمر الأحمر الرقم ٣٩ .

وضحك الطارقى ضحكة قصيرة .

— هذه هى قصة الملازم جيبرتى التى أردت أن تعرفها . . . ولنكتف بهذا القدر . امتط الجمل .

فأطعت دون أن أنبس ببنت شفة . وأحاطتنى تانيت زرجا — وكانت خلفى — بذراعيها .

كان صغير بن شيخ ما زال ممسكاً برحل الجمل . وقال لى وهو يشير نحو الجنوب إلى بقعة سوداء فى السماء البنفسجية :

— أترى هذا الغور ؟ إنه وجهتك وهو يبعد ثلاثين كيلومتراً ...

يجب أن تشرف عليه عندما تشرق الشمس . وحينئذ انظر إلى الخريطة ؛ فقد عينت لك النقطة التالية . إذا لم تنحرف عن هذا الخط فستكون فى وادى تليمسى بعد ثمانية أيام .

وكان عنق الجمل الطويل يمتد نحو ريح الجنوب المظلم .

وترك الطارقى رحل الحيوان فى حركة منبسطة :

– والآن ارحل .

فقلت له وأنا أدور على الرحل :

– شكراً ، شكراً لك يا صغير بن شيخ . الوداع !

وسمعت صوته – وقد غدا بعيداً – يقول :

– إلى اللقاء يا سيدى الملازم دى سانت أفيت .

الفصل التاسع عشر

التانزرفت

وفى أثناء الساعة الأولى من هروبنا كان جمل صغير بن شيخ يسير فى سرعة فائقة . وقطعنا أكثر من خمسة فراسخ . وقد كنت أوجه دابتنا ، ثابت العينين ، نحو الغور الذى عيّنه لى الطارقى والذى أخذت قمته تتسع فى السماء الباهتة .

وكانت ريح خفيفة تصفر فى آذاننا من شدة السرعة ، وعشب الرتم الكبيرة تمر بسرعة عن يميننا وشمالنا كأنها هياكل عظمية كئيبة .

وسمعت صوت تانيت زرجا يهمس :

— قف الجمل .

لم أفهم فى بادئ الأمر .

— قف الجمل .

وأمسكت فى عنف بذراعى اليمنى .

فأذعنت . وهدأ الجمل من سرعته بالرغم عنه . وقالت الفتاة :

— اسمع .

ولم أسمع شيئاً فى بادئ الأمر ، ثم سمعت من ورائنا صوتا خفيفاً ، خفيفاً ناشفاً . وأمرت تانيت زرجا :

— قف الجمل ولا داعى لأن تنيخه .

وفى اللحظة نفسها قفز جسم هزيل رمادى على الجمل الذى أخذ يعدو .

فقالت تانيت زرجا :

— أتركه وشأنه ، لقد قفزت جاليه .

وفى اللحظة نفسها شعرت تحت يدى بخصلة من الشعر المتوتر ، لقد قصت القطة أثرنا حتى لحقت بنا . وسمعت أنفاس هذا الحيوان الصغير اللاهثة وقد أخذت فى الهدوء شيئاً فشيئاً .

وتمتمت تانيت زرجا :

— إننى سعيدة .

لم يكن صغير بن شيخ مخطئاً . فقد مررنا حول الغور عند شروق الشمس . ونظرت إلى الخلف : لم يعد الأتاكور غير خواء مفزع وسط سواد الليل الذى كان يكتسحه ضوء الصباح . لم يعد من اليسير أن نميز ، بين هذه القمم التى لا اسم لها ، الجبل حيث تواصل أنتينيا تدبير مؤامراتها الغرامية .

إنك تعرف ما هو التانزرفت تلك الهضبة العظيمة ، هذه البقعة المهجورة الموحشة حيث العطش والجوع . كنا فى تلك اللحظة متوغلين فى الجزء الذى يسميه دوفرييه تاسيلى الجنوبى ، والذى يحمل على خريطة وزارة الأشغال العمومية هذه البيانات الخلابة : « هضبة صخرية خالية من الماء والنباتات لاتصلح لمأوى الانسان أو الحيوان » .

لا شئ أفظع من هذه الصحراء الصخرية إلا بعض أجزاء صحراء كلهارى . آه ! لم يغال صغير بن شيخ حينما أكد لى أنهم لن يفكروا فى اللحاق بنا هناك .

ما زالت بقع كبيرة من الظلمة تعاند فى أن تستحيل واضحة تماما . وكانت الذكريات فى رأسى تتخبط فى اختلاط تام . وعادت إلى ذاكرتى جملة : « كان يبدو لديك أنه منذ بدء الخليقة لم يفعل شيئاً آخر فى ظلمته سوى أن يشق عباب الفضاء على ظهر جمل . » وضحكت ضحكة قصيرة وفكرت : « منذ بضع ساعات أجمع بين المواقف الأدبية ، فمنذ قليل على ارتفاع مائة قدم كنت أعتقد أننى فابريس بطل « دير بارم » فى برجه الايطالى . والآن هأنذا على متن الجمل فأصبح ديك بطل « الضوء الذى ينطفئ » وهو يجتاز الصحراء لمقابلة رفقائه فى السلاح . » وضحكت مرة أخرى ثم ارتعدت وقد تذكرت الليلة السابقة ، فكرت فى أورست بطل « اندروماك » الذى قَبِل أن ينحر بيروس . . . إنه موقف أدبى أيضاً . . .

لقد قدر صغير بن شيخ ثمانية أيام لوصولنا إلى منطقة أولياء مدين الغابية التى تسبق مناطق الأعشاب فى السودان . لقد كان على دراية تامة بمقدرة دابته التى أطلقت عليها تانيت زرجا فى الحال اسم « الملين » أى الأبيض ؛ لأن هذا الجميل الفخم كان يبدو كأنه يرتدى ثوباً أبيض ناصعا . ولقد مكث يومين من غير طعام ، يجتذب من هنا وهناك فرعاً من الأشجار كان ما فيه من أشواك يقلقنى على حنجرته . وكانت الآبار موجودة فى الأماكن التى عينها صغير بن شيخ . ولكن لم نجد فيها إلا وحلا مصفرا حارا . كان الجمل يكتفى بذلك حتى إننا لم نكن بعد مضى خمسة أيام وبفضل قناعتنا العجيبة قد أفرغنا إلا إحدى القربتين . وفى هذه اللحظة استطعنا أن نعتقد أننا نجونا .

وبجانب إحدى هذه الآبار المستوحلة تمكنت من صيد غزال ذى قرنين

مستقيمين بطلقة من بندقيتى . وسلخت تانيت زرجا الحيوان وأكلنا فخذه وكان جيد الشى . وفى هذه الأثناء استكشفت جاليه ، وهى دائبة على البحث بين الصخور كلما توقفنا عن السير فى القيلولة ، تمساحاً من تماسيح الرمال طوله ثلاثة أذرعة وبادرت بقتله . وأكلت حتى لم تستطع حراكاً ، مما كلفنا جزءاً من مائنا لنساعدها على الهضم . وقد منحناها ماءنا عن طيب خاطر لأننا كنا سعيدين . لم تعبر لى تانيت زرجا عن سعادتها ؛ غير أنى لاحظت المرح الذى ولّده فيها اعتقادها أنى نسيت المرأة ذات التاج الذهبى المزدان بالزمرد . وبالفعل لم أكن أفكر فيها ، فى هذه الأيام . كنت لا أفكر إلا فى الحرارة الشديدة التى يجب أن نتجنبها ، وفى القربة التى كان علينا أن نخفيها ساعة فى فجوة إحدى الصخور ، إذا أردنا أن يصبح الماء بارداً ، وفى السعادة العميقة التى تغمرك حينما تقترب بشفتيك من الكوب الملئ بهذا الماء المنقذ . . . يمكننى أن أقول أكثر من غيرى بملء شدقىّ إن العواطف القوية عقلية كانت أو حسية لا تنتاب إلا أناساً أصابوا ما هو واجب لهم من الشبع والرى والراحة .

كانت الساعة الخامسة مساء ، وأخذت الحرارة الشديدة تنكسر ، فخرجنا من الثغرة الصخرية حيث قضينا وقت القيلولة . وكنا جالسين على حجر كبير ننظر إلى الغرب وهو آخذ فى الاحمرار .

ونشرت شريط الورق حيث عين صغير بن شيخ مراحلنا حتى طريق السودان . فلاحظت فى سرور أن خط السير الذى أوضحه لنا صحيح ، وأننى سلكته بكل دقة . وقلت :

— بعد غد مساء سنكون على وشك أن نجتاز المرحلة التى ستوصلنا

فى اليوم التالى فى الفجر ، إلى وادى تلمسى . وهناك لن نفكر فى الماء.

وبرقت عينا تانيت زرجا فى وجهها النحيف ، وسألت :

— وجاو ؟

— سنكون على مسافة أسبوع فقط من النيجر . ولقد قال صغير بن شيخ إننا سنقطع نهاية الطريق من وادى تلمسى تحت أشجار الميموزا .

فقالت :

— أنا أعرف الميموزا . إنها كويرات صغيرة صفراء تذوب فى اليد ولكنى أؤثر زهرة الكبر . ستصاحبنى إلى جاو . إن أبى سنى أزكيه كما قلت لك قتله أولياء مدين . ولكن لا بد أن يكون بنو وطنى قد أعادوا بناء القرية . إنهم اعتادوا مثل هذه الأمور . سترى كيف يستقبلونك .

— سأصحبك يا تانيت زرجا ، سأصحبك . إنى أعدك بذلك ، ولكن لا بد أن تعدينى أنت أيضاً . . .

— ماذا ؟ آه أعرف ماذا تقصد . تعتقد أننى بلهاء حتى خامرك أنى سأتحدث عن بعض الأشياء التى تؤذى صديقى .

قالت هذه الكلمات وهى تنظر إلىّ وكأن التعب والحرمان قد جمدا وجهها الأسمر حيث تلمع عينان كبيرتان . . . وكنت توصلت إلى جمع الخرائط والبرجل ، وعينت إلى الأبد المكان الذى أدركت فيه لأول مرة جمال عينى تانيت زرجا .

وخيم السكون بيننا ولم تقطعه إلا بقولها :

— إن الليل آت . لا بد أن نأكل لنستطيع الرحيل مسرعين ما أمكننا .

ونهضت وذهبت إلى الصخرة .

وفى الحال سمعت صوتها ينادينى ولكن فى لهجة مضطربة أفزعتنى :

– هلم ! هلم !

وفى قفزة كنت بجانبها وتمتمت :

– الجمل ! الجمل !

ونظرتُ فاذا برعدة تنتابنى .

كان ممدداً فى الجانب الآخر من الصخرة وجانباه الشاحبان يرتعدان فى عنف . كان الأبيض يُحْتَضَر .

وليس هناك من حاجة إلى أن أؤكد هذه الحمية التى اندفعنا بها نحو الجمل . وما كنت أعرف سبب موت البعير ، بل ما عرفته قط . هكذا حال الابل جميعاً فانها أقوى الحيوانات وأرقها ، تسير ستة أشهر عابرة أفظع الأماكن ، تأكل القليل ، وتصبر على الظمأ ، وتظل كأحسن ما تكون حالا . ثم تتمدد ذات يوم على جنوبها وتقلع عن صحبتك فى يسر محير .

ولما رأينا تانيت زرجا وأنا ، أنه لم يبق فى وسعنا أن نفعل شيئاً ، نهضنا وجعلنا ننظر فى صمت إلى انتفاض الحيوان الذى أخذ يتناقص تدريجيا . ولما لفظ النفس الأخير شعرنا بأن حياتنا تفارق أجسادنا كذلك .

وكانت تانيت زرجا هى البادئة بالحديث . سألت :

– كم نبعد عن طريق السودان ؟

فأجبت :

– إننا نبعد مائتى كيلومتر عن وادى تلمسى ، ويمكننا أن نقتصر ثلاثين كيلومتراً إذا سرنا نحو أفروان ، غير أن الآبار ليست مبينة على هذه الطريق .

فقالت :

— فعلينا إذن أن نسير نحو وادى تلمسى . مائتا كيلومتر : هذا يعنى سبعة أيام ؟

— سبعة أيام على أقل تقدير يا تانيت زرجا .

— وكم يبعد أول الآبار ؟

— ستين كيلومتراً .

وانقبضت أسارير الفتاة شيئاً ما ، ولكنها سرعان ما تشددت .

— يجب أن نرحل فى الحال .

— أنرحل ، يا تانيت زرجا ، أنرحل راجلين ؟

فضربت الأرض ، وأعجبنى أن أراها قوية شديدة .

واستطردت تقول :

— يجب أن نرحل . فلنأكل ولنشرب ! ولنطعم جاليه أيضاً ! ما دمنا لا نستطيع أن نحمل صناديق المؤن جميعها وما دامت القربة ثقيلة لا نستطيع أن نحملها مدى عشرة كيلومترات ، فلنضع بعض الماء فى أحد الصناديق بعد أن نفرغها بوساطة ثقب ما . سينفعنا ذلك فى مرحلة الليل ، وهى مرحلة لا ماء فيها وتبلغ الثلاثين كيلومتراً ، ثم نسير مساء الغد مرحلة ثلاثين كيلومتراً أخرى ونصل إلى البئر المبينة على خريطة صغير بن شيخ .

فتمتمت محزوناً :

— لو لم تكن كتفى على ماهى عليه الآن لقمت بحمل القربة .

فقالت تانيت زرجا :

— إنها كما هى عليه . فعليك أن تحمل البندقية وكذلك صندوقى طعام ، أما أنا فسأحمل صندوقين آخرين علاوة على الصندوق الملىء

بالماء . فهلم الآن ؛ إذ علينا أن نكون فى الطريق قبل مضى ساعة ونحن نريد أن نقطع مرحلة ثلاثين كيلومتراً . ولعلك تعرف أنه حين تشرق الشمس فان الصخور تصبح شديدة الحرارة بحيث لا نستطيع بعد ذلك مواصلة السير .

فبأى صمت كئيب انتهت هذه الساعة التى ألفانا مبدؤها جد مطمئنين . و إنى لأترك هذا إلى الحدس . ويخيل إلىّ أننى لولا الفتاة لقبعت على الصخرة وتمددت وانتظرت . ولكن جاليه وحدها كانت سعيدة .

وقالت تانيت زرجا :

— يجب ألا ندعها تأكل كثيراً ، إذ كثرة الأكل تثقلها فلا تستطيع متابعتنا . ثم يجب عليها أن تعمل عملا فى الغد ، إذا أمسكت تمساحاً برياً آخر كان من نصيبنا .

لقد سرتَ فى الصحراء . وأنت تعلم أن الساعات الأولى من الليل ساعات فظيعة ، وعند ما يطلع القمر أصفر كبيراً ، يبدو أن ثمة غباراً خانقاً ينبعث مصعداً كأنه بخار يخنق الأنفاس ، فتحرك فكيك فى حركة آلية مستمرة ، كأنما تريد أن تصحن هذا الغبار الذى يتوغل فى حنجرتك الملتهبة . ثم يتبع ذلك فى العادة شئ من الراحة أو من الغفوة . تسير فى غير ما تفكير ، وتنسى أنك تسير ، ويجب أن تتعثر حتى تتذكر أنك تسير . والحق أننا نتعثر فى الغالب ، ولكن الحال تصبح محتملة آخر الأمر ، ونقول : « لا يلبث الليل أن ينتهى — وستنتهى معه المرحلة . وعلى كل حال فانى أقل تعباً الآن منى عند الرحيل . » وينتهى الليل ، وهذه هى أشد اللحظات قسوة ، فنحن

نموت عطشاً ، ونرتعد برداً . وتتراكم علينا الأعياء ثانية . والريح الخفيفة الفظيعة التى تؤذن بالفجر لا نجد فيها عزاء ، ويحدّث الانسان نفسه عند كل عثرة : « العثرة القادمة هى الأخيرة » .

وهذا ما يشعر به وما يقوله هؤلاء الذين يعرفون أنهم سينعمون بوقفة بعد بضع ساعات ليأكلوا و يرووا ظمأهم . . .

كنت أتألم بشدة . فلكل عثرة صداها فى كتفى الكسير . وأحسست مرة أننى أرغب فى التوقف عن السير لأجلس . فلمحت تانيت زرجا . كانت تتقدم مغمضة العينين وقد بدا على محياها مزيج من الألم والعزيمة لا يمكننى التعبير عنه .

فأغمضتُ عينى وواصلت السير .

وكانت هذه هى المرحلة الأولى . وعند الفجر وقفنا عن السير عند أخدود صخرى ، واضطرتنا الحرارة بعد قليل إلى النهوض للبحث عن أخدود أخر أكثر عمقاً . لم تأكل تانيت زرجا شيئاً ، ولكنها ابتلعت فى جرعة واحدة نصف صندوق الماء . ومكثت خاملة طيلة النهار . وكانت جاليه تدور حول صخرتنا وهى تبعث بأناتها الشاكية .

لن أتكلم عن المرحلة الثانية ، فقد فاقت كل ما يمكن أن يتخيله عقل بشرى . لقد عانيت ما يمكن أن يعانيه البشر من عذاب فى الصحراء ، ولكنى أحسست فى شفقة لا نهاية لها أن قوتى بوصفى رجلا قد أخذت تتفوق على أعصاب رفيقتى الصغيرة . كانت تسير صامتة متلثمة بخمارها وهى تعلك جانباً منه .

أما البئر التى اتجهنا نحوها فكانت مبينة على ورقة صغير بن شيخ تحت اسم تيساريرين . وتيساريرين هو مثنى كلمة تيسارير ومعناها الشجرتان المنعزلتان .

وكان الصباح قد أخذ يسفر عند ما لمحت الشجرتين، وهما شجرتان من شجر المطاط . لم يكن يفصلنا عنهما سوى فرسخ . فصحت فرحاً :

— أى تانيت زرجا تشجعى ، ها هى ذى البئر .

فأزاحت لثامها فرأيت محياها البائس المضطرب ، وقالت :

— حسناً . حسناً وإلا . . .

ولم تستطع أن تتم عبارتها .

وقطعنا الفرسخ الأخير ونحن نجرى أو نكاد .

ووصلنا آخر الأمر إلى البئر .

كانت جافة .

إنه لشعور غريب أن يموت الانسان عطشاً . فالآلام مبرحة أول الأمر ، ثم تهدأ بعد ذلك . ويتملكك جمود وتظهر فى ذهنك تفاصيل دقيقة مضحكة عن حياتك ، تحوم حولك كما يحوم البعوض . وأخذت أتذكر امتحان التاريخ فى مسابقة الدخول لكلية سان سير . كان موضوعه موقعة مارنجو . وأخذت أكرر فى عناد : « لقد قلت إن قوام المدفعية التى استكشفها مارمون كان ثمانية عشر مدفعاً . . . ولكنى أذكر الآن أنها لم تكن سوى اثنى عشر مدفعاً . أنا موقن من ذلك اثنا عشر مدفعاً . »

ثم رددت ثانية :

« اثنا عشر مدفعاً »

ورحت فى شبه غيبوبة .

ثم أفقت منها وأنا أحس بحديد متوهج على جبينى . كانت تانيت زرجا قد انحنت فوقى وكانت يدها هى التى تحرقنى هكذا . قالت :

— انهض ! انهض ! فلنرحل .

— نرحل ! إن الصحراء نار تتوهج والشمس فى كبد السماء ! نحن الآن فى وقت الظهر .

فأعادت قولها :

— فلنرحل .

فأيقنت أنها تهذى .

كانت واقفة وقد سقط خمارها على الأرض ، وجاليه نائمة عليه وهى ملتفة فيه .

وأخذت تردد وهى عارية الرأس لا تخشى الشمس الفظيعة :

— فلنرحل .

وعاد إلىّ بعض رشدى .

— غطى رأسك يا تانيت زرجا ! غطى رأسك !

فاستطردت قائلة :

— فلنرحل ، فلنرحل ، إن جاو هناك . إنها قريبة جدا . إنى أشعر بها . أريد أن أرى جاو .

فاضطررتها إلى الجلوس إلى جانبى فى ظل صخرة .

وشعرت بأن قواها قد خارت . وأعاد إلىّ صوابى ما استشعرت من شفقة شديدة . وسألتْ :

— إن جاو هناك قريبة جدا ، أليس كذلك ؟

وغدت عيناها البراقتان تتوسلان .

— نعم يا صغيرتى المحبوبة ! إن جاو هناك . ولكن تمددى بالله عليك . إن الشمس شديدة الخطر .

وعادت تقول :

— آه ! جاو ! جاو ! كنت أعرف تماماً ، كنت أعرف تماماً أنى سأرى جاو مرة ثانية .

كانت قد نهضت قاعدة ، ويداها المحرقتان تشدان على يدى :

— صه ! يجب أن أحدثك حتى تستطيع أن تدرك لماذا كنت أعرف أنى سأرى جاو مرة أخرى .

— اهدئى يا صغيرتى ! اهدئى !

— لا ! يجب أن أحدثك . كان ذلك منذ زمن بعيد على ضفة النهر حيث الماء فى جاو حيث كان أبى أميرا . . . وذات يوم ، وكان يوم عيد ، أقبل علينا من الداخل ساحر شيخ يرتدى الجلد والريش ، وعلى وجهه قناع وعلى رأسه قلنسوة مدببة ومعه صنوج ، ويحمل أفعيين فى حقيبة . وفى ميدان القرية حيث اجتمع الأطفال على شكل دائرة أخذ يرقص رقصة « البوصادلا » وكنت فى الصف الأول . ولما كنت أضع حول عنقى عقداً من الماس الوردى عرف أننى ابنة شيخ سونراوى . فأخبرنى وقتئذ عن الماضى ، وعن الامبراطورية المندنجية[1] الكبرى التى حكمها أجدادى ، وعن أعدائنا قبيلة كونتاس المتوحشين . أخبرنى بكل شئ ، ثم قال لى . . .

— اهدئى يا صغيرتى .

— ثم قال لى : « لا تخافى ، لربما كشرت لك الأيام عن أنيابها ، ولكن لا تراعى ، فسيأتى اليوم الذى ترين فيه مرة ثانية جاو تلمع فى الأفق ، ولن تكون جاو المغلوبة على أمرها والتى اعتبرت ضيعة سودانية لا غناء فيها ، ولكن جاو كما كانت قديماً ، جاو الرائعة ،

---

(١) المندنج : شعب أسود يسكن أعلى السنغال والنيجر . (المترجم .)

العاصمة الكبرى لبلاد السود ، جاو المبعوثة من جديد بمسجدها ذى الأبراج السبعة، وقبابها الأربع عشرة من الياقوت الأزرق ، ومنازلها ذات الأفنية الرطبة والنافورات والحدائق الريا المليئة بالأزهار الكبيرة من حمراء وبيضاء . حينئذ ستكون ساعة خلاصك وسيادتك . »

كانت تانيت زرجا منتصبة وأخذت الشمس ترسل حرارتها من فوقنا ومن حولنا وفى كل مكان على الحمادة وتصهرها بلهيبها .

وفجأة مدت الطفلة ذراعيها ، وأرسلت صيحة مفزعة :

— جاو . ها هى ذى جاو .

ونظرت . فرددتْ :

— جاو ، آه ! لقد كنت أعرف ذلك جيداً . ها هى ذى الأشجار والينابيع والقباب والأبراج والنخيل والزهور الكبيرة الحمراء والبيضاء . جاو !

وبالفعل قد أخذت تبدو عند الأفق مدينة عجيبة تتدرج مبانيها الرائعة كأنها قوس قزح . وأمام أعيننا المتسعة كان السراب يزيد فى حمّانا البغيضة .

فصحت :

— جاو ! جاو !

ثم صحت مرة أخرى بعد ذلك فى التوصيحة هى مزيج من الألم والفزع . شعرت بيد تانيت زرجا الصغيرة تتراخى فى يدى . وتمكنت أن آخذ الفتاة بين ذراعى وأن أسمعها تتمتم فى همس :

— وحينئذ تكون ساعة الخلاص . ساعة الخلاص والسيادة .

وبنفس المدية التى استعملتها قبل ذلك بيومين فى سلخ ظبى

الـكثبان حفرت فى الرمل ، وعلى قاعدة الصخرة التى أسلمت تانيت زرجا أنفاسها عندها ، حفرة ستكون مثواها .

ولما انتهيت أردت أن أرى ذلك الوجه الصغير العزيز ، فانتابنى دوار قصير . . . فنشرت خمارها الأبيض سريعاً على هذا الوجه الأسمر ووضعت جثمان الصغيرة فى الحفرة .

ولم أكن قد أعرت جاليه اهتماماً .

وكانت نظرات الهرة لا تفارقنى وأنا أقوم بهذه المهمة المحزنة . وما إن سمعتْ حفنات الرمل الأولى تسقط على الخمار حتى صرخت صرخة حادة . ونظرت إليها فرأيتها وقد احمرت عيناها تتهيأ للوثوب علىّ . فناديتها متوسلا :

— جاليه .

وأردت ملاطفتها .

فعضت يدى ، ثم وثبت على الحفرة وأخذت تنبش وتزيح الرمال فى غضب شديد . وحاولت إبعادها ثلاث مرات . ولـكنى شعرت أننى لن أنجح فى إبعادها مطلقاً ، وأننى حتى إذا توصلت إلى ذلك فستمكث جاليه هنا لتخرج الجثمان من التراب .

كانت بندقيتى عند قدمى . ورددت الأجواء صدى طلقة فى أنحاء الصحراء الشاسعة الموحشة . وبعد لحظة كانت جاليه ممددة تنام نومتها الأخيرة على عنق سيدتها فى نفس المـكان الذى رأيتها تنام فيه مراراً .

ولما لم يبق على سطح الأرض غير حثوة من الرمل نهضت وأنا ترنح وهمت على وجهى فى الصحراء متجهاً نحو الجنوب .

الفصل العشرون

الدائرة تتصل

فى أعماق وادى المياه وفى المكان الذى نبح فيه ابن آوى فى تلك الليلة التى اعترف لى فيها دى سانت أفيت بأنه قتل مورانج ، نبح ابن آوى آخر - ولربما كان الحيوان نفسه .

فأحسست فى الحال أنه سيحدث فى هذه الليلة ما لا تحمد عقباه .

كنا جالسين فى هذا المساء ، كما كنا فى ذلك المساء الماضى ، تحت الرواق المتضع فى جانب حجرة الطعام : أرض من الجبس ، حاجز من الخشب المستدير الشكل المتشابك الأجزاء ، وأربع دعائم تحمل سقفاً من القش .

قلت إن هذا الحاجز يطل على الصحراء . ولما كف دى سانت أفيت عن الكلام نهض واقفاً وراح يتكئ على الحاجز فتبعته وقلت :

— ثم ؟

فنظر إلى :

— ثم ماذا ؟ أعتقد أنك لا تجهل ما ذكرته الجرائد كلها : كيف عثرت على دورية تحت قيادة الكابتن أيمار ، وأنا أموت جوعاً وعطشاً فى بلاد أولياء مدين ، وكيف نقلت إلى تمبكتو ، وأخذت أهذى لمدة شهر . أما ما قلته أثناء نوبات الحمى فلم أعرفه قط . وضباط نادى

تمبكتو ليسوا مكلفين كما تعلم أن يعيدوا على" هذه الأقوال . وحين سردت لهم حديث مغامراتى كما هى مدونة فى التقرير عن بعثة مورانج — سانت أفيت ، لست دون عناء لما أبدوه من جفاء مؤدب وهم يستمعون إلى قصتى ، أن النص الرسمى الذى تلوته عليهم يختلف فى مواضع بعينها عما أفلت منى من تفاصيل أثناء هذيانى .

لم يدققوا . ويبقى معروفاً أن الكابتن مورانج ، قد توفى على أثر لفحة شمس ، ووورى الثرى تحت إشرافى على ضفة وادى تارحيت على ثلاثة مراحل من تيمساو . وكانوا جميعاً يلمسون ما فى حديثى من نقط ضعف . وكانوا لا يشكون فى أن ثمة مأساة غامضة . أما عن الأدلة على ذلك ، فهذا موضوع آخر . ولم يستطيعوا جمع الأدلة فآثروا حفظ مسألة قد تؤدى إثارتها إلى فضيحة ليست بذات غناء . وعلى العموم فأنت تعرف هذه التفاصيل مثل ما أعرفها تماماً .

فسألته فى تردد :

— و . . . هى ؟

فابتسم ابتسامة النصر ، النصر لأنه حملنى على ألا أفكر فى مورانج أو فى جريمته ؛ النصر لأنه شعر بنجاحه فى أن يلقحنى بجنونه ، فقال :

— هى ! هى ! لم أعرف عنها شيئاً منذ ست سنوات . ولكنى أراها وأتحدث إليها ، وإنى أفكر فى اللحظة التى سأمثل فيها مرة أخرى بين يديها . . . سأرتمى على قدميها وسأقول لها فقط : « عفوك . لقد خرجت على قوانينك . لم أكن أدرك شيئاً . وأنا الآن أعرف كل شئ ، وها أنت ذى ترينى أعود إليك ، مثل الملازم جيبرتى . »

« الأسرة ، الشرف ، الوطن ، ستنسى كل شئ من أجلها . »

هكذا كان يتكلم الشيخ لميج . إن لميج رجل أبله . ولكنه كان

يتكلم عن خبرة . إنه يعرف ما كانت تساويه إرادة خمسين شبحاً من أشباح قاعة المرمر الأحمر ، أمام أنتينيا .

« والآن أتستطيع أن تقول لى بالضبط من هى هذه المرأة ؟ » وهل أدرى تماماً من هى ؟ وعلى كل حال ما خطر ذلك ! وما خطر ماضيها وسر نشأتها ، سواء أكانت من سلالة إله البحار واللاجيد العظام أم بنت زنية من بولندى سكير وعاهرة من حى ماربوف ؟

وقد تمكنت هذه التفاصيل عند ما تملكنى الضعف ، فغرت من سورانج ، أن تثير الأثرة التى لا يفتأ الناس المتمدنون يخلطونها بالمسائل العاطفية . لقد طويت بين ذراعى جسد أنتينيا : فلا أريد أن أعرف شيئا آخر ، لا ازدهار الحقول ولا مصير الانسان . . .

لا أريد أن أعرف ذلك . أو إن شئت فانى لكونى أرى بكل وضوح هذا المصير أرغب أن أفنى فى المصير الأوحد الذى يستحق أن أفنى فيه : طبيعة غامضة عذراء ، حب غامض .

طبيعة غامضة عذراء . — يجب أن أوضح لك . كان ذلك فى بلد مزدحم فى أحد أيام الشتاء . كنت أشيع جنازة وقد لطخنى الهباب الذى يتساقط من مداخن المصانع السوداء ومنازل الضواحى الفظيعة .

وشيعنا الجنازة وسط الأوحال ، وكانت الكنيسة حديثة عهد ، رطبة متضعة . وكان المشيعون — ما عدا اثنين أو ثلاثة أشخاص من أقارب المتوفى ، أفقدهم الحزن وعيهم — لا تساورهم إلا فكرة واحدة البحث عن ذريعة للانسحاب . والذين والوا السير إلى المقابر هم من لم يجدوا سبباً للانسحاب . إنى أرى الجدران الرمادية وشجر السرو النخرة ، السرو شجر الشمس والظل ما أجملها فى مناظر الجنوب ،

على تل مرتفع أزرق . وأرى أيضاً حملة النعش ، فى بشاعة منظرهم ، وحللهم وقبعاتهم القـذرة اللامعـة العتيقة . أرى . . . لا كفى . هذا فظيع .

وثمة حفرة كانت إلى جانب الجدار حفرت فى صلصال أصفر ملئ بالحصى ، وهناك أودعوا جثة الميت الذى صرت لا أذكر اسمه .

وبينما كانوا ينزلون الجثة فى الحفرة نظرت إلى يدىّ — هاتين اليدين اللتين ضمتا يدى أنتينيا فى مشهد فريد فى لألائه . أشفقت على جسدى إشفاقا عظيما ، وخشيت عليه كثيراً مما يتهدده فى تلك البلاد الموحلة . ورددت : « أيقدر لهذا الجسد ، هذا الجسد العزيز ، هذا الجسد الفريد بلا شك ، أن ينتهى إلى هذا المكان ؟ لا ! لا أيها الجسد الثمين بين الكنوز . إنى أقسم لك لأجنبنك هذه الاهانة . لا ! لن تتعفن تحت رقم فى قذارة مقبرة تحت الأرض . إن رفاقك فى الحب ، هؤلاء الفرسان الخمسين من الأوريشلك ، ينتظرونك صامتين جامدين فى قاعة المرمر الأحمر . سأعرف كيف أقودك إلى جوارهم .

حب غامض . — يا لعار من يفشى أسرار حبه ! إن الصحراء تبسط حول أنتينيا حاجزها الذى لا سبيل إلى اختراقه . ولذا تجد أن مطالب هذه المرأة المعقدة فى الواقع أكثر حياء وعفة من زواجك وما إليه من إعلانات مهرجة فاحشة و إذاعات ودعوات تنبئ شعباً ساخراً وضيعاً أن فى ذلك التاريخ وفى تلك الساعة سيكون لك الحق أن تغتصب عذراء لا تساوى أربع مليمات .

أعتقد أن هذا هو كل ما أردت أن أحدثك به . لا ! فهناك شئ آخر .

لقد حدثتك منذ لحظة عن قاعة المرمر الأحمر . فهناك فى جنوب تشرشل القيصرية القديمة ، غربى النهر ماء زعفران الصغير ، وعلى تل ، يتبدى فى الصباح وسط الضباب الوردى ، هرم غامض من الحجر ، يسميه أهل المقاطعة « مقبرة المسيحية » . هناك دفن جثمان جدة أنتينيا ، كليوباطرة سيلينى ، ابنة مارك أنطوان وكليوباطرة . وقد احتفظ هذا الأثر بكنزه مع أنه قائم فى طريق الغزوات ، ولم يستطع أحد أن يستكشف الحجرة الملونة حيث يثوى هذا الجسد الرائع فى تابوته الزجاجى . إن الحفيدة لتعرف كيف تفوق ما عملته الجدة عظمة وكآبة . وفى وسط قاعة المرمر الأحمر ، وعلى الصخرة حيث تتردد أنات النافورة الخافتة المظلمة ، أعد سطح مستو ستثوى فيه تلك المرأة العجيبة التى حدثتك عنها جالسة على مقعد من الأوريشلك ، وقد وضع على رأسها التاج والثعبان الذهبى وفى يدها عصا نبتون المثلثة ، يوم تتلقى كل من المائة والعشرين كوة المحفورة على شكل دائرة حول عرشها ، فريستها مبتهجة راضية .

لما غادرت الحجار كانت المقبرة رقم ٥٥ هى المخصصة لى ، كما تذكر ، ومنذ ذلك الوقت وأنا لم أكف عن الحساب . انتهيت إلى أننى سأرقد فى الكوة المتمة الثمانين أو الخامسة والثمانين . ولكن لعلى مخطئ فى حسابى ، مادام يرتكز على أساس ضعيف مثل نزوات امرأة . ولذا تجدنى دائم الاضطراب . يجب أن نسرع ، يجب أن نسرع .

فرددت كأننى فى حلم :

— يجب أن نسرع .

فرفع رأسه وعلى وجهه علامات فرح لا توصف ، وكانت يداه

ترتعـدان من السعـادة وهما يضمان يدىّ . وردد فى نشوة :

— ستراها ! ستراها !

وضمنى فى وله بين ذراعيه طويلا .

كانت تغمرنا سعادة غريبة . وحين كنا نضحك مرة ونبكى أخرى كالأطفال لم نكن نكف عن القول :

— فلنسرع ، فلنسرع .

وفجأة هبت ريح خفيفة جعلت تهز أعشاب السقف هزًّا عنيفاً ، وزاد لون السماء البنفسجى الشاحب شحوباً . وفجأة شق السماء خيط كبير أصفر من ناحية الشرق ، وشعشع الفجر فى الصحراء الخالية . وسمعت ضجة صماء فى أقاصى الحصون : هديراً ، وأصوات سلاسل . كان المركز يستيقظ .

وظللنا بضع ثوان دون أن ننبس بكلمة ، ونظرنا متجهين نحو طريق الجنوب ، الطريق التى تؤدى إلى تيماسنين ، أجيريه والحجار .

وسمعنا من خلفنا على باب حجرة الطعام ، طرقة جعلتنا نرتعد . فقال دى سانت أفيت فى صوت غدا ناشفا .

— أدخل .

فاذا الجاويش شاتلان .

فسأله أندريه دى سانت أفيت فى لهجة جافية :

— ماذا تريد منى فى مثل هذه الساعة ؟

كان الجاويش قد وقف وقفة انتباه .

— أطلب المعذرة يا سيدى الكابتن . لقد فاجأت الدورية الليلة ...طنيا بالقرب من المركز . ولم يكن مختبئاً على كل حال . وعندما

نقل من سكانه طلب أن نوصله إلى القائد . وكان الليل قد انتصف ولم أرد أن أزعجك .

— من هو هذا الوطنى؟

— طارقى يا سيدى الكابتن .

— طارقى ! اذهب وأحضره .

فانزوى شاتلان جانباً . كان الرجل خلفه يخفره أحد جنودنا . ودخلوا السطح .

كان القادم طارقيا فعلا ، وكانت قامه ستة أقدام ، وكان النهار الناشئ يلمع ملابسه القطنية الزرقاء اللون . وكنا نرى عينيه الواسعتين الداكنتين تلمعان . ولما وقف أمام زميلى رأيت رعدة تهز الرجلين سرعان ما تغلبا عليها .

ونظر كل منهما إلى الآخر لحظة فى صمت .

ثم قال الطارقى بصوت هادئ وهو ينحنى :

— السلام عليكم أيها الملازم دى سانت أفيت .

فأجابه أندريه بنفس الصوت الهادئ :

— وعليك السلام يا صغير بن شيخ .

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية

صف

دنا .

النهار
عينيه
عـدة

DATE DUE

JAFET LIB.
1 JUN 1982

[redacted]
بنوا ،بيير
غانية اطلنطا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031945

[redacted]
١٠
بنو - بيير
غانية اطلنطا

843
B47gAk